

المجلد الثاني

الحسين بن علي

الأستاذ مرتضى الطهراني

الجزء الأول

المجلة
الحسينية

الملاحسة الحسينية

الأستاذ مرتضى المطهري

الجزء الأول

الطبعة الثالثة قم
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

منشورات
المركز العالمي للدراسات الإسلامية
قم - إيران
ص - ب ٤٣٩

الملحمة الحسينية الجزء الأول والثاني
الأستاذ مرتضى المطهري
المركز العالمي للدراسات الإسلامية
الطبعة الثالثة
مطبعة اسماعيليان
١٤١٣ هـ - ق - ١٩٩٢ م
٤...
كل دورة ٤٥٠٠ ريالاً

اسم الكتاب:
المؤلف:
الناشر:
الطبعة:
المطبعة:
تاريخ الطبع:
النسخة:
السعر:

حقوق الطبع محفوظة للناسر

مقدمة الناشر « ملحة فريدة ، بقلم كاتب فريد »

أجل ، إنه الكاتب الشهيد ، العالم الشهيد ، الأستاذ الشهيد ؛ إنه الشهيد مرتضى المطهري ، الابن البار للشريعة السمحاء ، واللسان الصادق الأمين ، يحدثنا عن « ملحة » ملحة ليست كغيرها من الملاحم ، إنها الملحة الحسينية .

إنه يحدثنا عن فريدة هذه الملحة ، فيكشف لنا عن مكنون من دررها ، وكلها درر ؛ ويتناولها من جانب مضيء من جوانبها المشرقة ، وكلها إشراق ، ويضع أيدينا على جوهر هذه النهضة المباركة ، التي شكّلت منعطفاً حاسماً في مسار التاريخ الإسلامي المجيد ، كما كانت ، وما زالت ، وستبقى مناراً مشعاً يقود السالكين في دروب الحق ، ومعارض الحقيقة .

« الملحة الحسينية » واقعة فريدة في التاريخ كله ؛ فهل أجدر من خبير شهيدنا ، يكشف لنا عن فرادتها وأحدثتها ؟ لا ، فليس يبتك كمن هو خبير .

« الملحة الحسينية » مدرسة فريدة ؛ باقية ما بقيت الأيام ؛ فهل أجدر من أستاذ جامعي عبقرى روحاني شهيدنا ، يكشف لنا عن فرادتها بين المدارس ، بلسان المنطق والفصاحة ، وحديث الواقع والحقيقة ؟ لا ، فليس يعلمك كمن هو معلم .

« الملحة الحسينية » منارة فريدة ، بعثت وتبعث بإشعاعها على مرّ

العصور ، كاشفة زيف التحريف ، معرّية باطل الانحراف الذي شاب مسيرة الدعوة الإسلامية في بواكير أيامها ، مقومة ما طرأ عليها من اعوجاج ، مزيلة ما علق بها من أدران المصالح الضيقة ، ونزعات التسلط والسلطان ؛ فهل أجدر من محقق أريب كمحققنا الشهيد ، بأن يأخذ بأيدينا إلى دروبها ، ويسبر أغوارها فيكشف لنا عن فرادتها في الإشعاع ؟ لا ، فليس يرشدك إلى الحق والحقيقة كمن هو محقق .

« الملحمة الحسينية » كانت فريدة بأبطالها ، بفائدها ، بأهل بيته الكرام ، بأصحابه وأنصاره الميامين ، برفاق دربه البررة ، بالأصالة والحق الذي كان رائد كلّ منهم ، تلك الفرادة التي اجتذبت أفراداً كثيراً من معسكر الأعداء إلى معسكر الحق ، وأرواحهم على أكفهم قدموها قرباناً للحق ، في حين لم يستجل التاريخ أن فرداً واحداً مال من معسكر الحق إلى معسكر الباطل ، رغم مغريات الأمن والسلامة ؛ حقيقة ليس أجدر من كاتبنا بتبيان أصالتها وفرادتها .

يتناول كاتبنا هذه الملحمة الفريدة من جانبها الحيّ الملهب صدقاً وحماساً ، المشع أصالة ونبل هدف ، تناول الجراح وقد أشرع مبضع الحقيقة والواقع ، وراح يزيل ما تراكم عليها من أدران الوهم والخيال ، ويكشف زيف ما علق بها من تشويه الأساطير والخرافات ، ويدفع ما لحق بها من مبالغات وشطط ، تلك العلل التي كادت تخرج بها - لولا أصالتها وفرادتها - عن أصلها وجوهرها وحقيقتها ، ثم يبرزها إلينا صافية نقية ، لا أمت فيها ولا شك ، قويمه لا عوج فيها ولا انحراف ؛ ويقدمها لنا - كما هي جوهرها وحقيقة - حركة مباركة هادفة ، وقد قامت على منهج ، وسارت بخطوات راسخة مدروسة نحو الهدف ، محققة ما شاء لها بطلها ومفجرها سيّد الشهداء عليه رضوان الله وسلامه ، متسلحاً بإيمانه الأصيل ، عارفاً طريقه ، واضحة أمامه أهدافه ، بيّنة أمامه غاياته ، رافعا أشرف لواء وأسمى راية ، لواء الحق والحقيقة والإيمان ، وراية الشهادة والعطاء والرضوان .

وقد سلّط أستاذنا الشهيد في « ملحمة » الأضواء على الهدف والدافع الأساس لتلك النهضة المباركة ، ألا وهو الأصل الإسلامي الكبير والعظيم : « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » ، مبيّناً - دون تجاهل لتأثير أسباب أخرى -

بالوقائع والتواريخ وتسلسل الأحداث ، أن هذا الهدف السامي ، كان الباعث والمحرك والدافع لهذه النهضة العظيمة ، وأن هذا الهدف - بعد أن رأينا تحقق مفاعيله في الواقع - كان مفجّرها والغرض منها ، دون غيره .

وها هو بطلها سلام الله عليه ، يقول في بدء تحرّكه : « إِنِّي ما خرجت أشراً ، ولا بطراً ، ولا مفسداً ، ولا ظالماً ؛ إِنَّمَا خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي . أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدي وأبي . . . » .

وهذا فصل الخطاب !!

ولم ينس المؤلف الشهيد - وهو يواكب سير « ملحمة » مواكبة الفريق الأمين - أن يتناول بالدرس والتحليل والتدقيق كلّ ما يمتّ إلى « ملحمة » بصلة ، فأتت شاملة وافية ، آسية شافية ، بعد أن سخّر لها صدقه وأمانته ، فوصل بها ، ومعها ، إلى ما أراد ، وكان الحقّ ما أراد .

أراد فتح العيون المغلقة ، على الحقيقة ، وتبصرة من غلب عليهم رين الغفلة ، ومن أصابهم داء التحريف والانحراف ، فوقعوا في غياهب العتمة ، ومهاوي الظلمة ؛ فقدّمها إليهم صافية نقية لا عيب فيها ولا شائبة ، وأبرزها لهم حركة رائدة في سبيل الحق ، واقعية المنطلق والغاية ، فالحقّ باعثها ، والحقّ سبيلها ، والحقّ رائدها ، والحقّ سلاحها ، والحقّ غايتها التي بلغت مداها .

كما لم ينس الشهيد الكبير أن يرفع صوت الغضب في وجه من يحتفلون بذكرى هذه الملحمة المجيدة ، احتفالاً خاوياً أجوف ، يخرج بها عن أصلاتها وجوهرها ، لا غرض لهم سوى البكاء والنحيب ، لمجرّد البكاء والنحيب ؛ ويتوسلون للوصول إلى هذا الغرض بوسائل غير مشروعة ، يحتفلون الأكاذيب ، ويخترعون القصص المؤثرة ، بحجة أنها تدفع الناس إلى البكاء ، في حين أن الحريّ بهم - وهم على ذلك - أن يبكوا على أنفسهم ، أن يبكوا على اجتراحهم للكذب ، أن يبكوا على ما وصلوا إليه من ذلّة وهوان ، بعد أن أضاعوا جوهر هذه النهضة الملهمة ، متناسين ما تدعو إليه الذكرى من سموّ وقيم ، متناسين أن الذكرى ليست سوى باعث على اليقظة والتحفز ، باعث على الوقوف بإباء وشمم في وجه العتاة الجبابرة ، باعث على القيام في وجه كلّ مستعمر جائر ، باعث على

بلورة الأصالة الشخصية للأمة ، باعث على رفض الذل والخنوع ، باعث على العزة ، التي أرادها لنا إسلامنا العظيم ، وأرادها لنا بطل هذه الحركة المباركة ، التي نحتفل بذكرها وذكرها ، وهو القائل :

« أَلَا وَإِنَّ الدَّعْيَ ابْنَ الدَّعْيِ ، قَدْ رَكُزَ بَيْنَ اثْنَيْنِ : بَيْنَ السَّلَةِ وَالذَّلَةِ ، وَهِيَهَاتَ مِنَ الذَّلَةِ ؛ يَا أَبَیْ اللَّهِ ذَلِكَ لَنَا ، وَرَسُولُهُ ، وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَحُجُورُ طَابَتْ وَطَهَرَتْ ... » !

وتناسوا أنه قال :

« والله ، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقر إقرار العبيد » !
تلك هي أقواله ، وتلك هي تعليماته وإرشاداته إلى شعبه وأمتة ، فهو يرسم لهم طريق الحياة المثل ، ولا طريق سواها ؛ فبمثل هذا فليحتفل المحتفلون !
وبالعودة إلى « ملحمة » الشهيد ، ومواكبته لمسيرها ، نراه يتحدثنا في الجزء الأول من كتابه عن التحريف في هذه الواقعة ، وعن أنواعه وأسبابه ، وعوامله ، وبواعثه ، مستوفياً كل ما يحتاجه هذا الموضوع من درس وتحليل وتحقيق .

كما نراه يتحدثنا في الجزء الثاني منه عن مقولة « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » شارحاً محققاً ، مستوفياً كل تفاصيل ودقائق وشروط هذا الأصل الإسلامي الخطير ، وأثره في حياة الأمة ؛ معرجاً في ختام بحثه على حقيقة عاشوراء وجوهرها الأصيل ، المتناغم مع هذا الأصل الإسلامي العظيم .

وفي الجزء الثالث من كتابه يتحدثنا الشهيد عن الإطار العام لواقعة كربلاء ، وعن الجذور التاريخية لها ، كما يتحدثنا عن قيمة الشهيد والشهادة في إطار المنطق السليم ، والأهداف المقدسة ، وحسن السمو ، وتوفر الإدراك ، وشجاعة الروح والجنان ، وتوازن القول والعمل ، وتناغم الخلق وكيفية الأداء ، أمور تميزت بها هذه الواقعة وسمت .

كما يتحدث إلينا عن فلسفة النهضة الحسينية وماهيتها ، دون أن يغفل عن إيراد ملاحظات هامة حول التحريف الذي أصابها ، وأسبابه ، وأنواعه ، ودوافعه ؛ معرجاً على المثل التي حملتها هذه الملحمة المباركة .

ويختتم المؤلف الشهيد الأقسام العشرة لهذا الجزء الثالث بملاحظات نقدية تتناول بعض الكتب التي تعرّضت لهذا الحدث الكبير .

هذا ، ولا يفوتنا - والحديث يتناول كاتبنا الفريد - أن نعرّج على بعض ما تركه لنا هذا الرجل الكبير من آثار تشهد على ما كان يمتاز به من علم واسع ، وثقافة عالية ؛ وما بذله من جهد لا يدان في سبيل إعلاء كلمة الدين الخفيف ، ومحتواه الفكري الأصيل ، وفي تعريته لأساليب المحرّفين ، وأغراض المغرضين ؛ يساعده ما عرف عنه من سعة في اطلاعه ، وسعة في تحصيله ، وسعة في صدقه وإيمانه وتقواه ، وسعة في حسن خلقه ، وسعة في محبته للناس ، كلّ الناس ، يعطف ويرشد ، يحنو ويعطف ، كالأب الحارس العطوف .

ترك لنا - رحمه الله - من الكتب القيمة ما يربو على خمسين كتاباً ، تمّ نشر أكثرها ، نذكر منها : كتاب العدل الإلهي ، الإدارة والقيادة في الإسلام ، نظام حقوق المرأة في الإسلام ، مسألة الحجاب ، الإنسان والمصير ، النبي الأمي ، تفسير الكون ، قصص أهل الحق ، أصول الفلسفة ، المجتمع والتاريخ ، الحياة الخالدة ، وغيرها .

إضافة إلى مقالات وأبحاث منفردة ، وشرائط تسجيل وفيرة ، تناول فيها كلّ مناحي الحياة ، إلى أنواع العلوم : من فقه ، ومنطق ، وفلسفة ، وعرفان ، وتفسير ، وقانون ، واقتصاد ، واجتماع ، و . . .

ولا ننسى خطاباته وكلماته البليغة الهادفة ، التي لم تخل منها مناسبة اجتماعية هامة ، أو مجلس ديني ، أو موقع علمي ؛ فقد كان - رحمه الله - معيناً ثراً دافقاً ، لا ينضب من عطاء ، ولا تعوزه همّة أو نشاط ، فالنفس الصادقة الكريمة لا تعرف البخل في العطاء ، ولا تعرف الكلل والعناء .

وأدعكم الآن مع « الملحة الحسينية » ، تهلّون بأنفسكم من معين صفحاتها ما يروي العطش والغليل ، وما يشفي الظمأ إلى المعرفة الحقّة ، الخالية من العقد ، البريئة من السفساف ، بالأسلوب السهل المباشر الصادق ، الذي التزمه كاتبنا الكبير في « ملحمة » المجيدة ، وما أصدق ما استشهد به من قول :

« كم من شاعر يولد بعد عماته » !!
ونحن نقول :
« كم من عبقرى يعرف بعد وفاته » !!
ورضى الله هو القصد . . .

الأستاذ نادر التقي
الدار الإسلامية



القسم الأول

التحريف في واقعة كربلاء أنواعه وعوامله

المحاضرة الأولى : معنى التحريف وأنواعه

المحاضرة الثانية : عوامل التحريف

المحاضرة الثالثة : التحريفات المعنوية لواقعة كربلاء

المحاضرة الرابعة : واجبنا ومسؤوليتنا تجاه التحريف

المحاضرة الأولى

معنى التحريف وأنواعه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين باري الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله
يرسوله وحبيبه وصفيّه سيدنا ونبيّنا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله
يسلم ، وعلى آله الطيّبين الطّاهرين المعصومين . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :
﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ
مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (١) .

يتناول موضوع بحثنا التحريفات التي تعرضت لها واقعة كربلاء
التاريخية ، فقد تعرضت هذه الواقعة الكبرى أثناء عرضها إلى تحريفات عديدة ،
ولهذا فإننا سنلخص هذا البحث في أربعة فصول . في الفصل الأول ستحدث
عن معنى التحريف وأنواع التحريفات الموجودة في العالم ، كما سنشير إلى أنواع
التحريفات المختلفة التي تعرضت لها حادثة عاشوراء التاريخية . أما الفصل الثاني
فسيدور البحث فيه حول عوامل التحريف ، أي إننا سنبحث في الأسباب
والبواعث التي تؤدي إلى حصول التحريف في قضايا العالم بشكل عام وما هي
العلة الكامنة وراء تحريف البشر للوقائع والأحداث وأحياناً الشخصيات

(١) سورة المائدة : الآية ١٣ .

التاريخية ؟ لا سيما أثناء نقلهم وروايتهم لحادثة كربلاء ، وما هي العوامل التي كانت مؤثرة في حصول التحريفات في هذه الواقعة . والفصل الثالث سيكون عبارة عن شرح للتحريفات التي حصلت بشأن هذه الواقعة والحدث التاريخي . وأخيراً سيخصص الفصل الرابع لشرح الواجبات والمهام الملقاة على عاتقنا نحن المسلمين علماء وجامعين تحيلة هذه القضية .

البحث الأول : حول معنى التحريف .

فما هو معنى التحريف ؟

التحريف في اللغة العربية يرجع إلى الجذر - حَرَفَ - أي حرف الشيء عن مسيره واتجاهه الأساسي الموجود أو الذي ينبغي أن يكون . بعبارة أخرى فإن التحريف عبارة عن نوع من التغيير والتبديل ، غير أن التحريف يشتمل على شيء لا تصدق تسميته بالتغيير والتبديل ، فأنت إن قمت بعمل ما بحيث يؤدي إلى عدم إيصال المفهوم المراد من جملة أو رسالة أو شعر أو عبارة ما ، بل هو يوحى بمفهوم آخر ، فعندئذ يقال : إنك قد حَرَفْتَ تلك العبارة ؛ فمثلاً : يحدث لك أن تحدث أحدهم بأمر أو قول ما ، فينقل ذلك الشخص حديثك إلى شخص آخر في مكان آخر ، ثم يأتي هذا الشخص ويقول لك إن فلاناً يقول بأنك قلت كذا وكذا ، وإذا بك تدرك بأن ما قلته أنت يختلف كثيراً عما ينقله لك هذا الشخص . أي إن الرجل قد أدخل زيادةً أو نقصاناً على حديثك الأصلي ، كأن يكون قد حذف بعضاً من كلماتك التي تفيد المقصود ، وأضاف أشياء أخرى من عنده ، وبالتالي فإن حديثك يكون قد مُسَّخ وتحوّل إلى شيء آخر تماماً . عند ذلك تقول بأن هذا الرجل قد قام بتحريف حديثي . وخاصة إذا تصرف أحدهم بالسندات والوثائق الرسمية فيقال إن فلاناً زوّر الوثيقة .

كانت هذه أمثلة لتوضيح معنى كلمة التحريف ولا حاجة إلى مزيد من التوضيح بهذا الشأن . والآن نتطرق إلى شرح أنواع التحريف :

هناك أنواع عديدة للتحريف أهمها : التحريف اللفظي والتحريف

المعنوي . التحريف اللفظي عبارة عن تغيير الشكل الظاهري لموضوع ما ، كأن تضاف عبارة إلى حديث أو موضوع أو تحذف عبارة منه . أو أن يتم التلاعب بذلك الحديث عن طريق تقديم وتأخير جملة وعباراته بشكل يؤدي إلى تغيير المعنى ، وفي الحالتين فإن ما يحصل هو نوع من التصرف في ظواهر وألفاظ الحديث .

بينما في حالة التحريف المعنوي فإنك لا تتصرف في اللفظ . إذ يبقى اللفظ على حاله . لكنك تقوم بتفسير ذلك اللفظ بشكل يؤدي إلى مفهوم مخالف للمفهوم الذي قصده المتكلم . أي إنك تفسر الموضوع بشكل يطابق وجهة نظرك ولا يطابق وجهة نظر المتكلم الأصلي .

إن القرآن الكريم تطرق إلى مفهوم التحريف لا سيما فيما يتعلق بأعمال اليهود . ومن خلال نظرة للتاريخ البشري يتضح لنا بأن هؤلاء القوم هم أبطال التحريف على امتداد التاريخ . لا أدري ما هو عنصر هؤلاء القوم وعرفهم حتى تراهم يميلون ميلاً عجيباً إلى قلب الحقائق وتحريف الوقائع . ولهذا تراهم يُسكنون بمقاليذ الأمور والشؤون التي يمكن لهم من خلالها ممارسة عملية قلب الوقائع وتحريفها . لقد سمعت أن بعضاً من وكالات الأنباء العالمية الشهيرة التي دائماً ما تنقل عنها الإذاعات والصحف أخبارها هي في الواقع تحت سيطرة اليهود . لماذا ؟ حتى يتمكنوا من عكس قضايا العالم حسب وجهة نظرهم .

إنها الصفة الملازمة لليهود على مر التاريخ حتى أنها أصبحت جزءاً من طبيعة العنصر اليهودي ، الأمر الذي يشير إليه القرآن الكريم بشكل عجيب أثناء عرضه لسلوكهم وتصرفهم مع نبي الله موسى (ع) وتحريفهم لتعليقاته كما ورد في إحدى آيات سورة البقرة في قوله تعالى :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

نعم إنهم يُحرِّفون الكلام ليس من باب عدم الفهم أو سوء الفهم ! لا ، بل لأنهم قوم أذكىاء وحاذقون ، لكنهم في نفس الوقت يقلبون الحقائق ويمسخونها عن وعي وسابق تصميم عندما يعرضونها للناس . وهذا هو التحريف . أي تدوير الكلام ، وعرض الأمور بطريقة معوجة وحرفها عن منهجها الأصلي ؛ إنهم قوم حَرَفُوا تعاليم الله . وقد وردت أمثلة كثيرة على أعمالهم هذه في القرآن الكريم سواء عندما تم ذكر كلمة التحريف أو عندما جاء التعبير بشكل اصطلاحات مرادفة . وكما يذكر المفسرون فإن القرآن الكريم في تناوله لمسألة التحريف لم يقصد التحريف اللفظي فقط بل التحريف المعنوي أيضاً ، أي تحريف المعنى المقصود للقضايا من خلال التفسير المُحرَّف . وحتى لانخرج عن سياق بحثنا نعود إلى أصل البحث ونقول .

إن للتحريف منازل أيضاً حسب الموضوعات المحرَّفة فمرةً يجري التحريف لقول عادي من أقوال الناس كأن يتم تحريف ما قاله فلان على لسان فلان من الناس . ولكن مرة أخرى يتم التحريف أثناء التعرض لموضوع اجتماعي كبير كأن يُحرَّف كلام شخصيات عظام أو سلوك شخصية تاريخية عظيمة يكون قولها وعملها يُشكلان سداً تاريخياً للأجيال ومثالاً يُجْتَذَى به على مر الزمن . فعلى سبيل المثال عندما يُنسب قول للإمام علي (ع) وهو منه براء . أو أن يُفسَّر كلامٌ له على غير منحاها . فعند ذلك يصبح الأمر خطيراً للغاية . كذلك عندما تنسب أخلاق معنية إلى النبي أو إلى الأئمة الأطهار وهم منها براء . أو عندما يتناول التحريف حادثة تاريخية كبرى هي بمثابة وثيقة اجتماعية هامة وذات قيمة أخلاقية وتربوية للمجتمعات البشرية . هل تتصورون معي الخطر العظيم والاهمية البالغة لمثل هذا التحريف سواء أكان التحريف لفظياً أو معنوياً . إذ إن الموضوع هنا ليس موضوعاً بسيطاً وعادياً . فمرةً يتم تحريف شعر حافظ (الشاعر الإيراني الشهير) أو كما جرى مثلاً في قصة (الفأر والقطعة) ، فعلى الرغم من قيمة هذه الموضوعات الأدبية وأهميتها إلا أنها تبقى أموراً عادية لا تؤثر كثيراً في اتجاه الحياة العامة ومسيرتها .

لقد كتب أحد الأساتذة مرةً مقالاً حول كتاب (الفأر والقطعة) الشهير وهو

الكتاب الادبي القِيم وعرض فيه مقدار التلاعب الكثير الذي تعرض له هذا الاثر الادبي سواء في الزيادة أو النقصان في الموضوعات والاشعار الواردة إلى الحد الذي أصبح فيه أصل الكتاب غير معروف ومجهولاً تماماً . ثم كتب مُعلّقاً بقوله بأنه لا يوجد قوم في الدنيا يخونون الأمانة بمقدار الشعب الإيراني حتى إنهم مسحوا لأنفسهم بالتلاعب بأثارهم وتصرفوا وحرّفوا بها كيفما شاؤوا . والأمر لا يقتصر على أثر أدبي مُعيّن . لقد ألحقوا مثلاً أبياتاً كثيرة من الشعر بكتاب « المشوي » المعروف ونسبوها إلى الشاعر المؤلف « مولوي » بحدود لا حصر لها . فهناك مثلاً بيت من الشعر حول أثر المحبة في المثنيات حيث يقول ما مضمونه :

بالحب ينقلب المرار حلاوة بالحب ينقلب النحاس إلى ذهب

وهو أمر معقول وقولٌ حق ، فالمحبة لها سحر الكيمياء التي تستطيع أن تحول الوجود المر في الإنسان إلى وجود حلو ونحاسة إلى ذهب لكنهم جاؤوا بعد ذلك وأضافوا لهذا الأصل الصحيح أشعاراً أخرى وقالوا مثلاً وبدون أية مناسبة : المحبة تجعل من الحية صرصوراً أو إن المحبة تحول السقف إلى جدار أو إنّ المحبة تجعل من الشام بطيخاً ، وهي أمور ليس لها أي علاقة بالموضوع أبداً . وطبعي القول بأنه لا يجوز التلاعب والتحريف بهذا الشكل بالموضوعات لكن مثل هذا التحريف لا يشكل صدمة لحياة وسعادة المجتمع البشري ولا يسبب أي اعوجاج في مسيرة المجتمع الإنساني . بينما تشكل عملية التحريف في الأشياء المرتبطة بأخلاق الناس وتربيتهم ودينهم أمراً خطيراً، والأخطر من ذلك كله لو تناول التحريف المستندات والأثار والأسس التي تستند إليها البشرية في حياتها العامة .

وحادثة كربلاء شتاً أم أبناً حادثة اجتماعية كبرى بالنسبة لشعبنا وأمتنا، أي إنها حادثة مؤثرة للغاية في تربية أهلنا وأخلاقهم وعاداتهم وسلوكهم . إنها الحادثة التي تدفع بشعبنا ، بشكل آلي ، ودون تدخل أية قدرة خارجية ، إلى أن يتوجه الملايين منه لصرف ملايين الساعات من جهدهم ، وإنفاق الملايين لساعات ما يرتبط بهامن قضايها . إنّ هذه القضية ينبغي عرضها كما هي ودون زيادة أو نقصان لأنه في حالة أي تدخل أو تصرف في اللفظ أو المعنى مهما كان بسيطاً سيرتب بلا شك حرف اتجاه الحادثة عن

سارها وبالتالي إلحاق الضرر بأمنا بالتأكيد بدلاً من إفادتها منها .

والآن أعود لأقول : إننا وللأسف الشديد قد حرفنا حادثة عاشوراء ألف مرة ومرة أثناء عرضنا لها ونقل وقائعها ! حرفناها لفظياً أي في الشكل والظاهر أثناء عرض أصل الحادثة ، مقدمات الحادثة ، متن الحادثة والحواشي المتعلقة بالحادثة . كما تناول التحريف تفسير الحادثة وتحليلها . أي إن الحادثة مع الأسف قد تعرضت للتحريف اللفظي كما تعرضت للتحريف المعنوي . أحياناً يحصل التحريف بشكل يتناسب - نوعاً ما - مع أصل القضية وينسجم مع مقدماتها ، غير أنه في أحيان أخرى يتم التحريف ليس فقط دون أي تناسب أو اتساق مع أصل القضية ، بل إن التحريف ينسف أصل القضية ومسحها تماماً ويخرجها بشكل مضاد للأصل بالكامل . وأقول بكل مرارة : إن التحريفات التي أصابت هذه القضية على أيدينا كانت كلها باتجاه التقليل من قيمة الحادثة ومسحها وتحويلها إلى حادثة لا طعم لها ولا معنى . والمسؤولية تقع هنا على الرواة والعلماء ، كما تقع على العامة من الناس ، وهو ما سأوضحه لاحقاً إن شاء الله .

إنني أنقل لكم أولاً بعض التحريفات التي تعرض لها الشكل الظاهري للقضية أي التحريف اللفظي للحادثة ، أي ما نسب إلى أصل الحادثة من أقوال . إن المادة المزورة والمدسوسة كثيرة للغاية ولا يمكن حصرها بسهولة ، وإذا ما أردنا جمع كل المآثم الكاذبة فإننا ربما سنحتاج إلى عدة مجلدات ضخمة ! ولكنني أعرض عليكم نموذجاً فقط من هذا التحريف :

المرحوم الميرزا حسين النوري أعلى الله مقامه وهو أستاذ المرحوم الحاج الشيخ عباس القمي والمرحوم الحاج الشيخ محمد باقر البيرجندي والمرحوم الشيخ علي أكبر النهاوندي ، والحاج النوري هذا محدث نادر ومتبحر في فن الخطابة والحديث ، وصاحب حافظة ذهنية قوية جداً ، ورجل حماسي ، يملأ قلبه بالإيمان ، وله ذوق رفيع ، لكن بعض كتبه كما يقال لم تكن تناسب شخصيته ولهذا تعرض إلى اللوم ، غير أن كتبه بوجه الإجمال جيدة ، وخاصة كتابه المعروف باسم « اللؤلؤ والمرجان » وهو من الكتب الجيدة جداً بالرغم من حجمه الصغير .

والحديث في هذا الكتاب يتناول وظائف أهل المنبر وقراء المآتم الحسينية .
والكتاب كله عبارة عن فصلين ؛ الفصل الأول يتحدث فيه المؤلف عن
الإخلاص وشرط خلوص النية في كل قارئ تعزية أو خطيب منبري وواعظ
حسيني ، وضرورة ابتعاده عن الجشع المالي وحُب الكسب والارتزاق ، ولا أريد
هنا الغوص كثيراً في هذا الباب الذي فصله المؤلف بشكل عجيب . أما الشرط
الثاني الذي وضعه المؤلف لقارئ التعزية والخطيب المنبري فهو الصدق ، وهذا
هو بيت القصيد الذي أردت الإشارة إليه حيث تم شرحه في الكتاب بشكل لا
أتصور أن أحداً آخر قام بمثل هذه المهمة وبحث في موضوع الكذب وأنواع
الأكاذيب كما كتب الحاج النوري ، وهو عمل - كما أعتقد - لا نظير له في الدنيا ،
فالرجل متبحر بشكل عجيب ! .

لقد ذكر هذا الرجل الكبير في كتابه هذا نماذج من الأكاذيب المعروفة التي
ألصقها الكثيرون بحادثة كربلاء ، وهي تماثل أغلب ما أقوله ، بل كله ، وهذا ما
كان يشكو منه المرحوم الحاج النوري ، حتى أن هذا الرجل الكبير يصرح بقوله :

« من الواجب أن نقيم المآتم على الحسين (ع) ، أما المآتم التي تقام عليه
اليوم فهي جديدة، ولم تكن هكذا فيما مضى، وذلك بسبب كل تلك الأكاذيب التي
"لصقت بحادثة كربلاء دون أن يفصحها أحد ، إننا يجب أن نبكي الحسين (ع)
ولكن ليس بسبب السيوف والرماح التي استهدفت جسده الطاهر الشريف في
ذلك اليوم التاريخي ، بل بسبب الأكاذيب التي ألصقت بالواقعة » .

كما وردت في مقدمة الكتاب إشارة إلى منبع الأكاذيب حيث نقرأ قوله :

« كتب لي أحد العلماء من الهند يشكو من كثرة الأكاذيب التي يروج لها قراء
تعزية الحسينية في تلك البلاد وقد رجاني أن أعمل شيئاً بهذا الخصوص كأن
كتب كتاباً يساهم في منع استمرار الخطباء من الكذب على المنابر الحسينية » .

ثم يكتب الحاج النوري رضوان الله عليه مضيفاً :

« إن هذا العالم الهندي يتصور أن قراء التعزية الحسينية يبدأون بشر

الأكاذيب بعد أن يصلوا إلى الهند ، ولا يدري أن المياه ملوثة من رأس النبع ، وأن مصدر الماتم الكاذبة هي كربلاء والنجف وإيران ، أي مراكز التشيع الأساسية نفسها .

والآن أود أن أذكر لكم بعض النماذج من التحريفات التي تتعلق قسم منها بوقائع ما قبل عاشوراء والبعض الآخر بالوقائع التي حصلت في الطريق إلى كربلاء ، وأخرى تتعلق بأيام الإقامة في شهر محرم الحرام أو بأيام الأسر . وهناك البعض منها مما هو متصل بحياة الأئمة الأطهار الذين توالوا بعد حادثة عاشوراء ، ولكن أغلب النماذج ستكون مرتبطة بيوم عاشوراء نفسه .

والآن سأورد لكم نموذجين من كل حالة . ولكن قبل ذلك أجد من الضروري الإشارة إلى أن الناس مسؤولون أيضاً عما يجري في هذا المجال . ألا ترون أنفسكم أنتم المشاركين في هذه الماتم الحسينية بأنكم مسؤولون أيضاً ؟ أعتقدون فعلاً بأن المسؤولية تقع على عاتق الخطباء لوحدهم ؟! أبداً ، فهناك مسؤوليتان كبيرتان ينبغي على جمهور العامة تحملها على الدوام .

أولاً : إن النهي عن المنكر واجب على الجميع . وعليه فإن من يعرف بأن ما يقال على المنابر كذب وافتراء - وأكثر الناس تعرف ذلك - فإن من واجبه عدم الجلوس في مثل هذه المجالس لأنه عمل حرام والواجب يتطلب منه مقاومة هذا الكذب وفضحه .

وثانياً : لا بد لنا جميعاً من قهر هذه الرغبة اللامسؤولة المنتشرة بين الناس والخطباء ، والتي تتوقع من المجالس الحسينية أن تصبح مجالس حارة وحماسية أو كما يصطلح عليها البعض « كربلاء ثانية » . فالخطيب المسكين تراه أحياناً يقع في حيرة إذا ما تكلم الصدق وقال الحقائق دون زيادة أو نقصان من على المنبر الحسيني إذ إن نتيجة ذلك ستكون نعت مجلسه بالمجلس البارد وغير الحماسي وبالتالي عدم رغبة الناس بدعوة هذا الخطيب مجدداً ، مما يضطره إلى اختراع بعض القصص الخيالية لإدخال الحرارة إلى مجلسه !

وواجب الناس هنا هو مقاومة هذه الرغبة اللامسؤولة وإثبات ذلك

بسلوكهم ، فلا يقوموا بتشجيع مثل هذا الخطيب الحسيني الذي يريد تحويل مجلسه إلى كربلاء ثانية بأي ثمن كان .

فما معنى خلق كربلاء ثانية ! ينبغي على الناس أن تستمع إلى المآثم الحسيني الصادق حتى تتسع معارفهم وينمو مستوى التفكير لديهم ويعرفوا بأن اهتزاز روحهم مع أية كلمة من كلمات المآثم الحسيني يعني تحليقها وانصهارها مع روح الحسين بن علي (ع) ، وبالتالي فإن دمة واحدة إذا ما خرجت من مآقيهم كافية لمنحهم ذلك المقام الكبير لأنصار الحسين . أمّا الدموع التي تخرج من خلال العرض المأساوي ورسم المجزرة وتشريح الذبح والمذبحة فلا تساوي شيئاً ، حتى لو كانت بحراً من الدموع !

يذكر في هذا المجال أنّ أحد العلماء الكبار المتواجدين في إحدى المحافظات الإيرانية - وهو من العلماء الذين يحملون بعض المعاناة والألم والحس الديني ، وكان على الدوام يعترض على هذه الأكاذيب التي تقال من فوق المنابر وتعبيره في هذا الصدد هو : ما هذه السموم التي تُنفث فوق المنابر ؟

جاء مرة أحد الوعاظ يقول : أتعلم أننا لو تخلينا عن مثل هذه الحكايات لتوجب علينا إغلاق هذه الدكان ؟!

فرد عليه العالم : إنها أكاذيب يجب علينا عدم ذكرها على المنابر مهما حصل .

ومرت الأيام وشاءت الأقدار أن هذا العالم أراد مرة إقامة مجلس تعزية في مسجده الخاص ، ودعا نفس ذلك الواعظ ، وقال له قبل أن يرتقي المنبر بأنه يُريد أن يُقيم مجلساً حسينياً نموذجياً لا تُذكر فيه إلا الحقائق ، وأنه ينبغي على الواعظ الالتزام بهذه التعليمات وأن لا يقرأ من الأحاديث والذكر الحسيني إلا من الكتب المعتبرة . وأن يتجنب ذكر أي شيء من تلك السموم المعروفة . فاستجاب الواعظ وقال لأخينا العالم : المجلس مجلسك وأنا تحت أمرك .

وهكذا بدأ المجلس الحسيني في الليلة الأولى بحضور العالم نفسه الذي كان

جالساً أمام المحراب باتجاه القبلة إلى جانب المنبر . وبدأ الواعظ بالحديث ولما انتهى به المطاف إلى قراءة التعزية الحسينية التزم فعلاً بالآل يقرأ إلّا من الكتب المعتبرة ولا ينقل إلّا الحقائق ولا يقول إلا الصدق .

ولكن المجلس ظل بارداً ولم يهتز أبداً أي أحد من الحضور . هنا بدأ العالم المسؤول عن تنظيم المجلس يُفكر جدياً بالأمر ويقول بينه وبين نفسه بأن المجلس مجلبي فماذا سيقول الناس عني بعد ذلك ؟ والنساء ستقول لا بد أن الرجل ليست عنده نية صافية حتى صار مجلسه مجلساً بارداً ، فلو كان الرجل ذا نية حسنة وكان مخلصاً حقاً في نواياه لكان مجلسه قد تحوّل بالفعل إلى كربلاء . وشيئاً فشيئاً بدأ يشعر أنه سيفقد ماء وجهه إذا ما استمر الموقف بهذا الشكل . وأخيراً حسم الأمر بالتفاتة منه إلى الواعظ مشيراً إليه خفية أن يمزج أقواله ببعض تلك السموم حتى يسخن المجلس !!

باختصار يمكن القول إنّ هذه الرغبة اللامسؤولة لرؤية واقعة كربلاء وبشكلها المأساوي من طرف الناس كانت هي الدافع لاختلاق الأكاذيب . ولذلك فإنّ أغلب التزوير والكذب الذي أدخل في مواعظ التعزية كان سببه الرغبة في الخروج من سياق الوعظ والتحليق في خيال الفاجعة ، وبعبارة أخرى : فمن أجل شدّ الناس إلى صورة الفاجعة التاريخية وتصويرها المأساوي ودفع الناس إلى البكاء والنحيب ليس إلّا ، كان الواعظ على الدوام مضطراً للتزوير والاختلاق .

لقد سمعت بهذه القصة عدة مرات ولا بد أنكم سمعتم بها أيضاً والقصة هذه ذكرها أيضاً الحاج نورى في مقدمة كتابة المعروف . تقول القصة إنّ أمير المؤمنين علياً(ع) صعد يوماً إلى المنبر ليخطب في الناس . وحصل أن عطش الإمام الحسين(ع) وطلب ماء فقطع أمير المؤمنين خطبته وطلب من الناس أن يأتوا بالماء لابنه الحسين ، فكان أبو الفضل العباس وهو طفل صغير أول من نهض ليأتي بالماء حيث ذهب إلى أمه وأحضر الماء ، وعاد إلى المجلس والماء فوق رأسه وقد تبللت ثيابه إلى آخر القصة بتفاصيلها المعروفة !! . ولما رأى أمير المؤمنين(ع) هذا المنظر انسابت الدموع على خديه ، ولما سُئل عن سبب البكاء؟ أجاب عليه السلام :

تذكرتُ كذا وكذا . . . إلى آخر الخيال والتحليق المعروفة نهايته .

الحاج نوري هنا يناقش هذه القصة الخيالية بشكل جميل حيث يقول : إذا ما صدّقنا جدلاً صحة هذه القصة فهذا يعني أن أمير المؤمنين (ع) كان يُلقب تلك الخطبة في الكوفة إذ إنه عليه السلام لم يصعد إلى المنبر ويخطب إلا في زمان خلافته ، مما يعني أن ابنه الحسين عليه السلام كان رجلاً يناهز الثالثة والثلاثين من العمر في ذلك الوقت ، فهل من المعقول والمنطقي أن يقوم رجل بذلك العمر مثل الإمام الحسين عليه السلام ليطلب الماء من أبيه وهو يخطب بالناس ويعظهم ؟! وماذا لو كان مثل هذا السلوك قد صدر من شخص عادي ؟ أما كنّا قد وجّهنا تهمة الوقاحة وسوء الأخلاق لمثل هذا التصرف ؟! ثم إن أبا الفضل العباس كان قد بلغ سن الخامسة عشرة على الأقل في ذلك الزمان فأين طفولته ؟! وقس على ذلك بقية التفاصيل المختلفة جملة وتفصيلاً . فهل هذا من شأن الإمام الحسين ؟! ثم ما قيمة مثل هذه القصة المليئة بالأكاذيب ؟ وهل ترفع من شأن الإمام الحسين (ع) أم تخفض من شأنه ومقامه ؟ بالتأكيد إنها تخفض من مقامه ومنزلته لأننا لفّقنا الأكاذيب على الإمام ، وسفحنا ماء وجهه وتحدثنا عنه بشكل هبط بمستواه إلى أدنى مرتبة بين بني البشر ، فأب مثل علي (ع) مشغول بالخطابة ، وابنه يعطش فلا يحتمل الانتظار حتى تنتهي الخطبة فيشرب فيقاطع أباه ويقول : إنني عطش فأحضر لي ماء .

النموذج الآخر للتزوير والاختلاق هو قصة الرسول والرسالة حيث يقال : إن رسولاً قدم إلى الإمام الحسين (ع) حاملاً معه رسالة يُريد جوابها ، فيقول له الإمام أن اذهب وعُد إلينا بعد ثلاثة أيام . وأنه لما عاد إليه بعد ثلاثة أيام وسأل عنه قيل له بأنه عازم على المغادرة وقد بدأ تحركه ، فقال في نفسه : طالما الأمر كذلك فلاذهب لأرى كيف يكون جلال شاه الحجاز (يقصد الإمام الحسين) وعظمة موكبهِ . وانطلق فإذا به يرى الحسين نفسه وقد جلس على كرسي فخم وبنو هاشم على كراسي كذا وكذا ، ثم إذا بهم يحضرون الهوداج المزخرفة . . . يا للحرير ويا للديباج !! يا لها من فخامة ! ثم أحضروا المخدرات ، وأركبوهن بكل احترام وتعظيم في تلك الهوداج ، وإلى آخر الديباجة . . .

يقولون هذا وغيره ، ثم يقفزون فجأة إلى اليوم الحادي عشر من المحرم ،
ليقولوا للناس : انظروا ماذا حلَّ بحرم أبي عبد الله (ع) في هذا اليوم بعد تلك
العظمة والجلال والفخامة التي كانوا عليها في ذاك اليوم !!

وحول هذه الادّعاءات يقول الحاج نوري :

ما معنى هذا الكلام ؟! وما هو التاريخ يروي أن الإمام الحسين (ع) ، كان
عندما غادر الحجاز يتلو هذه الآية الكريمة :

﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ، قال ربّ نجني من القوم الظالمين ﴾ .

مشبهاً حالته (ع) بحالة موسى بن عمران عندما فرّ من فرعون وهو يقول :
﴿ عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل ﴾ .

وكانت قافلته (ع) بسيطة للغاية . ثم من قال إن عظمة أبي عبد الله تقاس
بالكرسي المذهب الذي يجلس عليه أو بالذهب المرصع أو الديباج والحريز الذي
يكسو هودج أهل بيته ؟ أو بالخيل والجمال والخدم والحشم المرافقين للقافلة !! .

هناك نموذج آخر للتحريف في وقائع عاشوراء وهو القصة التي أصبحت
معروفة جداً في القراءات الحسينية والمآتم وهي قصة ليلة أم علي الأكبر .
هذه القصة لا يوجد في الحقيقة دليل تاريخي واحد يؤكد
وقوعها . نعم فأم علي الأكبر موجودة في التاريخ واسمها ليلة بالفعل ولكن ليس
هناك مؤرخ واحد يشير إلى حضورها لمعركة كربلاء . ومع ذلك فما أكثر المآتم
التي نقرأ لنا قصة احتضان ليلة لابنها علي الأكبر في ساحة الوغى ! والمشهد العاطفي
الخيالي المحض ! حتى إنني حضرت شخصياً في قم مجلساً حسينياً
أقيم باسم آية الله البروجردي ، دون أن يكون هو حاضراً
بالطبع ، وقد سمعت في هذا المجلس أن علياً الأكبر نزل إلى
ساحة الوغى وإذا بالحسين يتوجه إلى أمه ليلة ويطلب منها الدخول إلى إحدى
الخيم ونثر شعرها والتوجه إلى ربها بالدعاء ليرجع ابنها سالماً إليها ! فإني سمعتُ
جدي رسول الله (ص) يقول بأن دعاء الأم بحق ابنها مستجاب ! فهل هناك
تحريف أكثر من هذا . أولاً ليس هناك ليلة في كربلاء حتى يُحدثها الإمام . ومن

ثم ثانياً هل هذا هو منطق الحسين في المعركة ؟ أبداً فمنطق الحسين يوم عاشوراء كان منطق التضحية والجهاد . ثم إن كل المؤرخين متفقون على أن الحسين كان يجد الأعذار لكل من يطلب التوجه إلى المبارزة ما عدا ابنه علي الأكبر فإنه لما استأذنه بالقتال أذن له كما تذكر كل الروايات : « فاستأذن في القتال أباه فأذن له »^(١) . ولكن رغم ذلك ما أكثر الأشعار التي نظموها بحق ليلٍ وابنها في خيم كربلاء !!

نموذج آخر سمعته في طهران ، وهو أمر عجيب جداً عندما كنت في أحد المجالس الحسينية التي عقدت في بيت أحد كبار علماء هذه المدينة قبل عدة سنوات ، كان القارئ يتحدث عن ليلٍ وابنها علي الأكبر ، ولما وصل إلى المحل السابق حيث توجهت إلى الخيمة ونثرت شعرها بناء على طلب الحسين فإنها نذرت أيضاً زرع الطريق من كربلاء إلى المدينة بالريحان إذا ما استجاب الله تعالى دعائها وأرجع لها ابنتها سالماً من المعركة !! أي إنها سترزع طريقاً طوله ثلاثمائة فرسخ بالريحان !! قال القارئ ذلك ثم راح ينشد ويقول :

نَذَرُ عَلِيَّ لَيْلَى عَادُوا وَإِنْ رَجَعُوا لَأَزْرَعَنَّ طَرِيقَ النَّفْثِ رِيحَانًا

لقد ذهلتُ لما سمعت ، وزاد تعجبي من هذا البيت من شعر العربي، وصرتُ أسأل نفسي من أين جاء وسط هذه التعزية ؟ ثم ذهبتُ أبحث في بطون الكتب وإذا بي أجدُ بأن - النفث - هي منطقة غير منطقة كربلاء أولاً ، ثم إن بيت الشعر كله لا علاقة له بحادثة عاشوراء لا من قريب ولا من بعيد بل إنه نُظم على لسان مجنون ليلٍ العامري وهو ينتظر ليلاه التي كانت تقيم في هذه الناحية ، وإذا بقراء التعزية صاروا يقرأونه على لسان ليلي أم علي الأكبر ، وحرّفت النفث إلى طف كربلاء وواقعة عاشوراء . تصوروا لو أن مسيحياً أو يهودياً أو مُلحدأ كان حاضراً في مثل هذا المجلس ، ألا تنتظرون منه أن يقول : ما هذه الترهات التي تشوب تاريخ هؤلاء القوم ؟ ! إنه لن يقول بأن قراء التعزية قد اختلقوا مثل هذه القصص من عندياتهم . بل إنه سيقول والعياذُ

(١) اللهب على الطفوف ص ٤٧

بالله : ما أحق نساءهم اللواتي ينذرن زرع الريحان من كربلاء إلى المدينة !! فما هو معنى هذا الكلام ؟!

الحاج نوري يذكر تحريفاً آخر أسوأ مما سبق ويقول : تصوروا في ذلك اليوم القاتل جداً من عاشوراء وتحت حرارة الشمس الحارقة وفي الوقت الذي لم يترك الأعداء فيه مجالاً لإقامة الصلاة ، وعندما أراد الإمام إقامة صلاة الخوف^(١) وقد أقامها بتلك العجلة المعروفة فإنه لم يسلم من سهام الأعداء إلا بعد أن جعل اثنين من أصحابه من جسديهما مجناً يحميه ، وقيل إنها هلكا من كثرة الرماح التي أصابتها حتى انتهت من تأدية ركعتي صلاة الخوف ، ففي مثل هذا الجو الاستثنائي وفي تلك الحالة تصوروا الحسين وهو يطلب من أهله وأنصاره أن يُقيموا له حفل عرس ليزوج القاسم من إحدى بناته ، وهي الرغبة التي لا يُريد أن يحملها معه إلى القبر !!

تصوّروا - بالله عليكم - هذا الكلام الذي كثيراً ما يتردد على لسان بسطاء الناس الذين يتمنون رؤية عرس ابنهم أو بتتهم قبل موتهم ، فينسبون إلى شخص كالحسين بن علي وهو في خضم المعارك ، وفي ذلك اليوم التاريخي الذي لا مجال فيه حتى لإقامة فريضة الصلاة ، يطلب رؤية عرس القاسم من إحدى بناته ، نعم أنهم يقولون على الحسين بأنه يُريد تزويج ابن أخيه من بنته وإقامة حفل زواج لها مهما كان مصغراً في ذلك اليوم بالذات ، لأنه قد يرحل من هذه الدنيا وبالتالي تذهب معه هذه الرغبة إلى عالم الآخرة !!

عرس القاسم ! وهل هناك مَنْ لم يسمع في كل تعزية من التعازي الحسينية بعرس القاسم . هذا العريس الشاب صهر الإمام الحسين في يوم عاشوراء !! إنه اختلاق محض لا وجود لأي أساس له في كل الكتب المعتمدة . لكنه كما يكتب الحاج نوري فإن أول من أدخل هذه القصة في التاريخ الحسيني المزور هو الملا حسين الكاشف في كتابه (روضة الشهداء) .

(١) صلاة الخوف هي صلاة الفريضة نفسها ، وتؤدى نصراً .

وأصل القضية كذب واختلاق مئة بالمئة ، فلو أن سيد الشهداء (ع) ظهر مجدداً بيننا ورأى وسمع - بالطبع إنه الآن يشهد كل ذلك روحياً ولكننا نقصد الحضور الجسدي - ما نقول عنه فإنه سيمع بأصحاب وأعوان لا وجود لهم أبداً .

ورد مثلاً في كتاب (محرق القلوب) الذي اتفق أن كاتبه هو أحد الفقهاء والعلماء الكبار من الذين لا علم لهم بهذه الأمور ، أن أحد أصحاب الإمام الحسين في يوم عاشوراء هو هاشم المرقال - الذي نبع من الأرض طبعاً - !! وأنه كان يحمل بيده رمحاً طوله ثمانية عشر ذراعاً ! .

كما ادعى أحدهم بأن رمح سنان ابن أنس الذي يُنسب إليه قطع رأس الحسين كان يبلغ ستين ذراعاً . ولما سألوه كيف يكون ذلك ! قال بأن الله قد بعث له مثل هذا الرمح من الجنة ! .

إن هاشم بن عتبة بن مرقال هذا الذي يذكره العالم الكبير في كتابه - محرق القلوب - من أصحاب أمير المؤمنين علي (ع) وقد مات قبل عشرين عاماً من معركة عاشوراء .

كما نذكر له أعداء لا وجود لهم . ففي كتاب (أسرار الشهادة) يصبح رقم جيش عمر بن سعد مليوناً وستمائة ألف شخص . ونحن هنا لا بد أن نسأل : من أين جاء كل أولئك الجند ، وهل كانوا كلهم في الكوفة ، هل يعقل هذا ؟!

وكما ورد في نفس هذا الكتاب فإن الإمام الحسين (ع) قد قتل ثلاثمائة ألف شخص بيده فقط !! في هيروشيما كان عدد قتل القنبلة الذرية ستين ألفاً . وقد حسبت من طرفي مقدار الوقت اللازم لقتل هذا العدد ، فلو أن الإمام لم يكن يعمل أي شيء سوى الضرب بالسيف وأن سيفه كان يحصد في كل ثانية أحد الأشخاص فإن قتل هذا العدد الكبير كان سيحتاج إلى ثلاث وثمانين ساعة وعشرين دقيقة .

وبعد أن رأوا أن هذا العدد الكبير من القتل لا يتلاءم مع عدد ساعات اليوم قالوا إن يوم عاشوراء كان سبعين ساعة !!

كذلك قالوا عن أبي الفضل العباس بأنه قتل خمسة وعشرين ألفاً . ولما حسب مقدار الوقت اللازم فيها لو كان يقتل شخصاً في كل ثانية لكان الأمر يتطلب ست ساعات وخمسين دقيقة وبضعاً من الثواني .

إذن لا بد لنا أن نصدق كلام الحاج نوري عندما يقول : إذا ما أراد أحد أن يبكي أبا عبد الله الحسين اليوم ويذكر مصائبه فعليه أن يبكي مصائب الحسين الجديدة . أن يبكي حُسيناً لكثرة الأكاذيب والاختلافات التي نُسبت إلى واقعة عاشوراء وشخصية الإمام .

النموذج الآخر للتحريف هو يوم الأربعين (أربعين الحسين) . عندما يحين موعد الأربعين نسمع جميعاً بالتعزية الخاصة بيوم الأربعين والناس جميعاً يعتقدون بأن الأسرى من آل بيت الرسول قد ذهبوا في ذلك اليوم من الشام إلى كربلاء والتقوا هناك بجابر ، كما التقاه الإمام زين العابدين (ع) . في حين أن المؤلف الوحيد الذي يذكر هذا الموضوع هو السيد ابن طاوس في كتابه (اللهوف على الطفوف) لكنه هو نفسه كذب ذلك أو على الأقل لم يؤيده في مؤلفاته الأخرى . وهذه القصة لا تذكرها الكتب المعتمدة إطلاقاً ، كما أنه ليس هناك أي دليل عقلي على حصولها . ولكن هل من الممكن اقناع الناس بعدم حصول مثل هذه الواقعة التي يسمعونها كل عام على المنابر وفي المجالس والتعازي الحسينية ؟!

إن أول زائر لقبر الإمام الحسين (ع) هو جابر ، ومراسم الأربعين ليست سوى الزيارة المعروفة التي قرأها جابر على قبر الإمام . لا يوجد شيء اسمه تجديد عزاء أهل البيت ولا قدوم الأسرى من آل النبي إلى كربلاء . إن الطريق من الشام إلى المدينة لا يمر عبر كربلاء أبداً فالطريق إلى المدينة يفترق عن الطريق إلى كربلاء من الشام نفسها .

إن الشيء الذي يحز في القلب هو كون واقعة كربلاء من أغنى الوقائع التاريخية المدعومة بالوثائق والأسناد المعتمدة . في السابق كنت أتصور أن سبب كل هذه الأكاذيب التي أُلصقت بهذه الحادثة يكمن في عدم معرفة الوقائع الصحيحة للواقعة . ولكنني بعد المطالعة والتدقيق لاحظت أنه ربما كانت واقعة كربلاء

واحدة من أندر الوقائع التاريخية المدعمة بكل تلك الأسناد التاريخية الباقية منذ ذلك التاريخ البعيد أي منذ أربعة عشر قرناً خلت . فالمؤرخون الإسلاميون يعتبرون دوتوا ونقلوا لنا وقائع عاشوراء بالأدلة والوثائق الدامغة منذ القرن الأول والثاني . والروايات الموجودة في هذا الشأن إما متطابقة أو قريبة جداً من التطابق مع بعضها البعض ويبدو أن أسباباً معينة كانت وراء حفظ كل تلك التفاصيل من عوامل التزوير والاختلاق، وربما كانت الخطب الكثيرة أحد الأسباب التي جعلت وقائع القضية محفوظة في التاريخ من جهة، وأهدافها معروفة للجميع من جهة أخرى . فالخطبة في ذلك الزمان كانت بمثابة البيان الرسمي أو الإعلان حكومي للدولة في الوقت الحاضر . تماماً كما هي حال البيانات الرسمية التي تصدر عن الدول بشأن الحروب ووقائعها والتي تعتبر أفضل وثيقة تاريخية كانت حال الخطب آنذاك . ولذلك نرى أن الخطب التاريخية الأساسية سواء الخطب التي وردت قبل دخول المعركة أو خلالها وكذلك خطب آل بيت النبوة في الكوفة وفي الشام أو غيرها من المدن ، بعد انتهاء الواقعة ، كلها تُبين بوضوح أهداف معركة وخط سيرها الأساسي . يُضاف إلى ذلك ، أن هدف أهل البيت ، من بدء تلك الخطب ، كان يهدف فيما يهدف إلى إلقاء الأضواء على أسباب وقوع حادثة وعرض تفاصيلها للناس وشرح أهدافها لهم، وهذا بحد ذاته يُشكل سبباً من أسباب بقاء تفاصيل الواقعة مدونة في الوثائق التاريخية .

إن الحوار الطويل الذي دار بين طرفي النزاع في واقعة كربلاء مدون في هون الكتب التاريخية الأمر الذي يُبين لنا ماهية الواقعة وجوهرها . كما أن الرُجَز التي أنشد أثناء الواقعة وقبلها - وهو كثير - يمكن أن يُبين لنا ماهية المعركة وأهدافها فلا سيما الرُجَز الذي ورد على لسان أبي عبد الله الحسين . بالإضافة إلى ذلك كله فقد تم تبادل رسائل كثيرة بشأن حادثة كربلاء سواء قبل وقوع الحادثة أو خلالها أو بعدها . فهناك الرسائل المتبادلة بين الإمام وأهل الكوفة والإمام وأهل البصرة ، ورسالة التي كتبها الإمام إلى معاوية نفسه [مما يُبين لنا أن الإمام كان يُعد نفسه لانتفاضة بعد حكم معاوية] كذلك الرسائل المتبادلة بين الأعداء أنفسهم كرسالة يزيد إلى ابن زياد ورسالة ابن زياد إلى يزيد وابن زياد إلى عمر بن سعد وعمر بن

سعد إلى ابن زياد . لقد أصبحت كل تلك الرسائل وثائق دُونها لنا التاريخ .

ولذلك فإن وقائع المعركة التاريخية واضحة المعالم تماماً وملیئة بالفخر والعزة والمجد . ولكننا شوْهنا هذه الصفحة التاريخية المشرقة وارْتكبنا خيانة كبرى بحق الإمام الحسين (ع) بحيث إنه لو ظهر إلى عالم الوجود المادي اليوم لَأْتَمَنا بقلب حقيقة الواقعة رأساً على عقب، ولقال: إني لستُ ذلك الحسين الذي رسمتموه في خيالكم، وإنَّ القاسم بن الحسن الذي صورتموه في مخيلتكم ليس هو القاسم ابن أخي . وعلي الأكبر الذي رسمتموه في مخيلتكم ليس هو ذاك الابن الأصیل من صلب الحسين، والأعوان الذين تتحدثون عنهم ليسوا بأعوان وأصحاب في يوم عاشوراء . نعم فنحن قد صورنا القاسم ذلك العريس الذي لا هم له إلا البحث عن زوجة له ولا هم لعمه أيضاً سوى تزويجه ! فهل حاولتم مرة مقارنة هذا القاسم الذي اختلقتُم شخصيته مع شخصية القاسم التاريخية الحقيقية ؟ دعونا نذكر التواريخ المعتمدة حول واقعة عاشوراء . فهي تنقل جميعاً هذه التفاصيل المعروفة عن ليلة عاشوراء .

فالإمام الحسين (ع) يجمع أصحابه في تلك الليلة في خيمة « عند قُرب الماء »^(١) ويُلقى عليهم خطبته المشهورة التي يطلب فيها إليهم استخدام ظلام الليل ستاراً للفرار وترك المنطقة لأن العدو لا يطلبه إلا هو . ولا أريد هنا الخوض مفصلاً في تلك الخطبة ولكن خلاصتها تفيد بأن الإمام إنما أراد بتلك الخطبة القول لأصحابه بأنكم أحرار وفي حل من بيعتكم لي ، وهو ما ينطبق على أهل بيته وإخوانه وأبنائه وأبناء إخوانه وكل أنصاره . نعم لقد قال لهم ذلك بعد أن كان قد تجدد موقفهم البطولي وأعلن رضاه عنهم وأعلن صراحةً بأنه ليس هناك أصحاب في الدنيا أحسن وأفضل من أصحابه ولا أهل بيت أحسن من أهل بيته .

وهل نسيتم ماذا كان موقفهم جميعاً ! إنهم أجابوه جميعاً : وهل ذلك ممكن

(١) بحار الأنوار مجلد ٤٤ ص ٣٩٢ ، أعلام الوری ص ٢٣٤ ، إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣١ . مقتل الحسين للمقرم ص ٢٥٧ . والظاهر أن هذه الخيمة كانت مُحصنة لجميع قُرب الماء منذ اليوم الأول للتزول بتلك الأرض .

سيدي ومولاي . ماذا سنقول لبنينا ، ومن ثم أين السقاء وأين الإنسانية وأين حبة وأين العاطفة ؟ إلى آخر تلك الخطب التي ألقوها والتي تثير كل واحدة منها هيجان في وجدان المرء ، وتُعطي الحساس المنقطع النظير ، حيث يقول أحدهم : « هو تساوي النفس شيئاً حتى نبخل بها فداءً لشخص من مثلك ؟ ! ألا ليتني كنت موتٌ وأحيا سبعين مرةً لأتمكن من تقديم تلك الروح سبعين مرةً فداءً لك . »
 « أحر يقول ألف مرة ، وهناك من تمنى لو أن جسده سرعان ما يحيا بعد كل حراق ، حتى يتمكن من التضحية به دائماً وأبداً ، فداءً للحسين . ولقد كان من المتكلمين أخوه أبو الفضل العباس ثم تبعه بنو هاشم جميعاً ، الأمر الذي دفع إليهم إلى تغيير الموضوع والبدء بالحدث إليهم عن تنبؤاته وعن احتمالات الوضع الممكنة في اليوم العاشر من المحرم ، وهنا أنبأهم بالشهادة فما كان منهم إلا أن غر الخبر بالبهجة والسرور . »

وهذا الشاب الذي ظلمناه بهذا الشكل وخلقنا منه تلك الشخصية التي لا يسب من الحياة إلا الزواج كان حاضراً أيضاً في مجلس الكبار وهو ابن الثالثة عشرة فهل تتصورون موقفه في تلك اللحظة ؟ لقد سأل سؤالاً يدل على الرغبة الحقيقية الكامنة في أعماقه .

والظاهر أن هذا الشاب كان جالساً في المؤخرة ينتظر وصول دوره حتى يحكم . ولما أنبأهم الإمام بخبر موتهم غداً بدأ يفكر بينه وبين نفسه إن كان هذا من شمله أيضاً ؟ وصار يخاطب نفسه : « ربما كان يقصد سيدي الحسين بأن سيب سيب الكبار فقط بينما أنا الطفل الصغير لا يشملني مثل هذا الحذف . » ولذلك نهض فجأة وسأل مولاه الحسين قائلاً : « وأنا في من يقتل ؟ »
 « عير . الآن الأمانة الكامنة وراء السؤال . فرد عليه الإمام قائلاً : أجبي أولاً سؤال الذي سأطرحه عليك حتى أجيبك عن سؤالك هذا . »

وتصورني بأن الإمام إنما طرح هذا السؤال متعمداً حتى يحصل الحوار عيب ويُترك الناس في المستقبل بأن هذا الشاب ، إنما دخل المعركة ، وعرض نفسه حتى عن سابق وعي وإدراك ، وليس عن جهل وعدم اطلاع ، وحتى لا

يقولوا عنه أيضاً بأنه لم تكن لديه آمال سوى الزواج ، وقيموا له حفل عرسه ،
وينعتوه بالمريس ، ويتجنوا عليه !!

ولذلك فإن الإمام يسأله أولاً : « كيف الموتُ عندك ؟ » فيجيب فوراً ودون تردد : « أحل من العسل » . يعني يا مولاي إن تسألني عن طعم الموت عندي فأني لا أجِدُ طعاماً أحل من طعم الموت وهو عندي أحل من العسل الذي يتمناه الجميع لطعمه الحلو اللذيذ .

إنه لموقف يهز الأبدان ويُحرك المشاعر كلها ! نعم من أجل هذه المواقف ، وبسبب تلك الروح العالية ، دخلت واقعة كربلاء بوابة التاريخ الكبرى ، وظلت خالدة على مر العصور ، وواجبتنا الحفاظ عليها خالدة ، مضيئة ، مشرقة ، لأن تكرار مواقف الحسين والقاسم ليس أمراً سهلاً وقد لا تتكرر مثل هذه المواقف في التاريخ أبداً .

من هنا نستطيع القول بأننا لم نعمل شيئاً يُذكر إذا ما أسسنا مثل هذه الحسينية^(١) باسم هؤلاء بعد مرور أربعة عشر قرناً . لأنه لو كان الأمر لا يتعدى أمنيات العرس والزواج لشخصية تاريخية مثل القاسم لما كان المطلوب صرف كل تلك الجهود والأموال وتأسيس كل تلك الحسينيات وإلقاء المحاضرات لكن القضية غير ذلك تماماً ، فهؤلاء كانوا جوهر الإنسانية ومصدق الآية الكريمة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾^(٢) إنها شخصيات ملائكية بل ما فوق الملائكة .

وبعد أن سجع الإمام جواب ابن أخيه قال : يا ابن أخي أنت في من يُقتل أيضاً ولكن « بعد أن تبلو بلاء عظيم » . ولذلك فإنه أخذ إجازة النزول إلى ميدان القتال في اليوم العاشر من محرم بعد إصرار شديد ، ولما كان صبيّاً نحيف البدن فإنه لم يحصل على الدرع التي تناسبه ، ولا على الخوذة التي تناسب رأسه الصغير ،

(١) المقصود هنا (حبة الإرشاد) .

(٢) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

وإذا لأسلحة أو الخذاء المناسب (الجزمة) ^(١) . وكما يذكر الرواة فإنه لما وضع حمة على رأسه بدا كأنه فلقلة القمر ^(٢) . لقد كان جميلاً ووسياً إلى درجة أن حمة شبهه بقطعة من القمر .

قال الراوي : لقد رأيت شريط أحد خذائيه مفتوحاً ، ولن أنسى أنه عرف الأيسر ، وهذا يعني أن الخذاء لم يكن له .

وكما يقول الراوي فقد كان الإمام مستعداً راكباً على فرسه وبيده اللجام مما يعني أنه كان على أهبة الاستعداد كي يهب لنجدة ابن أخيه ، وإذا به يسمع

يقولون : انطلق الإمام (ع) على فرسه انطلق الصقر ، فقد كان الصوت صوت ابن أخيه وكان ينادي بأعلى صوته يا عماء ، يا عماء . إنه القاسم بن حسن . ولما أدركه الإمام كان هناك ما لا يقل عن مائتي رجل من الأعداء قد أحاطوا بهذا الصبي ، لكنهم سرعان ما تبعثروا وفروا من أمام الحسين .

يقول الراوي : كان أحدهم قد نزل عن فرسه يريد ذبح القاسم فسحق تحت حوافر خيول رفاقه . وهنا لا بد من التأكيد بأن الذي قتل هنا تحت الأقدام إنما هو العدو الذي أراد السوء بالقاسم وليس القاسم نفسه كما يُقرأ في بعض تعازي الحسينية . على كل حال لما وصل الإمام كان الغبار قد منع الرؤية وأشاع حواً من الفوضى حول القاسم ، ولكن بعد أن هدا الجو واتضحت معالم الموقف نحتي الحسين (ع) على بدن القاسم (ع) ثم حضن رأس ابن أخيه وقال يخاطبه :

« بعزّ والله على عمك أن تدعوه فلا يُجيبك ، أو يُجيبك فلا ينفعك

(١) (الجزمة) كلمة تركية وهي ضرب من الأحذية طويلة الساق .

(٢) مناقب ابن شهر آشوب المجلد ٣ ص ١٠٦ كما وردت عبارة مشابهة في كتاب أعلام الوري ص ٢٤٢ . وفي كتاب اللهوف على الطغوف أيضاً ص ٤٨ وفي بحار الأنوار المجلد ٤٥ ص ٣٥ وإرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٩ ومقتل الحسين للمقرم ص ٣٣١ وتاريخ الطبري ص ٢٥٦ .

صوته»^(١) . وهنا أرسل الشاب صبيحة سعدت روحه على أثرها إلى بارئها .
 اللهم اجعل خواتيم أعمالنا خيراً وعرفنا بحقائق الإسلام .
 اللهم أبعد عنا هذه الجهالة وعدم المعرفة بكرمك ولطفك يا الله .
 اللهم وفقنا جميعاً إلى العمل بخلوص النية يا الله .
 اللهم اقض لنا حاجاتنا المشروعة يا الله .
 واغفر لأمواتنا جميعاً .
 لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
 وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .



(١) مناقب ابن شهر آشوب المجلد ٤ ص ١٠٧ ، اللهوف ص ٣٨ . بحار الأنوار مجلد ٤٥ ص ٣٥ ،
 إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٩ . أعلام الوري ص ٢٤٣ . مقتل الحسين للمقرم ص ٣٣٢ .
 وتاريخ الطبري مجلد ٦ ص ٢٥٧ .

المحاضرة الثانية

عوامل التحريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين باري الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد
له ورسوله وحبيبه وصفيه ، سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد (ص) وعلى آله
نظيفين الطاهرين المعصومين . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ
مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (١) .

لقد قلنا فيما مضى إن التحريف قد أصاب واقعة عاشوراء سواء من النوع
لفظي أو النوع المعنوي ، وإن هذا التحريف قد تسبب بفقدان هذه الوثيقة
لتاريخية وهذا المنبع التربوي العظيم لتأثيره المطلوب أو الحد منه كثيراً بل وفي
عض الأحيان إلى إحداث تأثير معاكس للغرض الأساسي ، وإنه ينبغي علينا
حياً أن نطهر وننزه هذه الوثيقة التاريخية المقدسة من التحريفات التي لوئتها .

وفي هذه الليلة سيتناول بحثنا دوافع التحريف ومن ثم ستتعرض إلى
تحريف المعنوي للواقعة في المحاضرات القادمة .

(١) سورة المائدة : الآية ١٣ .

عوامل التحريف

إن دوافع وأسباب التحريف نوعان وهما :

أولاً : عوامل عامة : أي تلك البواعث التي تكون سبباً لحصول التحريف في التاريخ البشري بشكل عام . وهي لا تخص واقعة عاشوراء بالذات . وعادةً ما تكون أهداف العدو ، سبباً في حصول التحريف للحوادث المختلفة عبر العصور . فحتى يتمكن العدو من تحقيق أهدافه ، والوصول إلى مراميهِ ، تراه عادةً ما يتوسل إيجاد التغيير والتبديل في سير حوادث التاريخ وإذا لم يتمكن ففي تفسير وشرح حركة التاريخ بما يتلاءم ووجهة نظره المفترضة . وهناك أمثلة كثيرة على ذلك ليس مجال ذكرها هنا لكنني أؤكد بأنَّ حادثة كربلاء كان لها نصيب أيضاً من هذا العامل . أي إنَّ الأعداء صمموا منذ البداية على تحريف وتزييف النهضة والثورة الحسينية .

وكما هو متداول ومتعارف عليه في العالم بأنَّ الأعداء يسرعون باتهام الثورات المقدسة بالإفساد والإخلال والدعوة إلى الفرقة وإيجاد الاختلاف . فإنَّ الحكومة الأموية بذلت كل جهدها لإضفاء هذا الطابع على النهضة الحسينية .

فمنذ اليوم الأول كانت الدعاية المضادة قد وضعت هذا الهدف نصب عينيه . وعندما وصل مسلم بن عقيل إلى الكوفة كتب يزيد إلى ابن زياد طالباً منه التحرك نحو الكوفة وقائلاً له : بأنَّ مسلم بن عقيل قد قدم إلى الكوفة بهدف الإضلال والإفساد وإيجاد الاختلاف بين صفوف المسلمين !! ولذلك فإنه ينبغي عليك قمع هذا التحرك .

وبعد اعتقال مسلم وجلبه إلى دار الإمارة ، فإنَّ أول كلام قاله ابن زياد لمسلم هو : يا بن عقيل ! ما الذي أتى بك إلى هذه المدينة ؟ لقد كانت المدينة قبل قدومك آمنة مطمئنة وقد جئت إليها لخلق الفتنة وبث الفرقة والدعوة إلى التمرد والعصيان ! لكن مسلم رد عليه بالطبع رداً شجاعاً إذ قال له : قبل كل شيء أقول لك بأنَّ مجيئي إلى هذه المدينة لم يكن برغبة مني بل بطلب من أهلها

ورسائلهم التي دعتنا إلى المجيء موجودة . ثم إن الناس قد كتبت في رسائلها أيضاً بأن أباك زياداً عندما كان والياً على الكوفة قتل صلحاءها وسلط أشرارها علينا ولم يترك ظلماً أو إجحافاً إلا ارتكبه ومارسه ضد الناس . ولذلك فإنهم دعونا لإقامة العدل وقد جئنا لتحقيق هذا الهدف .

إذن الحكومة الأموية مارست أنواع التحريف المعنوي في هذه الواقعة . لكن التاريخ الإسلامي رغم ذلك كله لم يتأثر بتلك التحريفات . إذ إنك لا تجد مؤرخاً أو مفكراً واحداً يرى واليهاذ بالله بأن نهضة الحسين بن علي (ع) لم تكن نهضة مُحَقَّة أو أنه قام بهدف بث الفرقة وإيجاد الفتن وزرع الاختلاف . أبداً فالعدو لم يتمكن من تحريف واقعة كربلاء . ففي واقعة كربلاء ينبغي القول وللأسف الشديد بأن كل أنواع التحريف التي حصلت إنما حصلت من جهة الأصدقاء والمُحِبِّين .

العامل الثاني : الباعث أو العامل الثاني للتحريف يكمن في الواقع في حُب البشر وميلهم لخلق الأساطير وهذا أمر يتكرر في كل تواريخ العالم . فالبشر على العموم يمتلكون حس عبادة الأبطال وتقديسهم الأمر الذي يدفعهم إلى خلق الأسطورة من أبطالهم القوميين أو الدينيين^(١) . والدليل الواضح على ذلك ما يتداول بين الناس من أساطير متعددة حول ابن سينا والشيخ البهائي ! .

لا شك في أن ابن سينا كان نابغة من نوابغ عصره وأنه كان يمتلك من القوى الروحية والجسمية الخارقة للعادة . إلا أن ذلك بحد ذاته كان الدافع لدى الناس لخلق الأساطير حوله . فمثلاً يقال إن ابن سينا رأى مرة رجلاً يمشي على بعد فرسخ منه فقال انظروا إلى ذلك الرجل فإنه يأكل خبزاً مغمساً بالسمنة . ولما سأله وكيف عرفت أنه يأكل خبزاً مغمساً بالسمنة ؟! قال : إنني رأيت البعض

(١) في ليالي عيد القدير كان للدكتور علي شريعتي عدة محاضرات بهذا الشأن حيث تناول بالتفصيل موضوعاً الحس البشري العام نحو خلق الأسطورة والأبطال وعبادتهم وتقديسهم وتصويرهم بشكل خارق للعادة .

بحوم حول خبزه مما يعني بأن الخبز الذي يجعله مغمّس بالدهن .

وهنا تظهر بوضوح ملامح الأسطورة على تلك الحكاية لأن الذي يرى البعوض من على بُعد فرسخ يستطيع رؤية السمنة التي تغطي الخبز دون عناء يُذكر .

أو أن يقال بأن ابن سينا لم يستطع مذاكرة دروسه في الليل في الفترة التي كان يتابع فيها دراسته في مدينة إصفهان وذلك بسبب أصوات طرقات النحاسين في مدينة كاشان [مدينة كاشان تبعد مئات الكيلومترات عن إصفهان] وعندما ذهبوا ليُجربوا الأمر وطلبوا من النحاسين في كاشان عدم ممارسة أعمالهم في إحدى الليالي قال ابن سينا إنه بالفعل قد تمكن من مذاكرة دروسه ومن ثم استسلم لنوم هادئ في تلك الليلة . إنها الأسطورة بكل وضوح .

وقد حصل نفس الشيء بالنسبة للشيخ البهائي .

فاختلاف الأساطير أمر لا ينحصر في واقعة عاشوراء . فالتناس تستطيع قول أي شيء تريده عن ابن سينا دون أن تلحق الضرر بأي أحد أو أي مكان . لكن الأفراد الذين يمتلكون شخصية طليعية ، والذين تعتبر أقوالهم وأعمالهم ونهضتهم وثورتهم سنداً وحجةً ووثيقةً تاريخية لا يجوز تحريف أحاديثهم ولا شخصيتهم ولا تاريخهم .

فما أكثر الأساطير التي اختلقناها نحن الشيعة عن أمير المؤمنين علي(ع) ! أن يكون علي عليه السلام رجلاً خارقاً للعادة أمر لا يشك به أحد . كما أنه لا جدال حول شجاعة علي (ع) فالصديق والعدو يعترفان بشجاعته الخارقة للعادة . ولم يشترك علي (ع) في أي معركة ولا نازل بطلاً من أبطال المعارك إلا صرعه وهزمه شر هزيمة . ولكن هل يكفي ويقنع أصحاب الأساطير وصناعتها بهذا المقدار ؟! أبداً .

فعل سبيل المثال قالوا بأن علياً (ع) عندما اشترك في معركة خيبر ونازل مرحب الخيبري وهو من الأبطال المعروفين جداً بشجاعتهم الخارقة وكما يذكر

المؤرخون بأنه ضربه بالسيف ضربةً قسمتة إلى نصفين [وأنا بدوري لا أدري هل كان النصفان متساويين] فقد أوحى الله سبحانه وتعالى إلى الملك جبرئيل بالنزول إلى الأرض ووضع جناحيه تحت سيف علي حتى يخفف من وقع الضربة ويمنع بالتالي من أن تنشق الكرة الأرضية إلى نصفين وتموت الأبقار والأسماك والحيوانات ! وأنه حصل بالفعل أن نزل جبرئيل إلى الأرض ووضع جناحيه تحت السيف ، الأمر الذي منع انشقاق الأرض لكن ضربة علي قسمت مرحب إلى نصفين متساويين تماماً وأنه لو وضع كل نصف في كفة ميزان لما اختلفا بشعرة واحدة بالوزن !!

والأدهى من ذلك بأن جبرئيل قد جرح بسبب تلك الضربة مما أدى إلى مرضه أربعين يوماً الأمر الذي أخر صعوده إلى السماء كل تلك المدة . ولما صعد إلى السماء وسأله ربه أين أمضيت تلك الأيام الأربعين ؟ قال ربي إنك أمرتني بالنزول تحت سيف علي وقد فعلت ولما كنت قد جرحت من جراء تلك الضربة فبني كنت أدوي جرحي كل تلك الفترة !!

والغرض في سرد الأساطير وتطويرها لم يقف عند حد . فهذا يقول بأن سيف عي قد نزل على مفرق مرحب وشقه إلى نصفين ثم استوى على النصف من مقعد حصانه بالكهال والتهام ! وآخر يقول بأنه ما أن سلَّ علي سيفه حتى كان مرحب قد صار نصفين دون أن يدرك مرحب نفسه ما حلَّ به وأنه صار يسأل علياً وهو في تلك الحالة : وهل هذه هي كل قوتك يا علي ؟ ! وهل هذه هي كل بطولتك يا عبي ؟ ! فقال له علي حرك نفسك يا مرحب فما كان من نصفيه المشقوقين إلا أن وقعا على الأرض !!!

يقول الحاج نوري هذا الرجل العظيم في كتابه (اللؤلؤ والمرجان) بعد أن يستند هذه الاختلاقات والأساطير الخيالية ، يقول بأنهم كتبوا عن اشتراك أبي عضل العباس في معركة صفين [حيث إن أصل اشتراكه في هذه المعركة ليس معمولاً وإن صحَّ اشتراكه فيها فإن ذلك يكون قد حصل وهو صبي في سن خمسة عشرة] . وأنه قد رمى بالرجل الأول إلى الهواء بضربة سيفه ، ثم ألحقه

بالثاني والثالث وهكذا حتى الثمانين بسرعة فائقة للغاية بحيث إنه لما رمى الرجل الثمانين كان الأول لم يزل في الهواء ! وهكذا شرع في شقهم إلى نصفين ابتداءً من الأول إلى الثمانين في المرحلة اللاحقة من الضربات السريعة المتلاحقة !!

حقاً إن بعض التحريفات التي حصلت في واقعة كربلاء سببها وجود حس الأسطورة لدينا . يقول الأوروبيون إن تاريخ الشرق مليء بالمبالغات والأساطير وهذا صحيح . فعندما يتحدث ملا آقا الدربندي مثلاً عن كربلاء كما ورد في كتابه « أسرار الشهادة » بأن عدد الخيالة في جيش عمر بن سعد كان يبلغ (ستمائة ألف) خيال ، وأن المشاة كانوا يناهزون (المليون) شخصاً فهذا يعني أن جيش عمر بن سعد قد بلغ (المليون وستمائة ألف) شخص من أهل الكوفة ! فما أكبر الكوفة آنذاك حتى يكون جيش ابن سعد بهذا الحجم ؟! فالكوفة كانت مدينة حديثة التأسيس آنذاك ولم يكن قد مضى على تأسيسها سوى خمسة وثلاثين عاماً عندما أمر بذلك عمر بن الخطاب . وقد كان الهدف من إيجادها عسكرياً حتى يكون هناك مركز نظامي للمسلمين قرب الحدود الإيرانية . ولم يكن معلوماً في ذلك الوقت هل بلغ تعداد سكان أهلها المائة ألف أم لا ؟ فهل يُعقل إذن أن يجتمع من أهلها ذلك العدد الخيالي ومن ثم يقتل منهم الحسين (ع) لوحده (ثلاثمائة ألف) إنها قصة لا تناسب العقل بتاتاً وبالتالي فإنها تُفقد الواقعة قيمتها التاريخية .

يُنقل في هذا المجال أن أحداً كان يبالغ كثيراً بشأن كبر حجم مدينة هرات حيث كان يقول : - إن هرات كانت كبيرة جداً في يوم من الأيام . ولما سأله : وكم كانت كبيرة مثلاً ؟ قال : في وقت واحد كان عندنا في المدينة واحد وعشرون ألف طبّاح أعور اسمهم أحمد . فصوروا كم هو عدد سكان المدينة ومن ثم كم هو عدد الطبّاخين الذين اسمهم أحمد وبالتالي كم هو عدد العوران في المدينة حتى يمكننا تعداد واحد وعشرين ألف طبّاح أعور اسمه أحمد في مدينة هرات !!

إن حس صناعة الأساطير يستطيع فعل الكثير . ولا يجوز لنا أن نُسلم أمر مثل هذه القضية التاريخية الهامة لأيدي صنّاع الأساطير :

« فإن فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين »^(١) .

بالنسبة إلى قضية مدينة هرات وأمثالها فليقل المبالغون ما يُريدون قوله . ولكن بالنسبة لواقعة تاريخية مثل واقعة عاشوراء ، تلك الحادثة التي نحن مُطالبون بإحيائها سنوياً باعتبارها مدرسة تربوية وعقائدية حية . فهل يجوز السماح بتسريب كل ذلك الحس الأسطوري والقصص الخيالية إلى مثل هذه الواقعة البالغة الأهمية ؟!

العامل الثالث : وهذا هو العامل الخاص ، فالدافعان السابقان اللذان نظرنا إليهما آنفاً أي العداوات التاريخية وتحريضات العدو من جهة ومن جهة أخرى حس صناعة الأسطورة لدى البشر عموماً فإنها يتكرران في كل تواريخ نعالَم . لكن الأمر بالنسبة لواقعة عاشوراء لا يتوقف عند هذين الدافعين فهناك دافع خاص كان هو الآخر سبباً في تسرب التحريف والتزوير إلى هذه الواقعة التاريخية . إن تعليقات أئمة الدين منذ زمن النبي الأكرم (ص) والأئمة الأطهار عليهم السلام جميعاً تؤكد علينا بضرورة إحياء اسم الحسين بن علي (ع) ، وتجدد عقد الولاء معه سنوياً وذكر مصيبته كل عام . لماذا ؟ وما معنى هذه التعليقات التي وضعها لنا الإسلام ولماذا كل هذا الاهتمام من قبل أئمة الدين بهذا الموضوع ولماذا كل هذا الترغيب والتشجيع لزيارة الحسين بن علي (ع) ؟

يجب علينا التدقيق جيداً بهذه الأسئلة . قد يقول البعض بأن الهدف من وراء ذلك كله مواصلة سيدتنا فاطمة الزهراء (ع) !!! أليس أمراً مشيراً للسخرية ؟ فهل تحتاج الزهراء إلى المواصلة بعد مرور ١٤٠٠ عاماً على المأساة في الوقت الذي نعلم فيه جميعاً بأن اجتماع الحسين الشهيد والزهراء البتول أمر ينص عليه قول حسين (ع) نفسه وهو من ضرورات الدين أيضاً . فما معنى مثل هذا الكلام بذاً ؟! وهل أن فاطمة الزهراء عندكم طفلة صغيرة حتى تظل تلطم وتبكي بعد ١٤٠٠ عام حتى نأتي نحن لنُعزِّبها ونأخذ بخاطرها ؟! هذا هو الكلام الذي يُجرب

(١) أصول الكافي المجلد الأول ص ٣٢ وكتاب فضل العلم ، بصائر الدرجات ص ١٠ .

الدين . فالحسين عليه السلام أسس مدرسة عملية في الإسلام . والحسين بن علي (ع) نموذج عملي للثورات الإسلامية . والتعليمات الدينية الواردة إلينا بهذا الشأن تهدف إلى المحافظة على هذه المدرسة الحية .

والأئمة أرادوا بذلك أن يظل علينا الحسين (ع) كل عام ببدءاته الحلوة والبليلة والحماسية ويُنادينا بأعلى صوته :

« أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُتَنَاهَى عَنْهُ لِيَرْغَبَ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللَّهِ مُحَقَّقًا »^(١) ،

وَيُنَادِي بِنَا : « الْمَوْتُ أَوَّلَى مِنْ رُكُوبِ الْعَارِ »^(٢) .

وه لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً »^(٣) .

لتبقى هذه النداءات حيةً إلى الأبد . كما أرادوا لنا أن نُحيي أقوال الحسين الأخرى مثل :

« خُطَّ الْمَوْتُ عَلَى وَلَدِ آدَمَ مَخْطُ الْقِلَادَةِ عَلَى جِيدِ الْفَتَاةِ »^(٤) . وه هيهات مِنَّا الذلة »^(٥) .

نعم إنهم أرادوا لمثل هذه المواقف التاريخية أن تبقى حيةً إلى الأبد حيث يقف ذلك الرجل بكل شجاعة الرجال الذين لا يعرف لهم التاريخ نداءً ولا نظيراً

(١) بحار الأنوار المجلد ٤٤ ص ٣٨١ . تحف العقول ص ٣٣ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٥ .

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١١٠ . اللهوف ص ٥٠ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٠ . كشف الغمة ج ٢ ص ٣٢ .

(٣) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٨١ . اللهوف ص ٣٣ . تحف العقول ص ١٧٦ .

(٤) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٦٦ . اللهوف ص ٢٥ .

(٥) اللهوف ص ٤١ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٧٦ . تاريخ الشام لابن عساكر ج ٢ ص ٣٣٣ . مقتل الحسين للمقرم ص ٢٨٧ . ملحقات إحقاق الحق ج ١١ ص ٦٢٤ - ٦٢٥ .

نفس المهموم ص ١٤٩ . تحف العقول ص ١٧٤ .

أمام ثلاثين ألفاً من الرجال في وقت يُعاني منه أهله وعياله أشد المعاناة ليصرخ
بوجه العدو قائلاً :

« أَلَا وَإِنَّ الدَّعِي ابْنَ الدَّعِي قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ بَيْنَ السَّلَةِ وَالذَّلَةِ وَهِيَهَاتَ
مَنَا الذَّلَّةُ يَا بَارِئُ اللَّهِ ذَلِكَ لَنَا وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَحَجُورُ طَابَتْ وَطَهَّرَتْ » (١) .

لقد أراد منا أن نعلم أن تظل مدرسة الحسين حية ، أن تبقى التربة الحسينية
حية وأن تنفخ روح الحسين في هذه الأمة ومن ثم تشع على الأطراف . هذه هي
فلسفة الحسين المشرقة ومعالمها واضحة لا تحتاج إلى التبيان .

فلا تَدْعُوا إِذْ لَوْاقِعَةُ عَاشُورَاءَ أَنْ يُصَيِّبَهَا الصَّدَأُ أَوْ تَدْخُلَ عَالَمُ النِّسْيَانِ .
- حياتكم وإنسانيتم وشرفكم مرتبطة كلها بهذه الواقعة . إنكم تستطيعون
حفاظاً على الإسلام بهذه الطريقة وتحيون تعاليمه بالمدرسة الحسينية .

لقد أراد لنا أن نعلم الأطناء أن نحيي مجالس العزاء الحسينية وهذا أمر
صحيح . إن فلسفة إقامة مجالس العزاء الحسينية فلسفة صحيحة ورفيعة المعاني
سعية . وكلما بذلنا من الجهود في هذا السبيل شرط أن نُحَدِّد أهدافنا من وراء
هذه فإِنَّنا نكون قد مضينا على الطريق الصحيح . ولكن للأسف الشديد فإن
بعض لم يدرك هذا المعنى وصاروا يتصورون بأن الاجتماع في تلك المجالس
يسكن على الحسين (ع) بحد ذاته دون التعرف على أهداف المدرسة الحسينية
ويعرف على فلسفة النهضة الحسينية ومعرفة شخصية الحسين التاريخية ، يكفي
يكفر عن الذنوب !

يذكر الحاج نوري في كتابه « اللؤلؤ والمرجان » بأن البعض يقول بأن إقامة
محاسن الحسينية والبكاء على الحسين فيه من الشواهد الكثير بحيث يمكن للمرء
- يستخدم هذه الوسيلة للتكفير عن كل ذنوبه ! وهذا الأمر يذكرنا بالمدرسة
كربلبية المعروفة اليوم تحت شعار « الغاية تبرر الوسيلة » فما دامت الغاية جيدة
عسى مهماً نوع الوسيلة المستخدمة ! وهكذا يُحَرَّف هذا البعض أهداف المدرسة

صدر السابق .

الحسينية عندما يقولون : ما دام الهدف مقدساً ومترهاً وهو البكاء على الحسين وهو لا شك أمر جيد وينبغي أن يحصل . ولكن ما هي وسيلة البكاء ؟ أي وسيلة كانت ! ما دام الهدف مقدساً فليس مهماً إذن نوع الوسيلة المتبعة . سواء أكانت التعزية مُحْتَلَقَةً أو كانت مهينة لمدرسة الحسين وشخصيته التاريخية ، أكانت صحيحة أو لم تكن ؟ المهم أن يحصل عمل البكاء وتسيل الدموع وهذا أمر يكفي بحذ ذاته كتبرير أو كوسيلة !! أن نستخدم الزمارة في العزاء ، ونضرب بالطبول ، أو نرتكب المعاصي أو نلبس الرجال ملابس النساء ، أو أن نمثل عرس القاسم في عاشوراء ! أن نُحَرِّفَ ما شئنا ونُزَوِّرَ ما استطعنا ، كل هذا ليس مهماً فمن أجل ثواب الحسين يجوز فعل ما لا يجوز فعله في المقامات الأخرى ! فالكذب والتزوير والتحريف والتمثيل واللباس الرجل لباس المرأة كلها أمور مسموحة ومُبرَّرة ، وكل معصية ترتكب هنا قابلة للغفران فالهدف الأعلى هدف مقدس ! فكان نتيجة كل هذا أن دخل التزوير والتحريف على هذه القضية المقدسة بشكل غير معقول !

قبل حوالي خمسة عشر عاماً وأثناء زيارة لي لمدينة إصفهان التقيت هناك بالعالم الكبير المرحوم الحاج الشيخ محمد حسن نجف آبادي أعلى الله مقامه ونقلت له آنذاك قصة التعزية الحسينية التي كنت قد سمعتها لتوي في المدينة وكانت قد أثارت استغرابي بشكل مثير للغاية لا سيما وأن قارئ التعزية كان من المذنبين على شرب الترياق^(١) وشرحت لعلمننا المذكور قدرة ذلك القارئ على إبكاء الناس بكاءً شديداً وذلك من خلال نقله لقصة امرأة عجوز عاشت في زمن المتوكل وكانت تريد زيارة قبر الإمام الحسين (ع) الأمر الذي كان محظوراً على الناس آنذاك بل إن فاعلها كان يتعرض لقطع اليدين إلى ما هنالك من التفاصيل حتى وصل إلى الفقرة التي ذكر فيها بأن جند المتوكل ألقوا بتلك العجوز في البحر، الأمر الذي دفع بالعجوز في تلك الحالة إلى النداء بأعلى صوته : يا أبا الفضل العباس ! وفي تلك اللحظة التي كانت قد أوشكت فيها على الغرق ظهر لها فارس من وسط أمواج البحر وقال لها هيا تمسكي بركابي واقفزي ورائي فقالت له العجوز ولماذا لا نمدَّ إليّ

(١) نوع من الحشيشة المخففة .

يدك ؟ فقال لها ومن أين لي اليدان حتى أمدهما؟ فقد كانت يدها مقطوعتين ، وهنا ضجَّ الجمهور بالهويل والبكاء .

عندما أتممت شرحي للعلامة الشيخ النجف آبادي قال لي اجلس إذاً أشرح لك أساس هذه الحكاية ، قال : في أحد الأيام وبينما كنت حاضراً في أحد المجالس الحسينية في بازار إصفهان قرب مدرسة الصدر [القصة جرت قبل زمانه ، وهو إنما ينقلها من مصادر موثوقة عنده] وقد كان مجلساً حسينياً من الوزن الثقيل لا يحضره إلا كبار علماء إصفهان ومن بينهم العلامة الكبير المرحوم الحاج ملا إسماعيل الخاجوي الذي كان حاضراً أيضاً في ذلك المجلس وإذا بواعظ حسيني معروف ينقل لنا هذه القصة حيث قال : كنت أنتظر دوري ضمن قائمة الوعاظ المتعددين الذين ينبغي عليهم قراءة التعزية الحسينية على التوالي حتى يحين موعد الظهر ، وأستمع إلى الوعاظ الذين سبقوني وأتابع باهتمام قدرتهم على إبقاء الناس وشدهم إلى المنبر إلى أن حان دوري ، وكنت أفكر بطريقة أنافس بها الوعاظ فلم يخطر على بالي شيء حتى جاءتني هذه الفكرة فاخترتُ هذه القصة من عندياتي وبذلك كسرت الرقم القياسي في البكاء . ويضيف هذا الواعظ لكنني عندما ذهبتُ عصر ذلك اليوم لأحضر مجلساً حسينياً آخر وبينما أنا أنتظر دوري رأيتُ أن واعظ الذي سبقني ينقل هذه القصة وقد أغرق الناس بالبكاء أيضاً ! وهكذا إلى أن صارت تكتب شيئاً فشيئاً في كتب التعازي الحسينية بل وتُطبع أيضاً !

نعم أيها الحُضور الكرام ، فعندما نقول بأن قضية الحسين قضية خاصة نخفف عن بقية القضايا وأنه يجوز لنا استخدام الوسيلة التي تُعجبنا حتى نبكي - مسطتها الناس ! فإن هذا الوهم وهذا الخيال الكاذب والخطأ الفادح المعيش في أذهاننا يصبح بحد ذاته عاملاً ودافعاً كبيراً لحصول الاختلاق والتزوير !

المرحوم الحاج نوري [صاحب كتاب اللؤلؤ والمرجان] هذا الرجل عصبه . أستاذ المرحوم الحاج الشيخ عباس القمي ، والذي يرجّحه العلماء على شيخ عباس القمي ، بل إن هذا الأخير ومعه آخرون أيضاً يشهدون له بأنه كان حلاً متبحراً بشكل فريد في العلوم ورجلاً ذا تقوى . يقول هذا الرجل في كتابه

المذكور بأنه إذا كانت الغاية تبرر الوسيلة فعلاً فأنا باستطاعتي أن أقول ما يلي : لما كان أحد أهداف المؤمن إدخال السرور إلى قلب أخيه المؤمن وبما أن أخي المؤمن هذا يُسر كثيراً لسماع الغيبة فيكون إذاً من واجبي اغتيال الناس أمامه حتى يُسر كثيراً وبذلك أكون قد حققت هدفاً من الأهداف الإسلامية !! وإذا ما اتهمت بأنني قد ارتكبتُ المعصية أنفي ذلك وأقول بأنّ هدفي كان مقدساً حيث إني اغتبتُ الناس بهدف إدخال السرور على قلب أحد المؤمنين !!

ثم يذكر الحاج نوري مثلاً آخر في كتابه عندما يقول بأن يأتي أحدنا مثلاً ويُقبل امرأة غريبة ولما كان هذا العمل حراماً ونحن بدورنا سنستنكر عمله هذا . فكيف به إذا أجابنا أيضاً بأنه إنما أراد من وراء عمله هذا إدخال السرور إلى قلب إحدى المؤمنات !! وهكذا دواليك ، حيث يمكن بذلك تبرير أعمال الزنى واللواط وشرب الخمر وغيرها . فأني غوغاء هذه ؟!! وما هذا الحديث المخرب للشريعة ؟!! والله إنه عملٌ مخالف لأقوال الحسين (ع) وأعماله . فكيف يجوز لنا عمل كل شيء من أجل إكفاء الناس في المجالس الحسينية ؟! فالحسين استشهد من أجل رفع كلمة الإسلام ولواء الإسلام :

« أشهدُ أنك قد أقمّت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وجاهدت في الله حق جهاده »^(١) .

لقد قتل الإمام الحسين حتى تبقى سُنن الإسلام حية وتعاليم الإسلام وقوانينه خالدة ، لا أن يكون مقتله حجةً وتبريراً لمخالفة تلك السنن والاستهتار بها . إننا بهذه الأعمال خلقنا من الحسين صورة المُخرب والعياذ بالله ، فالحسين (ع) الذي نرسمه نحن في تخيلتنا هو ذلك الحسين المخرب والمهدم للإسلام .

هناك قصة أخرى يذكرها الحاج نوري في كتابه أيضاً حيث يقول فيها إن أحد طلاب الحوزة الدينية في النجف وهو من أهل (يزد) ذكر لي مرة ما حدث له

(١) مفاتيح الجنان - زيارة الإمام الحسين (ع) في ليالي عيد الفطر وعيد الأضحى .

وهو في الطريق إلى خراسان عبر الصحراء في إحدى رحلاته مشياً على الأقدام إذ قال : كُنْتُ قد توقفت في إحدى الليالي في قرية من قرى (نيشابور) ولَمَّا كُنْتُ لا أعرفُ محلاً للاستراحة قررتُ الذهاب إلى مسجد القرية وفي تلك الليلة كان من المقرر أن يصعد الإمام إلى المنبر لوعظ الناس عن المناسبة الحسينية ولَمَّا بدأ قارئ التعزية بالقراءة، إذا بي أرى قرّاش المسجد يأتي بكمية من الحجر والحصى ويُعطِيها إلى الإمام القارئ الذي ما أن شرع بقراءة التعزية حتى أمر بإطفاء الأضواء وبدأ الحجر والحصى يتساقط على رؤوس الناس ثم تعالت أصواتهم وارتفع صراخهم ونحيبهم وبعد ذلك بقليل عادت الإنارة إلى المسجد وانتهت التعزية وعندها رأيت الناس يخرجون من المسجد وهم يبكون وأثار الجراح على رؤوسهم فعجبتُ كثيراً مما رأيت وذهبتُ إلى إمام الجماعة وسألته عما جرى والهدف من وراء ذلك ؟! فأجابني بأن هؤلاء الناس الذين شاهدتهم الآن قد عملت معهم المستحيل حتى يبكون على الحسين ففشلت مما دفعني في النهاية إلى اختيار هذا الأسلوب باعتباره الأسلوب الناجع الوحيد لإبكانهم حتى يكسبوا الأجر والثواب الكثير !! وهذا يعني أن الغاية تبرر الوسيلة .

بعبارة أخرى من أجل الحصول على الثواب والبكاء على الحسين نستطيع عمل أي شيء لتحقيق هذا الهدف حتى ولو كان ذلك لا يتحقق إلا بضرب الناس على رؤوسهم بالحجارة ! هذا هو العامل والدافع الخاص البذي قلنا إنه السبب في حصول التحريف والاختلاق والتزوير في هذه القضية المقدسة .

عندما يُلقى المرء نظرة عامة على التاريخ سيري بوضوح حجم التحريف و خيانة التي لحقت بهذه الواقعة . وأقسم بالله لقد كان كلام الحاج نوري صحيحاً ومنطقياً عندما قال بأن من يريد أن يبكي على الحسين اليوم ينبغي عليه - يبكي أولاً على هذه التحريفات وهذا المسخ وهذه الأكاذيب التي الصقت بهذه الواقعة .

هناك كتاب مشهور باللغة الفارسية حول (الملحمة الحسينية) اسمه «وصة الشهداء» لمؤلفة الملا حسين الكاشفي الذي يتناوله الحاج نوري في كتابه

أيضاً ويقول : إنّ قصة - زعفر الجنيّ وعرس القاسم - مثلاً ظهرت لأول مرة في الكتب على يد الملا حسين الكاشفي هذا . وأنا قبل أن أرى الكتاب تصورت أنه لا يحتوي إلّا على مثال أو مثالين من هذه التحريفات ولكنني بعد أن أطلعتُ عليه اكتشفتُ بأنه كتاب مخصص للأكاذيب وللتحريف والتزوير حول واقعة كربلاء التاريخية . وهذا الكتاب قد كتب بالفارسية قبل (٥٠٠ عام) تقريباً . ومؤلفه الملا حسين هذا رجل متعلم وله تأليفات أخرى وصاحب مؤلف (الأنوار السهلية) . إنك في الواقع عندما تبحث عن تاريخ هذا الرجل تعجب منه ولا تعرف بالضبط هل كان شيعياً أم سنياً مثلاً . فقد كان يتلون كالحرباء فهو شيعي مائة بالمائة عندما كان يذهب إلى الشيعة ويتحدث إليهم ويعظهم ، وحنفي سني عندما كان ينتقل بين السنة . إنه من أهل (سبزوار) المعروفة بأنها أحد مراكز التشيع في بلاد فارس آنذاك وأهلها كانوا متعصبين أيضاً لمذهبهم . فهو شيعي متعصب إذاً، في (سبزوار) وسني حنفي عندما كان يذهب أحياناً إلى مدينة هرات (الأفغانية) لزيارة صهره - عبد الرحمن جامي - إنه من قراء التعزية ومن أهل المنابر المعروفين أيضاً في مدينة (سبزوار) . توفي حوالي العام (٩١٠ هـ) أي أواخر القرن التاسع أو أوائل القرن العاشر الهجري . وأول كتاب تم تأليفه بالفارسية باسم مراثي الحسين كان هذا الكتاب « روضة الشهداء » والذي ألفه الملا حسين الكاشفي هذا .

وقبل أن يظهر هذا الكتاب كان الناس يعودون إلى المصادر الأصلية للشيعة في ما يعود لهذه الواقعة . فالشيخ المفيد مثلاً كتب بخصوص واقعة الطف مؤلفاً مهماً وهو « الإرشاد » ونحن لو عدنا ، في مطالعاتنا إلى هذا الأثر الهام ، للشيخ المفيد رضوان الله عليه لما بقيت لدينا حاجة للاستعانة بمؤلفات أخرى بهذا الخصوص . إنه كتاب مُتَقَن ونَفِيس . ثم إن هناك الكثير من أهل السنة أيضاً ممن كتبوا عن واقعة السطف منهم الطبري وابن الأثير واليعقوبي وابن عساكر والخوارزمي .

إن المرء ليعجب من هذا الرجل وعدم إنصافه . فعند مراجعتك لكتابه

المذكور سترى حتى الاسماء الواردة فيه مختلفة ! فهو يذكر أسماء أصحاب وأنصار للمحسين لا وجود لهم في واقعة كربلاء ، وكذلك الأمر في أسماء معسكر العدو . إنه يذكر قصصاً وحكايات عن الواقعة أشبه ما تكون بالأساطير .

ولما كان هذا الكتاب أول كتاب يتعرض لواقعة الحسين التاريخية باللغة الفارسية لذلك فإن قراء التعزية والذين هم غالباً ما يكونون من الأميين ممن يجهلون اللغة العربية فإنهم كانوا يتناولون هذا الكتاب ويقرأون منه مباشرة في المجالس الحسينية . ومنذ ذلك الوقت صارت المجالس الحسينية تعرف عندنا باسم « روضة » [أي قراءة الروضة - بدلاً عن قراءة التعزية] وهذا الاصطلاح لم يكن وارداً في أي يوم من أيام الشيعة قبل ظهور كتاب هذا الرجل . لا في زمن الإمام الحسين ولا الإمام جعفر الصادق ولا الإمام العسكري عليهم السلام . وكذلك هو الأمر في زمن كل من السيد المرتضى أو الخواجة نصير الطوسي . فهذا الاصطلاح لم يظهر بين الشيعة إلا منذ خمسمائة سنة .

وعليه فإن مجالس الروضة المعروفة لدينا في إيران تعني قراءة كتاب « روضة الشهداء » للملا حسين الكاشفي : أي قراءة كتاب الأكاذيب والوضع والتحريف . ومنذ أن وقع هذا الكتاب بأيدي الناس لم يعد أحد يراجع أو يطالع حقيقة واقعة نطف .

ثم بعد ذلك ظهر علينا قبل حوالي ستين أو سبعين عاماً المرحوم ملا آقا ندربندي وقام بجمع كتاب روضة الشهداء مضيفاً إليه بعض القصص الأخرى وألّف كتابه المعروف « أسرار الشهادة » . وإنني يجب أن أقول الحقيقة بأن محتويات هذا الكتاب تدفع الإنسان للبكاء على الإسلام .

ويذكر الحاج نوري أيضاً أنه جاء يوماً أحد قراء التعزية من أهل الحلة إلى الحاج الشيخ عبد الحسين الطهراني ، في الوقت الذي كنا فيه نحضر درس هذا شيخ الكبير وأخرج قارئ التعزية المذكور من جيبه كتاباً باسم مقتل الحسين وعرضه على الشيخ للتأكد من قيمة الكتاب ومدى صلاحه لقراء التعزية

الحسينية . وكان كتاباً لا أول له ولا آخر ، سوى أنه ورد في موضع منه أن العالم الفلاني من أهل جبل عامل كان من تلامذة صاحب المعالم . فأخذ الشيخ الطهراني رحمه الله عليه الكتاب ليطالعه . وعندما ذهب فعلاً وطالع أحوال ذلك العالم اكتشف أنه لم يصدر عن العالم المذكور يوماً ، ولا عرف عنه أنه ألف كتاباً بهذا الاسم . ثم أخذ يطالع الكتاب وإذا به يكتشف بأنه ليس سوى كتاب مملوء محشو بالكاذيب .

فجاء إلى ذلك الواعظ الحلي وقال له إياك أن تعرض هذا الكتاب مرة أخرى على أحد فإنه كتاب مملوء بالكاذيب ولا يجوز النقل منه بشئاً وهو ليس من تأليف ذلك العالم المذكور أصلاً . وهنا يضيف الحاج نوري فيقول : عندما وقع هذا الكتاب بيد صاحب « أسرار الشهادة » قام بنقل كل مواضيعه كما هي دون استثناء .

ويذكر الحاج نوري حكاية أخرى مؤثرة عندما يقول بأن أحدهم ذهب يوماً إلى المرحوم صاحب المقامع^(١) وقال له بأنه قد رأى مناماً موحشاً في الليلة الماضية ، ولما سأله عن المنام قال : رأيتُ نفسي وأنا أقطع لحم الحسين (ع) بأسناني ! فصار السيد يرتجف وبعد أن أطرق برأسه إلى الأسفل وأخذ يفكر قليلاً قال له لعلك كنت من قراء التعزية ؟ فقال له الرجل نعم هو كذلك . فقال له السيد : إذن ينبغي عليك ترك هذه المهمة من الآن فصاعداً أو أن تعود إلى المراجع والمصادر الصحيحة حول واقعة الطف . إذ إنك بالكاذيب التي تغفلها على المنبر تبدو وكأنك تُقطع بدن الحسين (ع) بأسنانك ! وقد كان هذا من لطف الله عليك إذ جعلك ترى هذه الرؤيا حتى تعود إلى الحق وتسترشد بكتب الصالحين .

إن من يقرأ تاريخ عاشوراء يراه من أكثر التواريخ المليئة بالمصادر الصحيحة

(١) صاحب المقامع هو السيد محمد علي ابن المرحوم وحيد البهبهاني وقد كان الأب كما الابن من الرجال الصالحين المعروفين . وقد ذاع صيت الابن كثيراً في مدينة كرمانشاه التي ذهب إليها للوعظ والإرشاد .

وثائق معتبرة والحية . يقول المرحوم آخوند الخراساني مخاطباً أولئك الوعاظ وقراء التعزية الذين يبحثون عن الجدة والانفراد في قراءة تعزية لم يسمع بها أحد من قبل :

فليذهب هؤلاء الوعاظ ويستخرجوا التعازي الحقيقية للحسين (ع) فإن جمهورنا لم يسمع بها حتى الآن ، وليقرأوا خطب الإمام في مكة أو في الحجاز بشكل عام ثم في الطريق إلى كربلاء نفسها أو ليقرأوا الخطب التي نطق بها أصحاب حسين (ع) ، بالإضافة إلى الحوار الذي كان يجري بينه عليه السلام وبين أصحابه والرسائل المتبادلة بينه وبين أنصاره وكذلك الرسائل المتبادلة بين أطراف معسكر العدو هذا علاوة على تعليقات من حضر واقعة عاشوراء وبقي حياً بعد الواقعة [الواردة على لسان الصديق أو العدو] . فهناك ثلاثة أو أربعة من أنصار حسين (ع) حضروا المعركة وظلّوا أحياء ونقلوا وقائعها ومن بينهم العبد لمولاه عفة بن سميان الذي خرج مع الحسين من مكة وسجل في رأسه كل ما حصل لإمامه طوال الرحلة حتى يوم العاشر من محرم حيث اعتقل من قبل العدو ثم أطلق سراحه عندما قال لهم بأنه ليس إلا عبداً وعبداً من العاملين عند سيده حسين (ع) .

وفي معسكر العدو أيضاً كان هناك من سجل وقائع المعركة وظلّ حياً بعد انتهائها وهو حميد بن مسلم الذي يمكن اعتباره بمثابة المرافق الأساسي لعمر بن سعد . ثم إن أحد شهود المعركة شخص الإمام زين العابدين عليه السلام الذي قرأ كل وقائع المعركة والقضايا المحيطة بها . وفي الحقيقة إن المرء لا يجد نقطة به أو غموض واحدة في تاريخ الإمام الحسين (ع) .

من المؤسف هنا أيضاً القول بأن الحاج نوري نفسه ينقل لنا رواية مُحَرَّفة ومختلفة حول الإمام زين العابدين (ع) وهي الرواية التي تقول بأنه لم يبق حسين (ع) من أنصار قام الإمام بزيارة خيمة الإمام زين العابدين (ع) بغرض وداع . فقال له زين العابدين (ع) : يا أبي العزيز ! إلى أين وصل بك المطاف مع هؤلاء ؟ [أي إن الإمام زين العابدين كان يجهل حتى تلك اللحظة ما جرى

لأبيه [فقال له : إنها الحرب يا بني ! فقال له زين العابدين وماذا حل بحبيب بن مظاهر ؟ قال قُتل . وزهير بن القين ؟ قال قُتل . وبُرير بن خُضير ؟ قال قُتل . وهكذا بقيّة أصحاب وأنصار الحسين (ع) ومن ثم صار يسأله عن بني هاشم . وأين القاسم بن الحسن ؟ قال قُتل . وأين أخيه علي الأكبر ؟ قال قُتل . وأين عمي أبو الفضل العباس ؟ قال قُتل . إن هذه الرواية تحريف وكذب وتزوير . فالإمام زين العابدين (ع) لم يكن إلى هذا الحد مريضاً وفاقداً للوعي والعياذُ بالله حتى يكون غير قادرٍ على متابعة أخبار المعركة !

إنّ التاريخ يكتب لنا بأنه عليه السلام وهو في تلك الحال قد ذهب إلى عمته زينب وقال لها : عمته أعطني عصاي وسيفي لأذهب وأقاتل دون الحسين . وأن الذي نقل هذا القول هو شخص الإمام زين العابدين (ع) نفسه .

إذن فلتب إلى الله ! والحقيقة أنه لا بد لنا من التوبة والعودة عن هذه الجرائم والخيانات التي نرتكبها بحق أبي عبد الله الحسين (ع) وبحق أصحابه وأعدائه وأهل بيته ، لأننا بأعمالنا هذه نجردهم من كل عزتهم وفخرهم . لا بد لنا من التوبة والسعي للاستفادة من هذه المدرسة التربوية الحسينية الفذة .

ما الذي ينقص العباس بن علي حتى نحتاج إلى خلق الأساطير حوله ؟ ألا تكفي مواقفه البطولية الشجاعة التي تروى لنا المقاتل الحسينية المعتبرة ! إن الروايات تؤكّد جميعها على أن العدو لم يكن يُريد إلّا الحسين (ع) كما أن الإمام نفسه أكّد ليلة العاشر من محرم على هذا الموضوع عندما قال لأصحابه بأن الأعداء لا شغل لهم إلّا معي وإذا ما قتلوني فإنهم سوف لن يلاحقوا أحداً .

يقول الراوي عندما أراد شمر بن ذي الجوشن التحرك من الكوفة إلى كربلاء كان هناك رجل في مجلس ابن زياد ، فعرض أن له أقرباء من طرف أمه في معسكر الحسين ، والتمس من ابن زياد أن يكتب لهم أماناً ، ففعل .

كان الشمر من قبيلة يجمعها إلى قبيلة (أم البنين) نسب بعيد ، وفي عصر اليوم التاسع من محرم اقترب الشمر للعين من خيمة الحسين (ع) وصاح

أعلى صوته : « أين بنو أختنا ؟ »^(١) وقد كان أبو الفضل (ع) وإخوته موجودين في جانب الحسين (ع) غير أن أحداً منهم لم يجبه بكلمة واحدة إلى أن طلب منهم الإمام الرد عليه قائلاً : « أجيبوه وإن كان فاسقاً »^(٢) فردوا عليه حينئذ قائلين : « ما تقول » قال : لقد جئكم بهدية كريمة وبشرى سارة . لقد أتيتُ لكم بالأمان من الأمير عبيد الله بن زياد ، إنكم أحرار إذا ما رحلتم الآن وإني أتعهد لكم بالأمان والسلامة لأرواحكم . ولكن كيف كان موقفهم ؟ لقد قالوا له . لعنك الله ولعن أميرك ابن زياد ولعن أمانك . أنترك مامنا وأخانا لأننا أحرار نستطيع الذهاب حيث شئنا بموجب الأمان الذي أتينا به ؟!

وفي ليلة العاشر من محرم كان أبو الفضل العباس أول من أعلن ولاءه وإصراره على الثبات والبقاء مع الحسين (ع) حتى آخر لحظة . بعيداً عن نبالغات الحمقاء التي ترد في الأساطير ونستطيع القول بأن الشيء الذي يؤكده لنا التاريخ هو أن أبا الفضل العباس كان رجلاً رشيداً جاداً وشجاعاً جاداً ومقداماً جاداً وبهي الطلعة جميل القد والقامة حتى إنهم سموه قمر بني هاشم^(٣) . إنها الحقيقة التي لا تُجحد وهذا ليس بالأمر العجيب فهو ابن علي بن أبي طالب .

إن قصة أمه المعروفة قصة حقيقية وهي أن علياً (ع) كان قد طلب من أخيه عقيل بأن يختار له امرأة « ولدتها الفحولة »^(٤) . وهكذا فعل عقيل بالفعل عندما اختار له أم البنين . قائلاً : هذه هي المرأة التي طلبتها ، من أجل أن يتحقق هدفه الذي أراد . . . « لتلد لي فارساً شجاعاً »^(٥) . وقد تحققت آماله بالفعل في أبي الفضل العباس .

عندما يحين يوم العاشر من محرم وكما تقول إحدى روايتين ، يتقدم أبو الفضل العباس ويخاطب أخاه قائلاً : أخي العزيز أسمح لي أيضاً أن

(٢٠١) مقتل الحسين للمقرم ص ٢٥٢ . بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٩١ اللهموف ص ٣٧ .

(٣) العباس تأليف عبد الرزاق الموسوي المقرم ص ٨١ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١٠٨ .

(٤) نفس المصدر السابق المقرم ص ٦٩ . والمراد : أن تكون من نسل الشجعان .

(٥) أبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام ص ٣٦ .

أبارزهم ؟ فقد ضاق صدري ولا أستطيع الصبر والانتظار أكثر من ذلك ، أريد أن أفديك بروحي الآن . لست أدري ما هي المصلحة التي جعلت الحسين (ع) يُجيبه ، فأبو عبد الله أعرف منا بذلك إذ قال له : الآن وقد قررت الذهاب فاذهب إذاً ، لعلك تأتي ببعض الماء لأبنائي . إن لقب (السَّقا) كان قد أُعطي لأبي الفضل قبل يوم العاشر لأنه في الحقيقة كان قد شق صفوف العدو لأكثر من مرة في الليالي التي سبقت يوم العاشر وأتى بالماء لأهل الحسين وعياله . إنه ليس صحيحاً بأنهم لم يذوقوا طعم الماء لثلاثة أيام متوالية - كما يدّعي أصحاب الأساطير - صحيح أنهم كانوا قد مُنعوا من الوصول إلى الشريعة لكنهم بفضل العباس استطاعوا الوصول إلى الشريعة وجلب الماء لا سيما ليلة العاشر من محرم حيث إنهم استطاعوا الاغتسال في تلك الليلة . نعم سيدي ومولاي ، قال له أبو الفضل ، تصوروا ذلك المنظر العظيم . تصوروا تلك العظمة وتلك الشجاعة والبطولة بل الإنسانية والشرف الرفيع والمعرفة ودرجة التضحية !! بمفرده يقتحم الجموع . إن عدد الجموع التي كانت تحاصر الشريعة كانت تقدر بأربعة آلاف رجل . لكن الفارس تمكن رغم ذلك من الوصول إلى الفرات ، واقتحم بفرسه الماء [وهذا ما يجمع عليه الرواة] وكان أول عمل قام به هو أن ملأ القربة التي كان يحملها بالماء ووضعها على كتفه . في تلك الأجواء الحارة والعطش الشديد وفي ظل حالة الحرب التي كان يعيشها ينحني أبو الفضل وهو راكب على فرسه والماء قد غطى الجزء الأسفل من الجواد ويمد يديه ليملأهما بالماء ثم يقترب بهما من شفتيه المقدستين . ولكن أولئك المراقبين الذين نقلوا فيما بعد أحداث الواقعة يقولون بأنه وفي تلك اللحظة بالذات تسمرت يده وبعد لحظة تأمل رأيناه قد رمى الماء من يديه إلى الفرات ولم يشرب بل انطلق في طريق العودة . ولم يعرف أحد سبب تلك الحركة من أبي الفضل ؟ ! لكنه لما تحرك عائداً من حيث أتى قال شعراً يخاطب فيه نفسه وفيه يتبين للمرء سبب عدم شربه للماء في تلك اللحظة . يقول أبو الفضل :

يا نَفْسُ مِنْ بَعْدِ الْحُسَيْنِ هُوِي فَبَعْدَهُ لَا كُنْتُ أَنْ تَكُونِي
هَذَا الْحُسَيْنِ شَارِبُ الْمَنُونِ وَتَشْرَبِينَ بَارِدَ الْمَعِينِ

واللّه ما هذا فعّالٌ ديني ولا فعّالٌ صادقُ اليقين^(١)

هيهات أن أشرب الماء والحسين مُقبل على الشهادة! لقد بدّل العباس طريق العودة فهو قد جاء إلى الشريعة من أقصر الطرق المستقيمة ولكنه فضل العودة من وسط النخيل لأنه كان يعرف قيمة الأمانة التي يحملها معه وبالفعل فقد كان كلُّهم أن يوصل قربة الماء سالمةً إلى أطفال الحسين (ع) . لأنه كان من الممكن جداً أن تتعرض القربة إلى الريح التي تمزقها وتسكب ماءها على الأرض . وبينما هو على تلك الحالة الحماسية المؤثرة إذا به يبدّل شعره ، مما يعني أن حادثاً ما قد وقع لأبي الفضل حيث صاح يقول :

واللّه إن قُطعتُم يميني إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمامٍ صادقٍ اليقين نجلُ النبي الطاهر الأمين^(٢)

وما هي إلا لحظات حتى تغير الشعر من جديد ، فإذا به يقول :

يا نفس لا تخشي من الكفار وأبشري برحمة الجبار
مع النبي السُّيد المختار قد قُطعوا بينهم يساري^(٣)

وكما يفهم من هذا الرجز فإن يده اليسرى قد قُطعت أيضاً . ويذكر الرواة هنا بأن أبا الفضل العباس قد تمكن من خلال فروسيّته ومهارته الخاصة من الاحتفاظ بالقربة بين ضلوعه وبالتالي إدارتها يمناً وشمالاً من أجل الوصول إلى الهدف المنشود . وأنا لا أستطيع أن أشرح لكم ماذا حصل في ذلك اليوم مع أبي الفضل ، لأن الذي حصل يُفطر الأكباد . ومن المعروف أن ليلة العاشر من محرم خصّصة لذكر مصيبة هذا الرجل العظيم .

لقد كانت أم البنين والدة أبي الفضل العباس لا تزال على قيد الحياة في واقعة عاشوراء لكنها لم تكن حاضرة في كربلاء وإنما كانت في المدينة . ولما أخبروها

(١) ينابيع المودة ج ٢ ص ١٦٥ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٤١ .

(٢ و٣) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٤٠ .

بأن أولادك الأربعة قد استشهدوا جميعاً في واقعة كربلاء صارت تلك السيدة الجليلة تأتي إلى مقبرة البقيع وترثي أولادها هناك وكما يذكر الرواة فإن رثاءها لهم ونوحها عليهم بأبيات الشعر كان مؤثراً إلى درجة بحيث إن كل من كان يستمع إلى الرثاء كان يبكي ويفقد القدرة على تمالك نفسه وقد صدق هذا الأمر حتى على مروان بن الحكم وهو العدو اللدود لآل البيت . لقد كانت تذكر في رثائها أحياناً أولادها الأربعة معاً لكنها في أحيان أخرى كانت تخصص بالذكر ولدها الأرشد أبا الفضل العباس . والعباس بن علي (ع) كان بالفعل ولدها الأرشد إن من ناحية السنّ ، وإن من الناحية الروحية والكمال النفسي . وأقرأ لكم الآن هذه الأبيات التي أتذكرها من هذه السيدة الجليلة . تقول أم البنين في مرثيتها التي تُفطر الأكباد (العرب على العموم مشهورون في رثائهم المحزون والمؤثر جداً) :

يا مَنْ رأى العباس كَرَّ على جماهير النقد
ووراء أبناء حيدر كل ليث ذي لب
أنبت أن ابني أصيب برأسه مقطوع يد
ويلي على شبلي أمار برأسه ضرب العمد^(١)
لو كان سيفك في يدك لما دنا منك أحد .

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين .



(١) منتهى الآمال ج ١ ص ٣٨٦ .

المحاضرة الثالثة

التحريفات المعنوية لواقعة كربلاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله
ورسوله وحبيبه وصفيه سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله
وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يُعرفون الكلم عن
مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ﴾^(١) .

سبق وقلنا : إن تاريخ واقعة كربلاء العظيمة وصل إلى أيدينا وهو مليء
بالتحريف اللفظي والتحريف المعنوي . وقلنا إن التحريف اللفظي يعني عملية
إضافة اللفظية أو ما ألقناه من طرفنا بالسيرة الحسينية من كلام أو حديث
جعل الصورة النورانية والعظيمة لتلك الواقعة تبدو وكأنها صورة مظلمة وشوه
جها فحوها إلى مهزلة ، وعرضنا نماذج مختلفة في هذا المجال .

(١) سورة المائدة : الآية ١٣ .

التحريف المعنوي

من المؤسف أيضاً القول إن هذه الواقعة التاريخية قد تعرضت إلى التحريف المعنوي كذلك وهو الأشد خطراً بكثير من التحريف اللفظي . إن ما جعل هذه الواقعة الكبرى تفقد أثرها وميزتها هي التحريفات المعنوية وليس التحريفات اللفظية . بعبارة أخرى فإن الأثر السيء للتحريف المعنوي كان أكثر وأشد وقعاً من التحريف اللفظي .

فما هو التحريف المعنوي ؟

قد نأخذ جملة ما كما هي دون زيادة أو نقصان ولكننا عندما نريد تفسيرها وشرحها نعرضها للتحريف بشكل يحولها إلى الضد من معناها الحقيقي . وإليكم مثلاً بسيطاً فقط على هذا الموضوع يُبين لكم حقيقة معنى التحريف المعنوي .

يذكر أنه عندما كان أصحاب النبي (ص) منهمكين في بناء مسجد المدينة كان عمار بن ياسر يبذل جهوداً متفانية في العمل . فقال له رسول الله (ص) يومها [وهو من الأحاديث المسلّمة] : « يا عمار ! تقتلك الفئة الباغية »^(١) وهي إشارة واضحة إلى الآية الشريفة : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَأَوْصِلُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي . . . ﴾^(٢) وهذا تقدير كبير من النبي (ص) لعمار بن ياسر . ومن هنا فإن انخراط عمار في جيش علي في معركة صفين كان قد اعتبر نوعاً من أنواع الثقل المعنوي الذي أضيف إلى معسكر الإمام علي (ع) . حيث إن كثيراً من العناصر الضعيفة في إيمانها ممن كانت تقاتل في صفوف علي (ع) لم تكن على بينة من أمرها ولا تدرك أنها تقاتل في جانب الحق إلى أن استشهد عمار بن ياسر الأمر الذي أكد لها صحة موقفها وأعطى المشروعية لقتالها ضد معاوية وجنده . ولذلك فإن جمعاً كبيراً من معسكر علي صاح بأعلى

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٧٧ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ٩ .

صوته عند استشهاد عمار بن ياسر منادياً : صدق والله رسول الله .

ذلك أنه لم يعد هناك دليلٌ أوضح من هذا يثبت بطلان موقف معاوية وأعدائه بعد ما قتلوا عماراً، وقد سبق للنبي أن قال : « يا عمار ! تقتلك الفئة الباغية »^(١) وهي الإشارة التي قلنا إنها تعود للآية الكريمة « وإن طائفتان » .

وفي ذلك اليوم ، صار واضحاً كالشمس ، بأن جيش معاوية هو الجيش « الباغي » ، أي الجيش المتمرد والظالم ، وأن الحق مع جند علي (ع) . ومن هنا يمكن القول بأن الوقوف إلى جانب معسكر علي ومقاتلة معسكر معاوية صار أمراً منصوباً عليه في القرآن الكريم . وقد فعل هذا الحديث الشريف فعله في جيش معاوية فأصاب جنده بالتردد . لكن معاوية المعروف بدهائه واستخدامه للحيلة والخداع في تسيير شؤونه ، أراد أن يستخدم مكره في هذا الأمر أيضاً ولما كان غير قادر على إنكار حديث رسول الله (ص) حيث كان سيخرج إليه ما لا يقل عن خمسمائة شخص ليشهدوا بأنهم سمعوا هذا الحديث مباشرة من رسول الله (ص) أو أنهم سمعوه ممن سمع هذا الحديث من رسول الله (ص) مما يعني أنه حديث غير قابل للإنكار . لذلك فإنه لما اعترض عليه أهل الشام وقالوا له : ها نحن قد قتلنا عماراً يا معاوية وبذلك ينطبق علينا قول الرسول (ص) بأننا من الفئة الباغية رد عليهم بتخطيطهم وقال لهم : صحيح أن النبي قال بأن عماراً ستقتله الفئة الباغية ، غير أننا لسنا مسؤولين عن قتل عمار ! ولما قالوا له ولكن جيشنا هو الذي قتل عماراً يا معاوية . قال لهم كلا ! إنما لم نقتل عماراً بل إن الذي قتله هو علي بن أبي طالب ، فهو الذي جاء به إلى ميدان القتال ، وتسبب في قتله !!!

لقد كان لعمر بن العاص ولدان أحدهما على شاكلة أبيه يحب الدنيا ويعبدها والآخر شاب مؤمن نسبياً ولا ينسجم مع أبيه واسمه عبد الله .

ذات يوم حصل أن تطرق البحث في إحدى الجلسات التي كان عبد الله

(١) مست ابن حنبل ج ٢ ص ١٩٩ .

حاضراً فيها إلى موضوع عمار بن ياسر وصار الناس يرددون هذه المغالطة المعنوية . فما كان من عبد الله إلا أن واجههم وقال لهم :

ما هذا الكلام الذي تقولونه ؟ وما هذه المغالطة التي تكررون ؟! وما معنى قولكم إن علياً هو الذي تسبب في قتل عمار؟ أتعرفون ماذا يعني حديثكم هذا ؟! إنه يعني أن النبي (ص) هو المسؤول عن قتل حمزة سيد الشهداء لأن حمزة كان يقاتل في جيش محمد (ص) !!

فما كان من معاوية إلا أن اشتد غيظه وزاد من حنقه ونادى عمر بن العاص وطالبه بتأديب ابنه وردعه عن تصرفاته الواقعة !!

نعم ، هذا هو التحريف المعنوي .

فما الذي نفعله كي نحرف الحوادث والوقائع التاريخية تحريفاً معنوياً ؟ .

نقول إن الحوادث والوقائع التاريخية لها عللها وبواعثها من جهة ولها أهدافها وغاياتها من جهة ثانية ومن أجل تحريف أية واقعة تاريخية لا بد لنا إما أن نحرف أسبابها ودوافعها وعرضها على غير حقيقتها أو أن نقوم بتفسير أهدافها والغاية منها بشكل مقلوب ولا ينطبق مع حقيقتها .

فمثلاً عندما تذهب أنت إلى منزل شخص قادم من زيارة مكة المكرمة ويكون الدافع لزيارتك الاعتقاد بأن زيارة الحاج القادم من مكة أمر مستحب وعملٌ يُثابُّ عليه . ثم يأتي شخص آخر ويقول : أتعرفون لماذا ذهب ذلك الرجل لزيارة فلان ؟ فيسأل أحدهم ولماذا ؟ فيجيب الأول بأنك قد ذهبت مثلاً لطلب يد ابنته وأنتك قد قمت باستغلال موضوع الحج تغطيةً لهدفك الأصلي . وهكذا يمكن القول بأن أهداف زيارتك لذلك الحاج قد تعرضت للتحريف ويطلق على مثل هذا العمل التحريف المعنوي .

إن لحادثة عاشوراء التاريخية أسباباً ودوافع كما أن لها أهدافاً وغايات رفيعة ، ونحن المسلمين ، نحن الشيعة حَرَفْنَا شخصية الحسين بن علي قائد هذه

الواقعة كما حرّف معاوية بن أبي سفيان قول رسول الله (ص) حول عمار بن ياسر (تقتلك الفئة الباغية) . أي إن الحسين (ع) كان يهدف في الواقع من حركته ونهضته الوصول إلى أهداف معينة وكانت له دوافعه في ذلك القيام التاريخي إلا أننا قمنا بتصوير دوافعه كما أهدافه على غير حقيقتها !

إن أبا عبد الله عليه السلام يعتبر صاحب نهضة مقدسة وعظيمة للغاية . وقد توافرت في نهضته كل مميزات القداسة التي لا نظير لها في تاريخ البشرية . فما هي تلك المميزات ؟

من المعروف أن الشرط الأول لأية نهضة مقدسة كونها لا تنبع من منظور شخصي ولا تُعبّر عن هدف فردي وإنما تسمى لتحقيق أهداف كلية ونوعية وإنسانية شاملة . فقد ينتفض المرء أحياناً لهدف شخصي خاص به ، لكنه قد ينتفض مرة أخرى من أجل المجتمع ومن أجل الإنسانية ، من أجل الحقيقة والحق ، من أجل تحقيق العدالة والتوحيد والمساواة ، وليس من أجل ذاته ، عند ذلك يكون قيامه وتكون نهضته لا تُمثّل ذاته ومصالحه الشخصية بل إنها تصبح انعكاساً لأمال الآخرين ومصالحهم في نفسه . ولذلك ترى أولئك القادة - الذين جاءت أعمالهم وحركاتهم وقيامهم في الدنيا ليس من أجل ذاتهم وإنما من أجل البشرية ومن أجل الإنسانية والحق والعدالة والمساواة ومن أجل التوحيد ومعرفة الله والإيمان - تراهم محبوبين من قبل البشر جميعاً . وهذا ما ورد على لسان رسول الله (ص) بشأن الحسين بن علي (ع) حيث قال (ص) : « حسين مني وأنا من حسين »^(١) . ولماذا نقول ذلك ؟ ذلك لأن الحسين (ع) وقبل (١٣٢٨)^(٢) عاماً قد نهض من أجلنا ومن أجل كافة البشر ، لقد كانت نهضته نهضة مقدسة ، نهضة طاهرة ومنزهة عن الأهداف والأغراض الشخصية تماماً .

(١) إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٤٩ . أعلام الوري ص ٢١٦ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ٧١ . حلبة الأبرار ج ١ ص ٥٦٠ . كشف الغمة ج ٢ ص ١٦٠ و١٦١ . ملحقات إحقاق الحق ج ١١ ص ٢٦٥ - ٢٧٩ .

(٢) أُلقيت هذه المحاضرة في العام ١٣٨٩ هـ . قمري .

أما الشرط الثاني لقدسية أية نهضة فهو استنادها إلى رؤية وإدراك وبصيرة قوية . ما معنى ذلك ؟

معنى ذلك أن يعيش مجتمع ما في غفلةٍ من أمره ، وقد سيطر الجهل وقلة الإدراك على أفرادهِ وإذا بشخص بصير وصاحب رؤية ثاقبة وإدراك قوي يفوق أفراد مجتمعه في الفهم والشعور بمائة درجة ويُشخص الدواء اللازم لأمراض قومه أفضل منهم جميعاً . وفي الوقت الذي يكون فيه الآخرون غير قادرين على إدراك الأمور وفهمها . بل وحتى غير قادرين على رؤيتها في الظاهر لكنه وكما يقول المثل نراه قادراً على « قراءة المحو » فينتفض ويثور على الأوضاع الفاسدة لذلك المجتمع .

وتمضي عشرات السنين بعد ذلك حتى تنهض الأمة من غفلتها وتُدرك مغزى قيام ونهضة ذلك الإنسان والأهداف المقدسة التي كان يحملها . ويكون آباؤنا قصروا عن إدراك قيمة مثل هذه النهضة قبل أن يمرّ عليها عشرون وثلاثون بل وخمسون عاماً .

خذ المرحوم السيد جمال الدين الأسد آبادي مثلاً وهو صاحب النهضة الإسلامية المعروفة في البلاد الإسلامية قبل حوالي الستين أو السبعين عاماً [توفي هذا الرجل في العام (١٣١٠هـ) قمري أي ١٤ عاماً قبل الثورة الدستورية في إيران] فأنت إذا ما قرأت تاريخه فإنك ستكتشف الغربة والعزلة الخائفة التي كان يعيشها آنذاك . فهو في الوقت الذي كان يحس فيه بالآلام مجتمعه تماماً ويدرك أمراض الأمة الإسلامية ويعرف دواءها كانت الناس تسخر منه آنذاك وتقف أحياناً في طريق نهضته ولا تدعمه في حركته .

ولكن لو جئت اليوم وتعمقت في فكر هذا الرجل بعد مرور أكثر من سبعين عاماً على نهضته لرأيت مقدار الوعي البالغ والفهم الرفيع لهذا المصلح في ذلك الزمان في الوقت الذي لم يدرك فيه تسعة وتسعون بالمائة من أفراد المجتمع الإيراني ماذا كان يُريده الرجل آنذاك .

طالعوا رسالتين من رسائله على الأقل حتى تعرفوا قيمة هذا الرجل الكبير

بهدفه الإصلاحية . فهناك رسالته إلى المرحوم آية الله الميرزا الشيرازي الكبير عن الله مقامه ثم رسالته إلى عموم علماء إيران وهي الرسالة التي بعثها إليهم تكون ورقة عمل مشتركة للعلماء . أو فلنقرأ رسائله التي بعث بها إلى المرحوم حاح الشيخ محمد تقي البجنوردي في مدينه مشهد أو إلى العالم الفلاني الكبير في جنين والعالم الفلاني الكبير في شيراز حتى نرى مقدار ما كان يفهمه هذا الرجل . لك ولكم كان يُدرك الأمور ويعرف الاستعمار جيداً ومدى رغبته الصادقة والمُلحة في بعض الشعب . [دع عنك ما يتناقله البعض من رموز الاستعمار من الترهات حين هذا الرجل العظيم فقد ذهب ذلك الوقت الذي بإمكانهم خداع شعبنا حينها] لقد كانت نهضة هذا الرجل نهضة مقدسة لأنه كان رجلاً يرى خلفيات عوهر الخادعة ويُدرك حقائق ما كان يجري في عصره في الوقت الذي كان فيه غيب أفراد شعبه لا يفهمون ولا يدركون ما كان يجري حولهم .

إن نهضة الحسين عليه السلام نهضة مقدسة بهذه المعايير . فاليوم نعرف نام ماذا يعني يزيد ؟ وماذا تعني حكومة يزيد ؟ وماذا يعني معاوية ؟ وماذا كانت محضطات الأمويين ؟ لكن تسعة وتسعين بالمائة من أفراد الشعب آنذاك لم تكن تدرك هذه الأمور في عصر الحسين (ع) خاصة وأن وسائل الإعلام المنتشرة اليوم في عصرنا الراهن كانت مفقودة آنذاك .

إن أهل المدينة مثلاً لم يتمكنوا آنذاك من فهم ما جرى في معركة الطف وما فيها . ولم يدركوا معنى يزيد وخلافة يزيد إلا بعد أن قُتل الحسين بن علي (ع) . ومضت مدة على ذلك حتى أدركوا معنى قتل الحسين بن علي (ع) وعندها اهتزت مشاعرهم لقتله ؟ !

لقد أرسل أهل المدينة وفدًا من أكابر أهلها إلى الشام وكان على رأسه عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة . وبعد أن قطعوا المسافة الفاصلة بين المدينة و الشام ووصلوا إلى بلاط يزيد وأقاموا مدة هناك عندها فقط أدركوا الأزمة التي نعيشها الأمة .

ولما عادوا إلى المدينة وسألهم أهلها عما شاهدوه في الشام ؟ أجابوهم بأننا

طوال المدة التي أمضيها في الشام كنا ندعو الله فقط بالآل يمطر علينا حجارة من السماء ! وعندما تعجب أهل المدينة وسألوهم عن السبب ؟ قالوا :

لقد واجهنا خليفة يشرب الخمر علانية ويلعب القمار ويُرِي الكلاب والقردة في بلاطه ويلعب بهم بل وحتى أنه يزني مع المحارم من أهله !!!

أما عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة وهو الذي كان أباً لثمانية أبناء فقد قال لأهل المدينة : إنكم سواء قمتم بالثورة على يزيد أم لم تقوموا فلاني قائم إن شاء الله حتى وإن لم يقيم معي سوى أبنائي الثمانية . وهذا ما حصل بالفعل في وقعة الحرة^(١) المعروفة . فقد أرسل عبد الله بن حنظلة أولاده الثمانية قبله إلى وقعة الحرة واستشهدوا جميعاً ثم لحق بهم هو الآخر واستشهد على خطى أولاده .

فهل كان عبد الله بن حنظلة واعياً ومدركاً للأمور قبل ثلاث سنوات مضت عندما قرر الحسين بن علي (ع) الخروج من المدينة وهو يقول :

« وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد ؟ »^(٢) .

لا ، لم يكن واعياً قط ، إذ كان يجب أن يُقتل الحسين أولاً ، وأن يهتز العالم الإسلامي ثانياً ، حتى يفتح عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة ، ومئات من مثله في المدينة ، والكوفة ، وفي أنحاء أخرى ، عيونهم ، ويقولوا بأن الحسين (ع) كان على حقٍ عندما نطق بذلك الحديث !

الشرط الثالث لقدسية أية نهضة يكمن في فرادتها فما هي الفرادة ؟

إن الفرادة هنا تعني كون النهضة المقدسة ضياءً ساطعاً يُشرق في وسط ظلام دامس أو نداءً عالياً وسط السكوت ، أو حركة هامة في وسط السكون المطلق . بعبارة أخرى : في ظروف سيطرة القمع الكامل ، وبينما يكون الناس قد فقدوا

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٦٩ .

(٢) اللهوف ص ١١ . في رحاب أئمة أهل البيت ج ٣ ص ٧٤ .

القدرة على الكلام ، وفي ظل الظلام الدامس ، واليأس المطلق ، والسكوت المطلق ، والسكون المطلق ، يظهر فجأة رجل يكسر هذا السكوت ويبدد ذلك السكون ، ويقوم بحركة تكون هي الضياء الساطع في وسط الظلمة ، ثم يلتحق به الآخرون . ألم تكن النهضة الحسينية كذلك ؟ بلى إنها كانت كذلك بالفعل .

إن الإمام الحسين (ع) قد قام بنهضة من هذا القبيل ، فإذا كانت أهداف نهضته تلك ؟ ولماذا يؤكد الأئمة الأظهر على ضرورة تخليد الغزاء الحسيني ؟ ولماذا قام الإمام الحسين (ع) ؟ وما الحاجة إلى أن نأتي بدليل من عند أنفسنا ؟ فالحسين بن علي (ع) قد ذكر بنفسه دليل نهضته وقيامه :

« إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسيداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي »^(١) . ثم يضيف :

« أريد أن أمر بالمعروف وأنهاى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي »^(٢) .

نعم فالإمام الحسين (ع) قد بين أهداف نهضته ، أليس هو القاتل :
« ألا ترون أن الحق لا يعمل به وأن الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله محققاً »^(٣) ؟ .

ها هو الحسين عليه السلام يقول بأنه قام للأمر بالمعروف ومن أجل إحياء الدين والنضال ضد الفساد والإفساد وأن قيامه قيام إصلاحى إسلامي . لكننا نتقول عليه كلاماً آخر . لقد حرقنا كلامه وقيامه مرة عندما قلنا عنه بأنه إنما قام حتى يقتل نفسه ليكفر عن ذنوب الآخرين من أبناء الأمة ! ولو سألتهم من أين جثم بهذا الكلام ؟ هل قال الحسين (ع) مثل هذا الكلام ؟ أم هو قول

(١) مقتل الحسين ص ١٥٦ . مقتل العواصم ص ٥٤ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ٨٩ . مقتل

الحسين للخوارزمي ج ١ ص ١٨٨ . لمعة من بلاغة الحسين ص ٦٤ . نفس المهموم ص ٤٥ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٨١ ومصادر أخرى وردت في أول الكتاب .

النبي (ص) ؟ أو قول أحد الأئمة الأطهار ؟ يقولون لك ، دعك من هذا فإنه ليس مهماً معرفة مصدر هذا الكلام . فالمهم أن الحسين قد قُتل حتى يغفر الله لنا ذنوبنا ! ولا أدري هنا هل دخلت علينا هذه الفكرة من المسيحية أم من مصدر آخر ؟ إن أمتنا الإسلامية سواء بوعي أو بدون وعي قد أخذت الكثير من عالم المسيحية ضد الإسلام .

من المعروف أن أحد أركان الفكر المسيحي يستند إلى فكرة صلب المسيح المخلص . والفادي والمخلص هي ألقاب المسيح عندهم . فالمسيحية تعتبر أن جزءاً أساسياً من عقيدتها إنما يقوم على أن عيسى ما صُلب إلا ليكفر عن ذنوب أمتة ! أي إنهم بهذا يرمون بذنوبهم على أكتاف عيسى فهل فكّرنا نحن المسلمين جيداً بأن كلام العالم المسيحي هذا لا ينسجم ولا يتناسب مع روح الإسلام الذي نؤمن به ، ولا ينسجم مع أقوال الحسين (ع) .

والله لو أن أحدنا كان صائماً في شهر رمضان وتقول على الحسين بن علي (ع) بمثل هذه الأقاويل ونسب مثل هذه الأقوال إليه لكان صيامه باطلاً ، لأنه كذب محض أن نسب مثل هذه الأقوال إلى الحسين .

فالحسين إنما قام للمقارعة ضد الذنوب وإذا بنا جثنا لنجعل منه متراًساً لارتكاب الذنوب وللمذنبين ! وغمادينا كثيراً في هذا الاتجاه عندما قلنا بأن الحسين قد أسس شركة للضمان . وأي ضمان ؟ ضمان ضد الذنوب ! وصرنا ندعو الناس للتسجيل في هذه الشركة مقابل أقساط من الدمع !

نصوروا الحسين (ع) وهو يقول لأبناء أمتة ؛ اسكبوا الدمع في سبيلي وأنا أكفل لكم مقابل ذلك غفران الذنوب . ليس مهماً من تكونون . ابن زياد أو عمر بن سعد أو أي كان . نعم ، فأمثال ابن زياد قلة في هذه الدنيا ! وأمثال عمر بن سعد قليلون أيضاً ! وسنان بن أنس وخولي وغيرهم ! ومن خلال شركة الضمان هذه أراد الحسين (ع) زيادة عددهم في هذه الدنيا ! وذلك عندما قال أيها الناس كونوا سيئين ما شئتم فأننا ضامنكم وغافر لكم ذنوبكم !!

أما التحريف المعنوي الآخر الذي حصل بالنسبة لواقعة كربلاء فقد كان

عندما قالوا : أتعرفون لماذا قام الإمام الحسين وقُتل في سبيل ذلك ؟ فتقول لهم ولماذا ؟ فيقولون لك بأن ذلك ما كان إلا أمراً وإبلاغاً خاصاً صدر للحسين فقط حيث صدرت الأوامر له بالخروج وقتل نفسه . وبالتالي فإنه أمر لا يرتبط بي وبك أي أنه غير قابل للاتباع والتقليد ! وهو لا يرتبط بقوانين الإسلام وتعليماته العامة والكلية . فهل ترون معي البون الشاسع بين هذا الكلام وكلام الإمام الحسين (ع) ؟ لقد قال الإمام الحسين (ع) ما قمتُ إلا من أجل قضايا الإسلام وأصوله وتعاليمه الكلية .

ليس هناك حاجة لإصدار الأوامر الخاصة فالأوامر الخاصة تصدر في الوقت الذي تكون فيه التعليمات الكلية غير وافية . إن الإمام الحسين (ع) يقول وبكل صراحة : إن الإسلام دين لا يسمح لأي مؤمن [حتى أنه لم يقل لأي إمام] أن يسكت عن الظلم والقمع والمفاسد وارتكاب الذنوب .

إن الإمام الحسين (ع) كان بعمله يُريد تأسيس مدرسة عملية في الإسلام ومدرسته هي مدرسة الإسلام نفسها .

إنه ترجم ووضح وشرح لنا مدرسة الإسلام بالعمل ، لكننا جئنا وأخرجنا هذه الواقعة من إطارها المدرسي . ولما أخرجناها من إطارها المدرسي ، أصبح عمله غير قابل للاتباع والتقليد . ولما صار عمله غير قابل للاتباع أصبح الحسين غير ذي فائدة وبالتالي صارت واقعة كربلاء دون معنى وغير قابلة للاستفادة وخالية من العبر . وبهذا نكون قد حولنا واقعة كربلاء إلى واقعة عقيمة وعديمة الفائدة . فهل هناك خيانة أكثر من هذه الخيانة يمكن ارتكابها في التاريخ ؟ من هنا قلتُ وأقول بأن التحريف المعنوي الذي لحق بواقعة كربلاء أخطر بمائة مرة من التحريف اللفظي الذي لحق بها .

والآن أتعرفون لماذا يؤكد أنتمنا الأطهار (بل ويروى ذلك عن النبي (ص) أيضاً) على ضرورة تخليد هذه النهضة وعدم نسيانها وأن الناس ينبغي عليها أن تدوم على البكاء على الحسين (ع) ؟ وما هو الهدف الذي كانوا يرمون إليه من وراء هذه التعليمات ؟

إننا مسخنا ذلك الهدف الواقعي عندما قلنا بأنه فقط من أجل مواساة فاطمة الزهراء سلام الله عليها لا غير ! في حين أنها عليها السلام تسكن راضية في الجنة إلى جوار ابنها العظيم ولا ينقصها العزاء والمواساة التي تصدر من قبلنا نحن عامة الناس ! لا سيما من خلال بعض البكاء ! فهل تجدون إهانة أكثر من هذه الإهانة يمكن توجيهها لفاطمة الزهراء (ع) ؟

ثم جاء البعض الآخر وقال إن الإمام الحسين قُتل على يد عددٍ من المعتدين في كربلاء وهو بريء لا ذنب له وهذا أمر محزنٌ للغاية ! وأنا أيضاً أقول بأن الإمام الحسين (ع) قُتل وهو بريء لا ذنب له . ولكن، هل هذه هي القضية ؟ ! شخص بريء يُقتل على يد عدد من المعتدين ! ! هل هذا هو ملخص واقعة كربلاء ؟ فكل يوم يمرُّ يقتل مئات الأشخاص الأبرياء على يد عدد من المعتدين والظلمة . وكل يوم يمر يسقط المئات من الناس وهو أمرٌ محزن ومؤثر للغاية . ولكن هل أن مقتل هؤلاء الناس يحتاج منا كل هذه السنين والقرون المتوالية لنجلس وننأثر على مقتل أحد منهم كما نأثر على مقتل الحسين ونكتفي بالقول بأن دمه قد ذهب هدراً !

إن الحسين بن علي قد قُتل بريئاً على يد عدد من المعتدين ! ولكن من قال إن الحسين بن علي قد سقط هباءً ؟ أو أن دمه ذهب هدراً ؟ إذا كان أحدٌ في الدنيا لم يذهب دمه هدراً فهو الحسين بن علي (ع) . إنه كان يُثمن دمه قطرةً قطرةً إلى درجة لا يمكن وصفها ، ولو جمعنا ثروات الدنيا كلها منذ ذلك اليوم حتى يوم القيامة لا يمكن لها أن تساوي قطرةً واحدة من قطرات دم الحسين .

أُيعقل أن يُقال للرجل ، الذي سبب بمقتله اهتزاز أركان قصور الظلمة إلى الأبد ، بأنه سقط هباءً ؟ ! أو إن دمه ذهب هدراً ؟ ! ونقضي حياتنا حيرة على أن الحسين قد سقط هباءً ؟ أنت الذي سيذهب عمرك هباءً أيها المسكين الجاهل . أنا وأنت هباء في هباء وعمري وعمرك اللذان يذهبان هدراً ! ولتكن حسرتك على نفسك . فإنك تهين الحسين عندما تقول عنه بأنه سقط هباءً ! إن الحسين بن علي هو ذلك الرجل الذي قال عنه رسول الله (ص) : - إن لك درجة عند الله ، لن

تناها إلا بالشهادة»^(١) فهل أن الحسين بن علي (ع) الذي كان يتمنى الشهادة ، كان يتمنى أن يسقط هباءً ؟!

إن الذين أوصونا بتخليد عزاء الحسين إنما أوصونا بذلك لأن هدف قيامه كان هدفاً مقدساً ، لأن الحسين بن علي قد أسس مدرسة وأرادوا لهذه المدرسة تخلد إلى الأبد . إنك لن تجد نموذجاً عملياً خالداً شبيهاً بنموذج المدرسة الحسينية . وإذا ما وجدت نموذجاً شبيهاً بالحسين بن علي (ع) عندها يحق لك أن تسأَلَ لماذا نحن نُجَدِّدُ العزاء والذكرى له كل عام ؟! وإذا ما وجدت فعلاً من بناظره في الذي حصل له في واقعة كربلاء إن كان في درجة الابتلاء والمصيبة التي حصلت له ، أو في فكره التوحيدي وفي مظهر إيمانه ومظهر معرفته لله ، أو في إيمانه الكامل بعالم الآخرة ، أو في رضاه وتسليمه ، في صبره واستقامته ، في رجولته وثباته وعزة نفسه وكرامته وفي طمأنينة النفس التي لديه ، في فكره المتحرر والطالب للحرية ، في شوقه وتوقه لخدمة الناس ، إذا ما وجدت فعلاً نظيراً له في هذه الدنيا، لحقْ إذاً أن تسأَلَ: لماذا نحن نُخلِّدُ الحسين(ع)؟ إنه الإنسان الذي لا يبدل ولا نظير له . ونحن إذ نحيي اسم الحسين وثورته إنما نقوم بذلك من أجل أن تعكس علينا بعض الظلال من روح الحسين بن علي عليه السلام .

ونحن إذ نسكب دمعنا عليه إنما نسكبه حتى تنسجم روحنا مع روحه وتتعالى روحنا قليلاً لتلتحم مع الروح الحسينية . ولو أن ذرةً من همته أو من غيرته أو من حريته أو من إيمانه أو تقواه أو توحيده تُشع علينا فتسيل مجاري الدمع من مآقينا فإن ذلك الدمع سيكون لا شك ذا قيمة بالغة للغاية . ولو قالوا لك أن قيمة ذلك بحجم جناح ذبابة فإن ذلك ينبغي أن يكون عندك بقيمة الدنيا كلها . ولكن هذا الدمع يختلف مع ذلك الدمع الذي ينسكب لسقوط الحسين هباءً إنه الدمع الذي يُدرف على الحسين لعظمته وشخصيته الرفيعة . نعم الدمع الذي يسيل منك على أساس الانسجام والتلاحم مع الحسين بن علي (ع) واتباع نهجه ومسيرته فهذا هو الدمع الذي لو نزل بحجم جناح بعوضة منك فإنه يساوي الدنيا كلها .

(١) نقاش الأخبار ص ٢١ عن ابن شهر آشوب .

لقد أراد أثمتنا لنا أن نرى هذه المدرسة العملية ونشاهدها حتى يتبين لنا بأن أهل بيت النبوة خير دليل وخير شاهد على صدق النبي لأن القول بأن المسلم الفلاني قد أبدى من الشهامة والإيمان في المعركة الفلانية ضد الروم أو المعركة الفلانية ضد الفرس لا يُشكل دليلاً على حقانية النبي ، وليس كالقول بأن ابن النبي قد أبدى كذا وكذا . ذلك أن أقرباء كل شخص هم أكثر الناس إساءة للظن به . وعليه فإننا عندما نرى أهل بيت النبوة في منتهى الصفاء والإيمان فإن ذلك بحد ذاته خير دليل على صدق النبي (ص) . ليس هناك أحد أكثر إيماناً أو أكثر استعداداً للقداء مثل علي (ع) ، وهذا لوحده أول دليل على صدق النبي (ص) . والحسين هو ابن النبي . فعندما يأتي الحسين ويعرض إيمانه في إطار تعليقات النبي (ص) فإنك ترى النبي يتجلى فيه .

إن الأشياء التي يتحدث عنها البشر ويتمنون تطبيقها ولكنهم يعجزون عن ترجمتها إلى العمل تراها متبلورة في وجود الحسين بن علي (ع) .

كيف يمكن لروح الإنسان أن تكون غير قابلة للكسر وصامدة إلى هذا الحد ؟ سبحان الله ! إلى أين يصل الإنسان .

كم يجب أن تكون روح الإنسان غير قابلة للهزيمة والانكسار حتى ترى جسمها يتقطع قطعة قطعة وتتفتت أبدان شبابها وأبنائها أمامها ذرة ذرة ويعطش بدنها عطشاً شديداً لدرجة أنها عندما تنظر إلى السماء تفقد الرؤيا تماماً ولا ترى أمامها سوى أشباح ، وعندما تنظر حولها ترى أهلها وقد أصبحوا أسرى بيد العدو وأنها فقدت كل شيء تملكه ما عدا شيء واحد لم تفقده : إنها الروح ، الروح التي لن تنهزم أبداً .

ليس هناك أية واقعة في التاريخ تعكس فضائل الإنسانية كواقعة كربلاء حتى نذكرها بدلاً عن هذه الواقعة . لذلك لا بد لنا من إحياء هذه الواقعة وتخليدها . في تلك الواقعة استطاع جمع يبلغ تعداده اثنين وسبعين نفرًا من هزيمة جمع كثير بلغ تعداده حوالي الثلاثين ألفاً بقوة الروح والمعنوية العالية . فكيف هزمهم ؟

لقد هزمهم قبل كل شيء بروحهم العالية فبالرغم من كونهم كانوا أقلية

يتتظروهم الموت الحتمي لكن أحداً منهم لم يتحول إلى معسكر العدو في حين أن العديد من معسكر الأكثرية قد التحق بهم وعلى رأسهم قائد القوات الحر بن يزيد الرياحي مع ثلاثين نفرًا من جماعته . وهذا دليل ظاهر على أن الأقلية قد ربحت المعركة روحياً في حين أن الطرف المقابل قد خسرها معنوياً .

ثم إن ما قام به عمر بن سعد في كربلاء كان دليلاً واضحاً على انكساره النفسي وهزيمته الروحية أما جنود عمر بن سعد فلم ينهم تمنعوا عن النزال والمبارزة وجهاً لوجه مع جند الحسين وأصحابه بالرغم من قبولهم المبدئي الذي أعقبه تراجعهم المخزي .

فكما كان معمولاً وحسب تقاليد المبارزة والنزال الفردي تمكّن جند الإمام من إلحاق الهزيمة المعنوية بجند عمر بن سعد مما دفع عمر بن سعد لإيقاف المبارزة والنزال الفردي بعد الهزائم المتلاحقة التي لحقت بجنده .

أتعرفون متى نزل الحسين إلى ميدان القتال المباشر ؟

تصوروا بعد ظهر يوم العاشر من محرم ، أي إن قسماً من أصحابه ظل يقاتل حتى الظهيرة ومنهم من صلى صلاة الظهر معه . نعم لقد حاولوا معه منذ الصباح حتى العصر وبعدما قتلوا أصحابه وأعوانه وأنصاره فرداً فرداً وهو الذي كان يحمل أجسادهم بنفسه من ساحة المعركة وهو الذي كان يواسي أهل بيته . لقد ظنوا أنّ بمقدورهم بعد كل هذا أن يهزموه ، لكنه رغم كل المعاناة وحرقة القلب والنفس كان آخر من نزل إلى الميدان ولم يمهّل أحداً منهم حتى إن عمر بن سعد صار يُنادي في الجند :

« ثكلتكم أمهاتكم . أتعرفون من تقاتلون ؟ »

هذا ابن قتال العرب^(١) . . . هذا ابن علي بن أبي طالب . . . والله نفسُ

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٠ ، مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١١٠ . مقتل الحسين للمقرم ص ٣٤٦ .

أبيه بين جنبيه^(١) . فلا تخرجوا إلى مبارزته .

ألا يُعتبر هذا الكلام من علامات الهزيمة ؟ ثلاثون ألفاً من الرجال نزلوا إلى مبارزته وجهاً لوجه وهو وحيد وغريب مع كل تلك المصائب وذلك التعب والعذاب والجهد المتواصل إلى جانب العطش والجوع ورغم كل ذلك فقد كانوا ينهزمون أمامه ويتراجعون ، ليس فقط أمام سيفه بل وفي مقابل منطقته أيضاً .

إنّ أبا عبد الله الحسين قد خطب في يوم عاشوراء مرات عديدة قبل بدء المعركة . إن خطبه بحد ذاتها تدعو إلى العجب حقاً ! إن أهل الخطابة يعرفون جيداً أنه ليس سهلاً على المرء أن تجود قريحته بتلك الخطب الجياشة الرفيعة في الظروف العادية . لا بد لروح الإنسان أن تتعرض إلى هزة عالية لا سيما إذا كانت الخطبة من النوع الرثائي . ولا بد لقلب الإنسان أن يتحرق ويتفطر كبده حُزنًا حتى يتمكن من إلقاء مرثية بذلك المستوى الرفيع .

إنّ الخطب الغزلية تتطلب أن يكون المرء قد تعرّض لإحساسات شديدة من العشق والحب . وكذلك لو أراد المرء أن يُلقي خطبة حماسية فإنه لا بد وأن يكون في جو حماسي شديد للغاية .

عندما كان أبو عبد الله الحسين(ع) يُورد خطبه لا سيما تلك الخطبة الطويلة التي ألقاها على جند ابن سعد في اليوم العاشر من محرم وهي من الخطب الطويلة [والتي خاف عمر بن سعد من تأثيرها على جنده] فإنه كان ينزل عن جواده ثم يصعد فوق الجمل حتى يكون على مكان مرتفع من الجند ليوصل صوته إلى جموعهم .

ها هو أبو عبد الله الحسين يُناديهم : « تباً لكم أيّها الجماعة وترحاً حين استصرختمونا والحين ، فأصرخناكم مُوجفين »^(٢) . إنها حقاً نموذج رائع من

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٩٠ ، إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٠ .

(٢) اللهوف ص ٤١ ، مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١١٠ ، مقتل الحسين للمقرم ص ٢٨٦ و٦ ،

تحف العقول ص ١٧٣ .

خطب علي (ع) . وإذا ما وضعنا خطب علي (ع) جانباً فلإنه يمكننا القول عندها بأنه لا وجود لمثلها في الدنيا كلها . لقد أخافت خطب الحسين (ع) قائد قوات لعدو عمر بن سعد بحيث إنه عليه السلام عندما بدأ في خطبته الثالثة كان العدو قد وصل إلى آخر درجات الانحطاط والانهزام النفسي الأمر الذي دفع عمر بن سعد أن يطلب من جنده الاستعانة بالصفير للتشويش على الخطبة الحسينية حتى لا يسمعها العسكر ويتأثروا بها . أليست هذه علامة واضحة من علامات الهزيمة ؟ تيست هي في الوقت عينه علامة انتصار الحسين ؟ .

إن الإنسان المؤمن والموحد والمرتبط بالله سبحانه وتعالى والمؤمن باليوم الآخر يستطيع هزيمة عشرين ألفاً وثلاثين ألفاً من الجند والعسكر من الناحية الروحية . ليس هذا درساً بليغاً لنا ؟ وأين يمكننا العثور على مثل هذا النموذج ؟ أين هو ذلك الإنسان القادر أن ينطق بجملته واحدة من جمل الحسين عليه السلام وهو على تلك الحالة التي فيها أبو عبد الله الحسين (ع) ؟ أو أن يتفوه بكلمة واحدة من كلمات زينب (ع) وهي على أبواب الكوفة !

لهذه الأسباب ، وحتى نفهم ونُدرك هذه المعاني ، طُلب منا أن نُحْيِ عزاء الحسين ، حتى نُدرك عظمة الحسين ونبكي عليه من زاوية المعرفة والإدراك لمعاني نهضة الحسين . إن معرفة الحسين ترفع من درجتنا عند الله وترفعنا إلى مستوى إنسانية وتجعلنا أحراراً ومن أهل الحق والحقيقة وأهل العدالة وتجعلنا نصبح مسلمين واقعيين وحقيقيين . إن مدرسة الحسين مدرسة صناعة الإنسان وليست مدرسة ارتكاب الذنوب وإن الحسين متراس العمل الصالح لا متراس الذنوب والرذيلة .

يقول الراوي : إنه عليه السلام وبعد أن صلى صلاة الصبح مع أصحابه وأعوانه في يوم العاشر من محرم ، التفث إليهم وقال لهم : استعدوا يا أصحابي فإن الموت ليس إلا جسراً ينقلكم من عالم إلى عالم آخر ، من عالم صعب للغاية إلى عالم رفيع وشريف ولطيف . إذا كان هذا خطابه فلك إذن أن تتصور عمله . إن الراوي هنا ليس الحسين بن علي (ع) بل إن من حضر المعركة هو الذي ينقل لنا هذه المشاهد . حتى هلال بن نافع وهو ممن حضروا المعركة إلى جانب معسكر بن سعد يقول عن الحسين (ع) : إني لأعجب من حسين بن علي فكلمنا اقتربت ساعة

رحيله واشتد به الأمر كلما كان وجهه يُشرق أكثر فأكثر وكأنه العاشق الذي نال وصاله من الحبيب . ويضيف كذلك بأن قاتله اللعين قد توقف عند رأسه وارتبك أمام هيئته وهو يريد قطع رأسه الشريف حتى أنه قال : « لقد شغلني نور وجهه وجمال هيئته عن الفكرة في قتله » (١) .

يقولون إن أبا عبد الله الحسين (ع) قد اختار نقطة مركزية في المعركة تقع عند خيام الحرم [أهل بيته] وكان ذلك الاختيار عائداً لسببين : أولاً : لعلمه أن العدو غير شريف وغير إنساني وليس عنده ذرة حمية تدفعه لخوض معركة شرف حقيقية وبالتالي لا يتعرض لحرم الحسين وخيمهم . وبناءً عليه فإنه كان يُريد حماية الحرم ومنع التعرض لهم من قبل العدو ما دام هناك دم يجري في عروقه وما دامت الروح تجري في بدنه . لقد كان عليه السلام يهاجمهم فيفرون من أمامه فلا يلاحقهم بعيداً بل يعود بسرعة إلى الخيام ليحتمي الأهل من الغدر . أما السبب الثاني فإنه كان يُريد أن يعرف أهل بيته بأنه لا يزال حياً من خلال إيصال صوته إليهم بحيث إنه كان كلما يعود إلى تلك النقطة يُنادي : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » فيعرف أهله أنه لا يزال على قيد الحياة فهذا الخواطر وتدخل السكينة على قلوبهم .

لقد كانت تعليمات الإمام صارمة لأهل بيته بعدم الخروج من الخيام ما دام هو على قيد الحياة . [لا تصدقوا تلك الأقاويل التي تقول بأن أهل بيته كانوا يخرجون باستمرار خارج خيمهم لكل حادث أو حركة] ولا تحاولوا تكرار مثل هذه الأحاديث الركيكة الواردة بحق أهل بيت الحسين لأن أجركم سيزول ، واطمأنوا بأنكم إذا ما التزمتم الحقيقة فإن عاقبتكم ستكون خيراً إن شاء الله ، وستنجون من عذاب يوم الآخرة ، وإن الله سيعذب أعداءكم في القريب العاجل إن شاء الله .

إن أهل بيت الحسين (ع) لم تكن عندهم إجازة بالخروج من الخيام ،

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٧ . اللهوف ص ٥٣ .

وبالفعل فإنهم لم يخرجوا منها لأن غيرة الحسين (ع) كانت لا تسمح بذلك وعفتهم أيضاً كانت لا تسمح لهم بمثل هذا العمل .

ولذلك فإنهم كانوا كلما سمعوا صوته عليه السلام وهو يُنادي « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » . كان الاطمئنان والسكينة يُدخلان إلى قلوبهم . ولأن الإمام كان قد عاد مرة أو مرتين إلى موضع الخيام بعد وداعه الأخير لأهل بيته وحرمة فإنهم كانوا ينتظرون عودته مجدداً إلى ذلك الموضع .

كانت الجياد العربية في ذلك الزمن تروى وتُمرّن على الحروب والقتال لأن لجواد حيوان أهلي قابل للتربية والتعليم . وعندما كان صاحب الجواد يتعرض لأي مكروه كانت تصدر من الفرس بعض ردود الفعل التي توحى بسوقه مكروه وكان أهل بيت الحسين جالسين في الخيام وهم بانتظار سماع صوت الإمام والشوق يغمرهم لرؤية جمال وجهه الطاهر الشريف مرة أخرى وإذا بهممة جواد « يا عبد الله الحسين تصل أسماعهم فاقتربوا جميعاً من باب الخيمة أملين رؤية لإمام وما هي إلا لحظات حتى رأوا الجواد يقترب من الخيمة وقد انقلب سرجه نحو الأسفل . وهنا صاح أولاد الحسين وأهله واحسيناه ! واحمداه ! والتفوا حول فرسه [إن البكاء من طبيعة البشر والإنسان عندما يُريد أن يشكو همومه يُعبر عن ذلك بالبكاء فيخاطب السماء مرة وفي أخرى يخاطب الحيوان وقد يخاطب سائناً آخر] وهكذا بدأ أفراد أهل بيت الحسين الواحد بعد الآخر بالنواح . لقد كنت وصيته عليه السلام إليهم بعدم البكاء ما دام هو على قيد الحياة ولكن لا منع من النواح بعد الرحيل . في تلك اللحظة صار الجميع يبكي حُسيناً .

يقول الرواة بأن الحسين بن علي (ع) كانت عنده بنت تُسمى سُكينة وكان يحبها كثيراً . وقد أصبحت فيما بعد من النساء الأدبيات المشهورات العالمات التي يكن لها كل العلماء والأدباء التقدير والاحترام الفائقين . لقد كان عليه السلام يحب تلك الطفلة كثيراً وكانت هي الأخرى متعلقة كثيراً بأبيها . يقول الرواة بأن هذه الصبية قالت كلاماً جميلاً وحزيناً بحق أبيها على شكل نواح يُبكي كل من سمع إليه . لقد خاطبت جواد أبيها وقالت :

« يا جواد أبي هل سقي أبي أم قُتِل عطشاناً ؟ » .

متى كان هذا ؟ قالت هذا في الوقت الذي كان فيه أبو عبد الله الحسين قد وقع على الأرض عن ظهر جواده .

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .



المحاضرة الرابعة

واجبنا ومسؤوليتنا تجاه التحريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلاق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (١) .

لقد تطرقنا في المجالس الثلاثة الماضية إلى التحريفات الحاصلة في واقعة عاشوراء التاريخية وهو البحث الذي يمكن تقسيمه إلى أربعة أقسام :

- ١ - مناقشة معنى التحريف بشكل عام والحديث عن أنواعه المختلفة .
- ٢ - تبيان التحريفات الحاصلة بشأن واقعة عاشوراء التاريخية وشرح نماذج من تلك التحريفات .
- ٣ - مناقشة الأسباب والدوافع التي تؤدي إلى حصول التحريف بشكل عام

(١) سورة المائدة : الآية ١٣ .

ثم عرض العوامل الخاصة بالواقعة التاريخية لعاشوراء .

٤ - البحث حول واجبتنا ومسؤوليتنا نحن أمام هذه التحريفات ، ووظيفتنا نحن علماء الأمة كما وظيفتنا نحن عامة الشعب .

في المجالس الماضية تطرقنا إلى الأقسام الثلاثة الأولى لهذا البحث والآن سنتطرق بفضل الله إلى القسم الرابع منه .

إنه لأمر حتمي القول بحصول تحريفات متعددة على مر الزمان في هذه الواقعة التاريخية العظيمة جداً ومما لا ريب فيه أيضاً بأن هناك مسؤولية كبيرة تقع على كاهل الجميع ألا وهي النضال ضد هذه التحريفات . وبتعبير أفضل وإذا ما أردنا احترام أنفسنا ، واستخدام التعبير المناسب لهذه الوظيفة لا بد لنا من القول بأن هذا الجليل يتحمل رسالة خطيرة في مواجهة هذه التحريفات . ولكن وقبل عرض هذه الوظيفة وهذه الرسالة سواء تلك المتعلقة بعلماء الأمة [وبتعبير آخر الخواص] أو تلك المتعلقة بعامة الناس [وبتعبير آخر العوام] سأبين لكم مسألتين خاصتين كمقدمة للدخول في البحث العام . الأولى تتمثل في ضرورة النظر إلى الماضي والبحث عن المسؤول عن حصول هذه التحريفات . فهل هم الخواص والعلماء أم الجماهير وعوام الناس ؟ لكن معرفة واجبتنا اليوم تجاه هذه القضية وعلى عاتق من تقع كل هذه المسؤولية وهذه الوظيفة شيء ، ومن هو المسؤول والمذنب في الماضي شيء آخر .

العادة في مثل هذه الأمور أن يُلقى العلماء هذه المسؤولية على عاتق الشعب (العوام) والعوام بدورهم على عاتق العلماء . فالعلماء يقولون بأن الذنب هو ذنب عوام الناس وجهل الشعب ، وإن الناس جُحَّال ، وحمقى ، وأغبياء ، وغير لائقين لأي شيء ، الأمر الذي يجعلهم أهلاً لسماع مثل هذه المهازل والترهات وهم من ثم لا يستحقون سماع الحقائق .

لقد سمعتُ شخصياً من المرحوم آية الله الصدر أعلى الله مقامه أن العلامة تاج نيشابوري كان يُلقى بترهاته من على منبر الحسين باستمرار ولما اعترض عليه

أحدهم يوماً وقال له : لماذا لا تحترم كل هؤلاء الحاضرين وتحدث إليهم بكلام لائق بهم ؟ قال : إن الناس لا يستأهلون ! ثم صار يحاول إثبات ذلك بالدليل !

على الجانب الآخر فإن عوام الناس لهم منطقهم أيضاً في التعامل مع الخواص في مثل هذه الأمور إذ إنهم دائماً ما يستخدمون هذا المنطق ويقولون المثل المعروف : «إن السمكة تفسد من رأسها لا من ذنبها» . والعلماء هم بمثابة رأس السمكة ونحن ذنبها . ولكن الحقيقة في هذا الموضوع أن كلا الطرفين مُقَصَّرَان ومسؤولان عما يجري في هذا المجال سواء الخواص أو العوام . وليكن واضحاً لديكم بأن عامة الناس مسؤولة أيضاً في هذه المسائل . ولا سيما في قضية من هذا النوع فإن عامة الناس وجمهور العامة هم الذين يقتلون الحقائق ويشيعون الخرافات .

هناك حديث معروف ومعتبر لدى العلماء مفاده أن شخصاً سأل الإمام الصادق (ع) بشأن تفسير الآية الكريمة : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانًا ﴾ ^(١) [والله سبحانه وتعالى هنا ينتقد عوام اليهود . حيث إنه وبالرغم من وصفه لهم بالأميين فإنه في ذات الوقت ينتقدهم ويُجملهم المسؤولية كما تدعوهم تلك الآية الكريمة] بأنه إذا كان علماء اليهود مسؤولين فعلاً وهو أمر مفروغ منه فما هي المسؤولية الملقاة على عاتق عامتهم من الناس ؟ إذ إن هؤلاء يُبررون عدم تحملهم للمسؤولية بعدم معرفتهم للقراءة والكتابة [الحديث مفصل وطويل] لكن لإمام يُبين هذا الأمر شارحاً الفرق بين المسؤوليات . صحيح أن هناك قضايا تحتاج إلى الدراسة ومعرفة القراءة والكتابة وأنه لا يُدركها غير الدارسين والعالمين . يمكن في هذا المجال الادعاء بأن العوام غير مسؤولين عما يجري في هذا الحقل ذمهم لا يقرأون بالرغم من أن مسؤوليتهم أحياناً تكون في سبب عدم توجيههم سرس والعلم ؟ ! وهذا منطوق آخر . لكن إذا كان عوام الناس غير مسؤولين عن غصايا التي تحصل في حقل العلم والقضايا التي تحتاج إلى الدرس والتحصيل . نعم وقراءة الكتاب من حيث إنهم غير مسؤولين عن شيء يحتاج إلى رؤية المعلم

سورة البقرة : الآية ٧٨ .

والذهاب إلى المدرسة وقراءة الكتاب . لكن هناك مسائل يدركها الإنسان بفطرته السليمة ولا تحتاج إلى المدرسة والكتاب والمعلم . وبتعبيري أنا لا تحتاج إلى شهادة الثانوية العامة ولا حتى المدرسة الابتدائية بل إنه يكفي المرء أن يكون صاحب عقل سليم . ثم يضرب الإمام مثلاً على ذلك ويقول : تصوروا أن عالماً ما يدعو الناس إلى الزهد والتقوى ولكنه في ذات الوقت يمارس عكس ذلك تماماً ! تراه يأمر بالتوبة لكنه هو نفسه لا يعمل بالتوبة وعامة الناس ترى ذلك بعينها وتلمس عدم التزامه بل والعمل بما يناقض أقواله ثم يتساءل الإمام هنا : هل الإنسان بحاجة إلى إنهاء دورة تعليمية أو حضور دروس المدرسة العلمية أو التلمذ على يد أستاذ حتى يُدرك بأن مثل هذا الإنسان لا يستأهل التقليد والاتباع ؟ إن عوام اليهود كانوا يرون ذلك بأب أعينهم ويُدركونه جيداً بقولهم : « واضطروا بمعارف قلوبهم »^(١) . لقد كانوا يُدركون الأمر بمعرفتهم الفطرية ويعلمون جيداً بأنه لا يجوز اتباع مثل هؤلاء الناس . ولذلك فهم مسؤولون .

إن هناك عدداً من القضايا لا تحتاج إلى أن يكون المرء فيها من الدارسين وكما يقول المثل فإن المرء لا يحتاج أن يكون فيها مثقفاً ومتعلماً كما لا يحتاج فيها إلى دراسة العربية ولا حتى دراسة الفارسية ولا إلى الصرف أو النحو ولا إلى الفقه والأصول ولا المنطق والفلسفة حتى يُدرك كُنْهها ، إنه يحتاج باختصار إلى الفطرة السليمة والفطرة السليمة يملكها الجميع . فالفطرة هي التي تُدرك مثل هذه الأمور . الرسول الأكرم (ص) له كلمة تاريخية تعتبر من أرقى الكلمات وأغناها على الإطلاق في هذا المجال إذ تُعبر عن التعبير الفطري لهذه القضية حيث يقول (ص) : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى »^(٢) .

ماذا لو جاء أحدهم ونقل لنا قصة ما أو رؤيا أو حُلماً رآه في المنام يُفيد فيه أن فلاناً من الناس قد حصل معه فعل اضطراري معين في عالم الرؤيا وأثناء إجرائه لعمل لم يكن له فيه أي قصد وربما بالعكس كان يقصد خلاف ما وقع

(١) الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ٤٥٧ .

(٢) بحار الأنوار ج ٧ ص ٢٢٥ جامع الصغير ج ١ ص ٣ .

ولكن في ذات الوقت حصل أن أدى به هذا العمل لأن يرتفع مقامه إلى أعلى عليين الأمر الذي أدى إلى محو تمام ذنوبه . فهل ينبغي علينا قبول ذلك ؟ وهل أن إدراك ذلك يحتاج منا إلى قراءة كتاب ؟ أو تعلم لغة ؟ أو ضرورة اطلاعنا على الثقافة العامة ؟ إن ذنوب الإنسان لا يمكن أن تُغفر له إلا بالتوبة النصوح ولا تُمحى إلا بالعودة إلى الحق . ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾^(١) نعم فالعمل الخير هو الذي يحو آثار العمل السيئ وليس العمل الذي لا إرادة فيه للإنسان . ولكننا للأسف لا نستفيد من حسنات الفطري هذا أبداً .

لقد كتبوا في بعض الكتب إن أحد اللصوص المعروفين، التابعين لعصابة من قطاع الطرق الذين يقتلون كل من تقع عليه أيديهم ، عَلِم يوماً أن قافلة من زوّار الحسين (ع) الذاهبين إلى كربلاء سيُصادف مرورها بقربه فكمن لها في أحد المفايق لعلّه يتمكن من قطع الطريق عليها وسرقة ما يمكن سرقة منها ومواجهة أية مقاومة ستظهر من أفرادها بالقوة حتى إذا تطلب منه قتل أفرادها . وبينما هو في هذه الحال إذا به يغرق في النوم ، وتمر القافلة دون أن يتمكن منها بشيء . وقد رأى في المنام أنه قد شهد يوم القيامة وأنه على جرف يوشك أن يلقى به في نار جهنم باعتباره لا يملك أي عمل صالح ضمن لوح أعماله وهو مجرد قطعة من الذنوب وتاريخه حافل بالجريمة . وبينما هو على شفا حفرة من النار وإذا بجهنم تلفظه وترفض استقباله ! فهل تعرفون لماذا ؟ لأنه كان نائماً على طريق قافلة زوّار الحسين (ع) مما يعني أن بدنه قد اغترّ بتراب زوّار الحسين (ع) . وعليه فإن مثل هذا الرجل وبالرغم من أنه كان يكمن لزوار الحسين من أجل سرقة أموالهم وقتلهم ، وحديث الرسول (ص) الواضح في هذا المجال والذي جاء فيه : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » فإن مثل هذه الحالة ومثل هذا الوضع يُخرجه من سلك المجرمين ويغفر له ذنوبه كلها .

فإن النار ليس تمسّ جسماً عليه غبار زوّار الحسين
إنه شعر جميل لكنه للأسف الشديد لا ينطبق ومنهج المدرسة الحسينية

الحقة .

(١) سورة هود : الآية ١١٤ .

أما المسألة الثانية التي أودّ طرحها في مقدمة البحث المتعلق بالرسالة والواجب الملقى على عاتقنا فهي مسألة خطر التحريف إذ لا بد لنا من عرض موجز لخطر التحريف على الوقائع التاريخية . لقد تطرقنا قبل ذلك إلى أنواع التحريف الحاصل في واقعة عاشوراء التاريخية كما شرحنا العوامل التي تكمن وراء حصول التحريف . ولكن قد يأتي أحد ويقول وما العيب في ذلك ؟ وما هو الضرر الذي ينتج عن التحريف ؟ ثم أين هو الخطر ؟ إن خطر التحريف في الواقع كبير جداً . والتحريف ضربة غير مباشرة وهي أخطر من الضربة المباشرة . فعندما يتعرض كتاب ما إلى التحريف [سواء أكان التحريف لفظياً أو معنوياً] وكان ذلك الكتاب كتاب وعظ وإرشاد فإنه سيتحول إلى كتاب للضلال . وإن كان كتاب سعادة فإنه سيتحول إلى كتاب للشقاء . ولو كان كتاباً يرفع الإنسان إلى عليين فإنه نتيجة التحريف سيتحول إلى كتاب يؤدي بالإنسان إلى الانحطاط .

فالتحريف يعرّض أساس الكتاب إلى التغيير والتبديل ولن يتوقف التأثير على إزالة فوائد الكتاب بل إن الأمر سيتعداه إلى حصول تأثير معاكس للهدف المطلوب .

إن لكل شيء في الحياة له آفته المتناسبة معه . يقول الرسول الأكرم (ص) :
« آفة الدين ثلاثة : فقيه فاجر ، إمام جائر ، مجتهد جاهل »^(١)

فكما أن للجملادات والنباتات والحيوانات آفاتنا الخاصة بها وللبدن آفته الخاصة به فإن للدين والشريعة آفتها الخاصة بهما . ولذلك فإن التحريف الذي يحصل على يد فئتين من الناس : ممن وصفهم الرسول الأكرم (ص) في حديثه الشريف وهما : الفقيه الفاجر والمجتهد الجاهل يمكن اعتباره آفة من آفات الدين ، أي إن خطر التحريف يتمثل في إبادة الدين ومحوه . ذلك أن الناس ستأخذ ما يقول به المحرّفون على أساس أنه الحقيقة ولما كان التحريف يقلب الموضوع رأساً على عقب فإن الناس بالتالي ستأخذ المعكوس على أنه هو الحقيقة .

(١) جامع الصغير ج ١ ص ٤ .

انظروا إلى علي (ع) وهو ذلك الرجل العظيم ثم قارنوا شخصيته الحقيقية مع تلك الصورة العجيبة والغريبة التي صوّرها لنا المحرّفون . إن بعض الناس تعرف علياً على أنه ذلك الرجل البهلوان فقط لا غير ! وأحياناً ترى علياً (ع) وقد صُوّر بواسطة أشخاص مفرضين وهو يحمل سيفاً له لسان يشبه لسان الثعبان ، بالإضافة إلى تلك العضلات والشكل والبدن الذي رسمته تخيلة الرسّامين الذين لا يعلم إلا الله من أين جاوزوا هذه الصورة الخيالية له . وفي الوقت الذي لا يوجد في التاريخ أية صورة أو تمثال لعلي (ع) تراهم رغم ذلك يرسمون له أشكالاً عجيبة لا يمكن للمرء أن يتصور معها ذلك الإمام العادل وذلك الرجل الذي لا ينام الليل وهو يبكي في خشوع مخافة الله رب العالمين . وكلنا يعرف أن صورة العابد والمتهجد وصورة المرء الذي يقضي الليل وهو منشغل في طلب الاستغفار وصورة الحكيم والقاضي والأديب مختلفة جداً عن تلك الصور التي يعرضونها عن علي أمير المؤمنين (ع) .

هناك موضوع آخر يتعلق بنا نحن الإيرانيين وهو موضوع إطلاقنا لصفة الإمام العليل والسقيم على الإمام الرابع الإمام زين العابدين (ع) ! إنك لا ترى في أية لغة أخرى نعت المريض وقد ألصق باسم زين العابدين (ع) . فلا وجود لهذا النعت في اللغة العربية . فلدى زين العابدين ألقاب كثيرة معروفة مثل السّجّاد ذو الثغفات لكنك لن تجد كتاباً واحداً في الدنيا أعطيت فيه صفة العليل ! في اللغة العربية للإمام زين العابدين . إن الإمام زين العابدين كان مريضاً في أيام واقعة عاشوراء فقط [وربما كان ذلك تدبيراً إلهياً أدى إلى بقاء نسل الإمام الحسين (ع) بعد استشهاده] وهو السبب وراء بقاءه حياً رغم حضوره تلك الواقعة التاريخية . فقد أرادوا قتله عدة مرات لكنهم - لشدة مرضه آنذاك - يقولون : ... إنه لما به ...^(١) لا نحتاج إلى قتله . فهو ميت لا محالة !

ومن هو ذلك المرء الذي لم يمرض مرة في حياته ؟ وهل قرأتم أي كتاب يذكر فيه أن زين العابدين (ع) قد مرض وأصبح قعيد الفراش في غير أيام

(١) بحار الأنوار ج ٤ ص ٦١ . أعلام الوري ص ٢٤٦ ، إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٤٢ .

عاشوراء؟! لكننا رغم ذلك صوّرنا الإمام زين العابدين (ع) وكأنه ذلك الإمام السقيم المريض الشاحب الوجه وصاحب العصا المحني الظهر والعليل الذي لا يتوقف عن التأوه والشكوى!!

إن هذا الكذب وحده وهذا التحريف بحد ذاته جعل كثيراً من الناس تأوه باستمرار وتئن من أوجاعها وترمي بأنفسها إلى فراش المرض حتى تنال احترام الناس وحتى يُقال عنها انظروا إلى السيد الفلاني فهو مريض مثل الإمام زين العابدين تماماً!! هذا تحريف . إن الإمام زين العابدين (ع) لا يختلف في بنيته ومزاجه عن الإمام الحسين (ع) أو الإمام محمد الباقر (ع) . لقد عاش أربعين عاماً بعد واقعة كربلاء . وكان سالماً معافى طوال تلك المدة مثل كل الناس ولم يختلف في حياته عن الإمام الصادق (ع) ، فلماذا إذن نصف الإمام زين العابدين (ع) وننتعه بالإمام السقيم والعليل؟! (١) .

إن الإمامة تعني النموذج والمثل الأعلى ، وفلسفة وجود الأئمة تكمن في كونهم بشراً مثاليين ونموذجيين ينهجون نهج النبي الأكرم (ص) ويتأسسون به

(١) رحم الله المرحوم العلامة أبيه رضوان الله عليه ذلك الرجل الجوهرة الذي افتقدناه فقد قال هذا الرجل العظيم قبل ست سنوات تقريباً في إحدى الجلسات الدينية التي كان يُشارك في إقامتها مع جمع من المؤمنين وهو يتحدث عن منهج الوعظ والتبليغ والإرشاد عندما تنطرق إلى هذا الموضوع بالقول : لماذا نسب لقب العليل إلى الإمام زين العابدين (ع) ! إن هذا اللقب الذي أعطياه للإمام يُعطي انطباعاً عجيباً عنه ويُصور للناس بأنه ذلك الإمام السقيم والعليل طوال مدة حياته . ثم انتقل إلى نقل قصة معبرة جداً وقال : - لقد قرأت حديثاً في إحدى المجلات مقالاً يتعرض فيه الكاتب إلى وضع الدولة ودواثرها وحالة الموظفين فيها ويقول بأن أغلب العاملين والموظفين فيها عبارة عن أشخاص غير لائقين وغير جديرين أو أفراد فاسدين . فهم موزعون بين أفراد مؤهلين علمياً ولكنهم فاسدون أو أنهم أفراد صالحون ولكنهم غير مؤهلين . ثم ينقل العبارة التالية بالنص فيقول : إن أغلب القائمين والقيمين على أمور الدولة وشؤونها إما أن يكونوا على شاكلة الشمر بن ذي الجوشن ، أو على شاكلة الإمام زين العابدين العليل ! في حين أننا بحاجة إلى أفراد يكونون على شاكلة العباس ومن أهل العمل والنشاط ! أي إن الشمر كان صاحب همة ونشاط ولكنه كان فاسداً بينما الإمام زين العابدين كان فرداً عليلًا وسقيماً للأسف رغم كونه صالحاً ، أي العياذ بالله لم تكن لديه الكفاءة والجدارة اللازمتان لإدارة شؤون البلاد ! بينما العباس كان صالحاً ومؤهلاً أيضاً في نفس الوقت . انظروا خطر الانحراف في هذه الرواية الصغيرة من روايات التاريخ .

فالنبي هو : ﴿ بشر مثلكم يوحى إلي ﴾ ^(١) ، وذلك كله من أجل أن يرسموا صورة المثال لسائر الناس حتى يتبعوهم ويُقلدوهم . ولكن إذا ما تم تشويه وجه هذه الشخصيات وخُرِبَت معالمهم إلى هذا الحد فإنه يصبح من الصعب الطلب إلى الناس تقليدهم واتباعهم . إذ يصبح أمر تقليد مثل هذه الشخصيات أمراً خيالياً بعد أن كان أمراً عملياً مفيداً وهي نتيجة معكوسة لفلسفة وجود الأئمة وهذا يُبين لنا إجمالاً أخطار التحريف البالغة ، وأن التحريف ضربة غير مباشرة للإسلام كالتحجر في الظاهر .

إنَّ النسل اليهودي يمكن اعتبارهم من أبطال التحريف في العالم . إذ ليس هناك أحد ساهم في التحريف بقدر مساهمة اليهود في تاريخ العالم . ولهذا فإنه لا يوجد أحد في العالم أوجع التاريخ في ضرباته بقدر اليهود ، فقد قلبوا الحقائق وأوجدوا البدع على طول الخط .

رسالتنا وواجبنا

إن علينا واجباً مهماً وفي أعناقنا مسؤولية خطيرة لا سيما في هذا العصر الذي نعيشه الآن . يجب علينا أن نعرف أنه لا يمكن خدمة الناس بواسطة واقعة تاريخية مُحَرَّقة . كما أنه لم يكن ذلك ممكناً في الماضي ، وإذا لم تكن هذه الحالة مفيدة في الماضي فإن ضررها كان قليلاً لكن ضررها في هذا العصر أصبح كبيراً جداً . إن واجبي وواجبكم أن نرى سوية التحريفات التي تعرض لها تاريخنا والتحريفات التي حصلت في رسم معالم شخصياتنا وأعلامنا . ومن ثم إلى التحريفات الحاصلة في القرآن الكريم ؟ صحيح أن القرآن الكريم لم يحصل فيه أي تحريف لفظي أي إن كلماته ظلت كما هي دون زيادة أو نقصان . لكن خطر التحريف المعنوي للقرآن الكريم بحجم خطر التحريف اللفظي له . فما هو التحريف المعنوي للقرآن ؟ أنه التفسير المغلوط والاستخدام المغلوط والتبرير للأعمال المنحرفة من خلال استخدام الآيات القرآنية وهو أمر لا يمكن السكوت عنه ؛ ثم

(١) سورة الكهف : الآية ١١٠ - وفُصِّلَت : الآية ٦ .

فلننظر إلى تواريننا، تلك الحوادث التاريخية التي ينبغي لها أن تكون دروساً تعليمية لنا ووثيقة أخلاقية لنا وسنداً ودليلاً في التربية الاجتماعية لنا جميعاً مثل واقعة عاشوراء التاريخية ونرى نوع التحريفات التي تعرضت لها ؟

عندها سنقول إن من واجبنا مكافحة مثل هذه التحريفات بكل ما أوتينا من قوة .

وظائف علماء الأمة وعامة الناس

ما هي الوظائف الملقاة على عاتق علماء الأمة ؟ وما هي وظائف عامة الناس وجهامير الشعب ؟

بالنسبة إلى علماء الأمة سأعرض عليكم بحثاً كلياً يتلخص في أن نقطة انحراف العالم الأساسية تكمن في أنه يرى نفسه دائماً في مواجهة نقاط ضعف الناس وعيوبهم .

إن نقاط الضعف الروحية والأخلاقية والاجتماعية للأفراد تعتبر نوعاً من أنواع الأمراض . ففي الأمراض الجسمية غالباً ما يحس المريض نفسه بالمرض ويذهب عندئذٍ لمعالجته . لكن الأمر مختلف في الأمراض الروحية إذ إن الأمر يصبح أكثر تعقيداً من حيث إن الشخص المريض هنا لا يدرك أنه مريض ! بل إنه على العكس من ذلك قد يتصور أنه أكثر سلاماً من غيره ! وربما يصبح متعلقاً بمرضه ذلك بشدة ! والأفراد لا يرون نقاط ضعفهم ولا يشخصونها على أنها نقاط ضعف ينبغي معالجتها بل إنهم يرون فيها نقاط قوة ينبغي لهم ترسيخها . إن وظيفة العالم ومسؤوليته أن يدرك ويشخص نقاط ضعف مجتمعه .

إن تصرف العالم في مواجهة نقاط ضعف مجتمعه يتخذ حالتين :

أولاً : إما أن يكافح نقاط الضعف هذه ، وفي أغلب الأحيان ستكون الناس غير راضية عنه !

ثانياً: وإما أن يرى في عملية مكافحة نقاط ضعف المجتمع أمراً صعباً ومهمة عسيرة وأنها مسألة تجلب له الضرر وليس فيها أية منفعة شخصية تذكر . وبالتالي فإنه سيختب أسلوب الاستفادة من نقاط الضعف المنتشرة ! وهنا سينطبق عليه قول الرسول الأكرم (ص) ويصبح مصداق « الفقيه الفاجر » وهي الفئة الاجتماعية التي عُرفت على أنها من آفات الدين الثلاثة .

سوف نترك الحديث عن سائر القضايا الأخرى ونركز بحثنا على واقعة عاشوراء . إنَّ عمل الناس ينطوي على نقطي ضعف أساسيتين في موضوع إقامة المجالس الحسينية :

أولاهما تكمن في أن المؤسس أو المؤسسين وأصحاب المجالس الحسينية سواء تلك المجالس التي تقام في المساجد أو التي تقام في البيوت (على الخصوص) وفي حدود تجربتي الشخصية [فإنه لا استثناء في ذلك] هؤلاء المؤسسون لا يهتمهم إلا نقطة واحدة هي ازدحام الناس وكثرة توافدهم على مجلس العزاء ! فإذا ما حصل ذلك الازدحام والتوافد كان به وإلا فإنهم سوف لن يرضوا عن ذلك المجلس ! وهذه نقطة ضعف . إن هذه المجالس لم تقرر من أجل ازدحام الناس فيها ! فهل نحن أمام استعراض عضلات أو عرض مسرحي ؟! بل إن الهدف من وراء ذلك هو التعرف على الحقائق ومكافحة التحريف . هذه هي إحدى النقاط التي عادة ما تواجه القارئ والواعظ الحسيني . وبالتالي فإنه أمام خيارين إما أن يواجه نقطة الضعف هذه بأسلوب المكافحة والتغلب عليها أو أن يستخدمها تاجاً يفتخر به ويستغله لإنجاز مهمته ! فإذا اختار أسلوب المكافحة فإنه سيقف في موقف متعارض وغير منسجم مع هدف صاحب العزاء والمستمعين الذين غالباً ما تُسرهم مثل تلك الاجتماعات الحاشدة ، لكنه إن اختار طريق الاستفادة من نقطة الضعف المذكورة فإن همه سيكون البحث عن أفضل الطرق والوسائل التي تساعد في حشد الناس وهنا يصبح العالم أمام مفترق طرق . إذ أنه يستطيع القول : ها هم الناس حقاً ولديهم هذه النقيصة وبالتالي فلإنه بإمكانه الاستفادة منها واستثمارها . لكنه يستطيع القول أيضاً إنه على الرغم من ذلك فإني سأنتخب طريق النضال ضدها وأتوجه نحو البحث عن الحقيقة .

ونقطة الضعف الثانية التي يتميز بها الناس في قضية المجالس الحسينية وهي أكثر انتشاراً لدى عوام الناس لكنَّ حُدُثها خَفَّت لحسن الحظ في الآونة الأخيرة هي مسألة « حُب العرض المأساوي والتراجيدي » لقضية الحسين .

إن الواعظ الحسيني يجب أن يُبَيِّن حديثه بذكر المصيبة وذكر المصيبة هذا ينبغي أن لا يقف تأثيره عند بكاء الناس فالبكاء وحده لا يكفي ، بل إن المطلوب أن يهتز المجلس من مكانه ويرتج ارتجاجاً وتظهر كل ملامح المأساة في ذلك المجلس . وأنا لا أخالف أن يهتز المجلس ولكن أقول إن اهتزاز المجلس ووقوع المخرج يجب أن لا يكون هدفاً بحد ذاته . فإذا كان الأمر كله يتم في الاتجاه الصحيح ويترافق ذلك مع شرح للحقائق وتبيانها دون اللجوء إلى قراءة التعزية الكاذبة أو اللجوء إلى التزوير والتحريف واختلاق أسماء لأصحاب الإمام الحسين (ع) ممن لا يعرفهم التاريخ كما لا يعرفهم الإمام الحسين نفسه لأنهم لا وجود لهم في الأساس . ويكون الإنسان غير مضطر لذكر أسماء لأبناء الحسين عن لا وجود لهم في الواقع الخارجي أو ذكر أسماء لأعداء الحسين عن لا وجود لهم فإذا سال الدعم على قاعدة الصدق والحقيقة ، وحصل عندها الغليان واهتز المجلس وتمثلت كربلاء في ذلك العزاء فإنه أمر جيد جداً . ولكن ماذا لو اختفت الحقيقة والصدق والإخلاص فهل علينا أن نحارب الإمام الحسين (ع) ونُعَاديه ونكذب عليه ونتقول عليه ؟!

هذه هي نقاط ضعف الناس العوام . فما هو المطلوب منا أن نفعل مقابل ذلك ؟ هل يجوز لنا أن نستغل نقطة الضعف هذه ؟ ونقول إنه ينبغي استثمار هذه الحالة وركوب الموجة ؟ ونتوج أنفسنا بتاج نيشابور لأن عوام الناس حقى ولا بد لنا من استغلال حماقتهم ؟! كلا ، فإن الرسالة الخطيرة والكبيرة الملقاة على عاتق العلماء هي مكافحة نقاط الضعف التي يعاني منها المجتمع .

ولذلك فإن الرسول الأكرم (ص) يقول : « إذا ظهرت البدع في أمتي فليُظْهر العالم علمه ، وإلا فعليه لعنة الله »^(١) .

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٦٣ . أصول الكافي ج ١ ص ٥٤ ، بتعديل طفيف .

والقرآن الكريم يذهب إلى أبعد من ذلك بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ۝ ﴾ (١).

نعم فواجب العلماء في عصر خاتم النبوة هو مكافحة التحريف . ولحسن الحظ فإن وسائل هذا الكفاح وأدواته موجودة كما أن هناك عدداً لا بأس به من العلماء ممن وقفوا هذا الموقف المشرف حتى الآن . وما كتاب (اللؤلؤ والمرجان) الذي يتعرض فيه مؤلفه إلى موضوعه واقعة عاشوراء التاريخية وهو الكتاب الذي تطرقت إليه في المجالس الثلاثة الماضية لمؤلفه الحاج نوري رضوان الله عليه إلا تطبيقاً عملياً ومصادقاً حياً لهذه الوظيفة المقدسة جداً والتي قام بها هذا الرجل العظيم على أحسن وجه وهي المصادق الحي للقسم الأول من حديث الرسول (ص) : « إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه . . »

إن من واجب العلماء في مثل هذه الحالات عرض الحقائق على الناس دون أية مواربة حتى وإن أنفت الناس من أقوالهم . وإن من واجب العلماء أيضاً مكافحة الأكاذيب وكشف المكذبين وفضحهم على رؤوس الأشهاد . إن لدى الفقهاء مبحثاً خاصاً في باب الغيبة يقولون فيه بجواز الغيبة في الحالات الاستثنائية . وإن إحدى موارد جواز الغيبة والتي يمارسها كافة العلماء الكبار بل ويرون لزوم حصولها بل وأحياناً وجوب ممارستها هي عملية تجريج الراوي . فما هي عملية تجريج الراوي ؟ فعلى سبيل المثال لو جاء شخص ونقل لنا رواية ما عن رسول الله (ص) أو عن أحد الأئمة الأطهار فهل علينا تصديقه على الفور ؟ كلا ، فالمطلوب أولاً إجراء التحقيق حول هذا الشخص الراوي وعمّا إذا كان معروفاً بالصدق أو بالكذب ؟ فلو حصل أن اكتشفت مثلاً نقطة ضعف ما في سيرة هذا الرجل أو أية نقیصة أو عيب يذكر، أو أنه ثبت لك اشتهاه بالكذب أو الفسق فهنا يلزم عليك بل يجب أن تفصح هذا الرجل في الكتب . وهذا العمل يطلق عليه : التجريج . وعلى الرغم من أن هذا العمل يمكن نعتة بالغيبة أو النمیمة وأن

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٩ .

الغيبة والنميمة غير جائزتين سواء على الحي أو على الميت إلا أنه ما دام الأمر هنا يتعلق بتحريف الحقائق وقلب الحقائق فإنه ينبغي فضح ذلك الرجل مهما كلف الأمر فالكذاب يجب فضحه مهما كانت النتائج .

فمن الممكن مثلاً أن يبرز عالم ما بمواصفاته العلمانية في مجال ما بشكل جيد مثل الملا حسين الكاشفي وهو العالم الديني المعروف ! لكن كتابه المعروف باسم (روضة الشهداء) كتاب مليء بالكذب حين تقول فيه على الجميع وحرف أعمال العدو والصادق بما فيهم ابن زياد وعمر بن سعد . فلقد كتب مثلاً أن ابن زياد قد منح خمسين رطلاً من الذهب الأحمر لعمر بن سعد من أجل الذهاب إلى كربلاء ومقاتلة الحسين (ع) ! فكل من يسمع بمثل هذا الحديث مثلاً سيفكر بأن ابن سعد ليس رجلاً سيئاً إلى هذا الحد الذي ينقل عنه الرواة . فخمسين رطلاً من الذهب الأحمر كانت كافية لإغراء أي إنسان ليذهب ويقاتل الحسين .

أما بشأن العلامة ملا آقا الدريندي مثلاً ، فإن هناك اتفاقاً عاماً حول حسن سيرته . حتى الحاج نوري الذي ينتقد كتابه بحق فإنه يقول عنه أيضاً بأنه رجل حسن السيرة والسلوك . وكما ينقل عنه فإنه كان رجلاً مخلصاً للإمام الحسين (ع) وأنه كلما كان يذكر إسم الحسين أمامه كانت دموعه تسيل من مآقيه ، إضافة إلى كونه عالماً بالفقه والأصول ، وهو من جهته كان يُصنّف نفسه من فقهاء الدرجة الأولى .

ولكن الأمر ليس كذلك فهو من فقهاء الدرجة الثانية أو الثالثة فهذا العالم مثلاً يعرف عنه بأنه ألف كتاباً باسم « الخزان » وهو عبارة عن دورة كاملة في باب الفقه وقد تمت طباعته . والمؤلف من المعاصرين لصاحب الجواهر .

وينقل عنه أنه سأل صاحب الجواهر يوماً عن اسم كتابه ؟ فلمّا أجابه « الجواهر » ردّ عليه صاحب (الخزان) بأنه « يوجد من جواهرك هذه الكثير في خزائنا » . لكن كتاب (الجواهر) تم طبعه عشر مرات حتى الآن وهو كتاب لا يمكن لأي فقيه أن يستغني عنه وعن مراجعته . بينما طبع كتاب (الخزان) مرة

واحدة ولم يرجع إليه أحد بعد ذلك أبداً ! وقيمة هذا الكتاب لا تتجاوز في الواقع قيمة الألف صفحة من الورق المستهلك لطباعته .

وهذا الرجل على ما عُرف عنه من العلم فإنه يكتبه « أسرار الشهادة » قد ساهم في تحريف واقعة كربلاء كلياً . إنه في الحقيقة قد قلب الحقائق رأساً على عقب ونزع عن الواقعة أي أثر إيجابي يذكر، فيما ملأ كتابه بالأكاذيب !

فهل يجوز القول في مثل هذه الحالة بأن كون الرجل عالماً ورجلاً ذا تقوى ، ومن المشهورين بإخلاصه للإمام الحسين (ع) ، يسمح لنا بالسكوت عنه ، أو القول بأن المفروض من الحاج نوري مثلاً السكوت عن كتابه المعروف باسم (أسرار الشهادة) ؟ أبداً فهذا الرجل يجب أن يُجرَّح وهذه وظيفة العلماء ورسالتهم الخطيرة . نسأل الله أن يوفقنا تبارك وتعالى وينور قلوبنا جميعاً بالحق والحقيقة . ويغفر لنا ذنوبنا التي ارتكبتها بالتحريف أو بغير التحريف . ويوفقنا لأداء وظيفتنا ورسالتنا المفروضة علينا في هذا المجال على أحسن الوجوه .

[انتهى القسم الأول من الكتاب]



القسم الثاني

الملحمة الحسينية

المحاضرة الأولى : وجهان لواقعة كربلاء

المحاضرة الثانية : النهضة الحسينية ملحمة مقدسة

المحاضرة الثالثة : النهضة الحسينية وتبلور الشخصية المستقلة

للمجتمع الاسلامي

المحاضرة الأولى

وجهان لواقعة كربلاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين بارئ الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه سيدنا ونبيّنا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ يا قوم إن كان كَبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمةً ثم اقضوا إلي ولا تنظروا ﴾ ^(١) .

إنّ موضوع بحثنا هو الملحمة الحسينية أو (الحماسة الحسينية) ولا بد لي أولاً من توضيح كلمة الحماسة التي تستخدم كثيراً في اللغة الفارسية .

إن كلمة الحماسة تعني : الشدة والصلابة ، وفي أحيان أخرى يمكن استخدامها بمعنى الشجاعة والحمية . إنّ أهل الأدب ، والمتخصصين في شؤون شعر ، يُقسّمون أنواع المنظومات الشعرية ، من حيث المحتوى والجوهر وإهدف ، إلى أقسام مختلفة : فهناك المنظومة الغنائية أو الغزلية ، وهناك المنظومة

(١) سورة يونس : الآية ٧١ .

الحماسة ، كما هناك المنظومة الرثائية ، إضافة إلى شعر الحكمة والمديح وغير ذلك من أنواع الشعر المختلفة . فدواوين سعدى وحافظ وشمس تبريزي مثلاً يمكن اعتبارها من القسم الغزلي أو الغنائي للشعر . صحيح أنّ أهداف الكامن وراء هذه الأشعار هو العرفان إلا أنها على الأقل ظاهرياً تُعطي طابعاً غزلياً في أسلوبها ونسيجها الشعري من حيث إنها تتحدث عن التشبيب ، واللغة المستخدمة فيها هي لغة العُشاق ، والحديث فيها لا يتم إلا عن جمال المحبوب أو عدم اكتراثه بالحبيب ، وألم الفراق ، وطول ليله ، وقصر أيام الوصال ، إلى ما هنالك من تعابير غزلية يزخر بها الشعر الفارسي عموماً ؟ . . .

أما الشعر الرثائي ، الذي غالباً ما ينظم بشأن الأئمة والشخصيات الدينية والإصلاحية البارزة في مختلف المجتمعات ، تلك الشخصيات التي تكون منشأ للخير والبركة ، فهو نوع آخر من الشعر .

بعد انقراض البرامكة مثلاً خرج من بينهم عددٌ لا بأس به من الشعراء الذين عملوا معهم في السلطة ، وصاروا يرثونهم بعد ذلك بشعر رثائي خاص . الشاعر الإيراني الشهير « حافظ » هو الآخر تراه يرثي ابنه بمراثيه متميزة . .

إنّ شعر الرثاء كثير كذلك ، وأما شعر المديح والتمجيد فإنه إلى ما شاء الله كثير لا سيما شعر التملق والمراعاة !!

لكن الشعر الحماسي شعر من نوع آخر ، وهو الشعر الذي عادةً ما يتطلب موسيقى ولحناً خاصاً ، إنّ الشعر الحماسي هو ذلك الشعر الذي تفوح منه رائحة الغيرة والشجاعة والحمية والرجولة . إنه الشعر الذي يحرك الروح ويبهجها ويثيرها .

إنّ هذا التقسيم لا يختص بالشعر فقط . إنه تقسيم أدبي عام ينطبق على النثر أيضاً ، فهناك النثر الحماسي والنثر الغزلي ونثر المديح والرثاء إلى غير ذلك من أنواع النثر .

في حرب صفين وعندما كانت المواجهة لا تزال في أولها بين جيش علي (ع)

وجيش معاوية ، فإنّ علياً (ع) لم يكن يريد أن يكون البادىء بالحرب وكان يذلّ قصارى جهده ليحل المشاكل القائمة بين الطرفين بقدر المستطاع بالحسنى على أمل أن يعود بمعاوية وأصحابه إلى رشدهم ، ويصدهم عن غيهم . لكنه فوجئ بجيش معاوية وقد بادر إلى قطع الطريق على جيشه وحاصر شريعة الماء مما دفع به إلى تكثيف الجهود الرامية إلى حل الإشكالات القائمة ، عن طريق المفاوضات ولما يئس من إمكانية قبول الطرف الآخر فإنّه صار على مفترق طرق بين أن يموت جيشه من العطش وبين أن يواجه الحرب التي فرضها عليه العدو بحرب أشد منها وعندها توجه إلى أصحابه يستشيرهم ويُسئلهمهم .

وكما جاء في (نهج البلاغة) فإنّ علياً (ع) هنا تراه يقف أمام الجمع من أنصاره حائفاً شديد التأثير ويوجه لهم خطبة حماسية يقول فيها :

« قد استطعموكم القتال . . . فأقروا على مذلة وتأخير محلة أورووا السيوف من الدماء ترووا من الماء ! . . . فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين » (١) .

لقد استطاع علي (ع) من خلال خطبته الحماسية هذه أن يُبيح المشاعر في جنده ويُعَبِّثهم تعبئةً نفسيةً كان تيجتها طرد العدو من شريعة الماء في فترة لم تتجاوز الساعتين والسيطرة على الفرات . لكن علياً (ع) أمر جنوده أن يتركوا المجال مفتوحاً لجند معاوية للوصول إلى الماء لأخذ ما يحتاجونه يومياً . ولما اعترض جنده عليه وطالبوه بقطع المياه عن العدو كما قطعوها عنهم عندما كانوا مُسيطرين عليها أجابهم علي (ع) بأنّ الماء حق طبيعي من حقوق كل الأحياء وقطع الماء عن الآخرين عمل غير إنساني ، ولا تقوم به .

وبناءً عليه يتبين أنه من الممكن للحديث أن يكون حديثاً حماسياً . والحديث الحماسي يعني الحديث الذي تفوح منه رائحة الغيرة والشجاعة والرجولة ، حديث مُشبع بالصمود والمقاومة ، وعندما يكون الشعر أو النثر مطبوعاً بهذه الخصوصيات عندها ندعوه بالأدب الحماسي .

(١) نهج البلاغة -فيض الإسلام- المجلد ٥١ ، ص ١٣٨ .

المذكرات والحوادث التاريخية والقصص والحكايات أيضاً يمكن تقسيمها بهذا الشكل ، فهناك الحوادث الغزلية وهناك الوقائع التي يأخذ منها الإنسان العبر والدروس ، وهناك الحوادث الرثائية والأخرى الحماسية وغير ذلك . فالرواية الغزلية المطلقة مثلاً تراها تفوح برائحة الغناء والغزل والعشق . انظروا إلى المجلات المنتشرة في بلادنا سترونها جميعاً لا تكتب ولا تنقل لكم سوى القصص والروايات الغزلية لا فرق إن كانت تعبر عن الواقعية أو الخيالية أو خليط من الواقع والخيال ولا أدري ما الفائدة من وراء كل هذا الأدب الغنائي والغزلي^(١) .

القصص الرثائية أيضاً كثيرة هي الأخرى وهي المعروفة في هذه الأيام (بالتراجيديا) ، فلو طالعت صفحات الجرائد اليومية ستجد أغلب ما ينشر فيها هو من هذا النوع المذكور .

وهناك قصص المواعظ والحكم أيضاً وهي قصص ترمي إلى أخذ العبر والدروس من التاريخ والماضي ، والقصص الحق (داستان راستان)^(٢) ، مثلاً يمكن اعتبارها من هذا النوع من القصص . الشخصيات الاجتماعية والتاريخية أيضاً يمكن تقسيمها بهذا الشكل ، فهناك من الشخصيات من يمكن نعتها بالشخصيات الحماسية وهي الشخصيات التي يملأ روحها الحماس . فيما ترى البعض الآخر يملأ روحها الغزل والغناء . وأخرى ترى روحها أساساً روح عزاء ورتاء وهي تن وتنوح على الدوام ، وهناك من ترى شكل روحه وكأنها خلقت لتكون موعظة وعبرة للآخرين .

الآن وبعد أن أدركنا معنى الحماسة بالإجمال نستطيع البحث حول معنى الحماسة الحسينية .

فهل يمكن اعتبار واقعة الحسين بن علي (ع) واقعة حماسية ؟ وهل يمكننا تسمية الحسين بن علي (ع) بالشخصية الحماسية أو لا ؟ لا بد لنا من معرفة

(١) الشهيد هنا يشير إلى مجلات المعهد البائد .

(٢) كتاب في مجلدين تأليف الشيخ مطهري نفسه .

شخصية الحسين بن علي (ع) تلك الشخصية الإنسانية الكبرى بالنسبة لنا . فهذا الرجل الذي نصرّف كلّ تلك الأموال من أجله ، ونبذل كلّ تلك الجهود والأوقات في سبيله ، ونعطل كلّ تلك الأيام سنوياً باسمه ، لا بد لنا من معرفة سماته وخصوصياته المميزة لشخصيته . ومن جملة ما يجب معرفته هو شخصيته وهل هي حماسية بالفعل ؟ ثم إذا ما كانت واقعة الحسين بن علي (ع) وسيرته تُثير فينا الشعور بالحماس أو الشعور بالتراجيديا والمصيبة والرتاء والضياع ؟

وهنا أرى من الواجب علي أن أقدم توضيحاً :

إن الشخصيات الحماسية والملمحية التي ترد في الغالب في المنظومات الأدبية الحماسية تراها في الواقع ذات طابع عنصري وقومي سواء أكانت من الشخصيات الخيالية مثل رستم وإسفنديار أو شخصيات واقعية مثل جلال الدين خوارزم شاه الواردة أسماؤهم في التاريخ الإيراني . ولما كانت تلك الشخصيات الأسطورية تأخذ شكل البطل التابع لتلك القومية أو ذلك الشعب لا فرق إن كانت شخصية البطل واقعية أو خيالية فإنها تلعب دور المحرك للجماهير تلك القومية . وحسّ تقديس البطل والتعلق ببطولاته جزء لا يتجزأ من طبيعة البشر ، لا سيما إذا كان البطل يرتبط بشكل أو بآخر بتلك المجموعة التي تريد أن تفتخر به .

خذ مثلاً أبطال المصارعة الذين يفوزون في المباريات فإن الجمهور يُبدي لهم فعلاً إحساسات فائقة أو أولئك الأبطال الذين يرفعون الأثقال ويتجاوزون الرقم القياسي العالمي ، فإن جمهور المحبين يصنع لهم تيجاناً من الزهور أو أولئك الأبطال من رجال المصارعة والملاكمة الذين يصرعون منافسيهم بضربة فنية رائعة ترى أن الجمهور المتعلق بهم يتألق حماساً وزهواً بانتصاراتهم .

إن هذا لم يكن ليحصل لولا أن حسّ تقديس البطل وحب البطولة جزء من طبيعة البشر ، وبالتالي فإن كلّ قوم يُشجّع أبطاله الخاصين به . ففي المباريات الدولية مثلاً ترى أن أفراد كلّ قوم ، سواء الحاضرون منهم للمباريات ، أو الذين يتابعونها على أجهزة (الراديو) ، يشدهم الحماس لتشجيع البطل القومي الذي

سيأتي لوطنه بالفوز والنجاح . ونحن بدورنا هنا عندما نسمع بأساطير رستم وأفراسياب مثلاً ترانا نقف في إحساساتنا إلى جانب رستم لأنه من بلاد إيران بينما لا نتمنى الغلبة لأفراسياب باعتباره من بلاد ما رواء النهر وبالتالي فهو من قوم غير القوم الإيراني . ولا بد هنا من الإشارة إلى أن صانع الأسطورة قد حاك تفاصيلها بشكل يتلاءم مع ذوقنا ورغبتنا أي أن تكون الغلبة باستمرار من نصيب الطرف الإيراني والهزيمة تلحق دوماً بالطرف الآخر . إن مثل هذه الملاحم عبارة عن ملاحم قومية ، وهي ملاحم تخص قوماً أو عرقاً معينين ، ولها علاقة ببلاد وتربة معينة .

بينما ملحمة الحسين (ع) ملحمة من نوع آخر . صحيح أن شخصية الحسين شخصية ملحمة وحماسية ، لكنها ليست كشخصية جلال الدين خوارزمشاه ، وهي ليست شخصية مثل شخصية رستم الأسطورية أيضاً . إن الحسين بن علي (ع) شخصية ملحمة بالفعل لكنها ملحمة الإنسانية ، ملحمة البشرية وليس ملحمة قومية . إن حديث الحسين (ع) وعمله وواقعه وروحه وكل شيء فيه عبارة عن غليان وحركة ودرس وعبرة وتدفع للقوة . ولكن أي تدفق للقسوة ؟ وأي نوع من الدروس والعبر ؟ ألا أنه ينتسب إلى قومية معينة مثلاً ؟ ! لأنه شرقي مثلاً ؟ أو لأنه عربي أو غير عربي ؟ أو كما يقول بعض الإيرانيين بأن زوجته إيرانية ؟ !

إن ملحمة الحسين (ع) لا يمكن لها أن تكون من هذا النوع من الملاحم لأنه شخصية مختلفة تماماً وسبب جهلنا له يكمن في هذه النقطة تماماً . لأن ملحمة فوق الملاحم لذلك لا ترى إلا القليل ممن يقدر على معرفته .

إنك لن تجد في العالم كله شخصية ملحمة مثل شخصية الحسين بن علي (ع) إن من زاوية سمو جوانبها الحماسية ، أو من زاوية علوها وارتفاعها أي من زاوية جوانبها الإنسانية ، وليس الجانب القومي أو الوطني . إن الحسين (ع) نشيد الإنسانية ولهذا فهو ليس له نظير . وأقولها بكل جرأة ، نعم ليس له نظير ولا ند .

إنك لن تجد ملحمة حماسية مثل ملحمة الحسين بن علي (ع) سواء على صعيد درجة القوة والطاقة الكامنة أو من جهة العلو والسمو الإنسانيين وللأسف يجب القول بأننا لم نعرف بعد هذه الملحمة .

إن واقعة عاشوراء ومعركة كربلاء لها وجهان ، وجه أبيض ونوراني والآخر مظلم وأسود قاتم السواد وكلتا الصفحتين إما لا نظير لهما أو نادرتان جداً . أما الصفحة السوداء والمظلمة فإنها كذلك لأنها عبارة عن جريمة نادرة أو لا نظير لها أبداً .

لقد فكرتُ مرة بدرجة وحجم الجريمة المرتكبة في عاشوراء فرايت أن واحداً وعشرين نوعاً من أنواع الرذالة واللؤم قد ارتكب كحد أدنى في هذه الواقعة ولا أعتقد أن هناك واقعة أخرى في الدنيا يمكن لها أن توازي مثل هذه الواقعة في حجم تنوعها . بالطبع يوجد هناك في تاريخنا الحروب الصليبية التي لم يترك فيها الأوروبيون مجالاً للتعجب عندما يُنظر إلى سواها من حوادث التاريخ الإجماعي . وإذا كنتُ قد ترددت في الادعاء بعدم وجود شبهة لحادثة كربلاء من ناحية حجم الجريمة فالسبب إنما يعود لحجم الجريمة التي ارتكبتها الغربيون في المعارك الصليبية وكذلك الجرائم التي ارتكبتها هؤلاء الأوروبيون أنفسهم في الأندلس الإسلامية وهي عجيبة للغاية . وفي هذا المجال أدعوكم للرجوع إلى كتاب « تاريخ الأندلس » للمرحوم آيتي المطبوع من قبل جامعة طهران وهو كتاب تحقيقي نفيس .

يقول المؤلف في هذا الكتاب : « إن الأوروبيين كانوا قد سمحوا لمائة ألف من الرجال والنساء والأطفال أن يخرجوا من منازلهم ويتوجهوا حيث يشاؤون ولكنهم ما أن تحركوا بشكل جماعي حتى نقض الأوروبيون العهد وربما كانت الخطة خدعة مدبرة من الأساس للإيقاع بهم . على أي حال فإنه ما أن تحركت الجموع حتى صدرت الأوامر بارتكاب المجزرة وقطع رؤوس الجميع بعد تفتيلهم شر قتلة ، .

إن الشرق لن يصل في حجم جرائمه إلى الغرب . إنك لو طالعت تاريخ

الشرق كله بما فيه التاريخ الأموي فإنك سوف لن تعثر على هذين النوعين من الجرائم وهي حرق البشر وهم أحياء والثانية ممارسة القتل الجماعي للنساء لكنك ترى مثل هذا النوع من الجرائم في تاريخ الغرب يتكرر باستمرار . إنَّ قتل النساء أمر شائع في تاريخ الغرب . لا تصدقوا بأن الغربيين يملكون روحاً إنسانية في داخلهم . إنَّ ما جرى في فيتنام يُشكل امتداداً لروح الحروب الصليبية ومعارك الأندلس . إنَّ قتل مئات الألوف من الناس وهم أحياء من خلال رميهم في أفران الغاز حتى وإن كانوا مجرمين أمر لا يفعله الإنسان الشرقي ، ولا يمكن لمثل هذه الجريمة أن تحصل على يد الشرقيين . إنَّ هذا العمل لا يحصل إلّا على يد غربي القرن العشرين فقط .

إنَّ جريمة ترك عشرات الألوف من الأسرى يموتون في صحراء سيناء من الجوع والعطش خوفاً من تبعات أسرهم عمل لا يصدر إلا من الغرب والغربيين . إنَّ الشرقي لا يرتكب مثل هذه الجريمة . إنَّ اليهودي الفلسطيني أشرف من اليهودي الغربي مائة مرة . لو كانت المعركة تدور مع يهود فلسطين المحليين لما ارتكبت مثل هذه الجرائم وهي من صنع اليهودي الغربي . على كل حال فإنني لا أستطيع القول بأنَّ جريمة مثل جريمة كربلاء لم تقع ولن يقع مثلها في العالم لكنني أستطيع القول بأنها لا مثيل لها في العالم الشرقي .

من هذه الزاوية يمكننا القول بأنَّ واقعة كربلاء تمثل مأساة كاملة ، ومصيبة عظيمة ، وملحمة رثائية . وعندما نتفحص في هذا الوجه منها نرى قتل الأبرياء والشباب والأطفال الرضع ، وسحق جثث الموقّ بحوافر الخيل ، ومنع المياه عن الإنسان ، ومعاقبة النساء والأطفال بجريمة آبائهم وأزواجهم ، وتعذيب الأسرى من خلال إجبارهم على ركوب الجمال وهي عارية من سروجها الخ ، فمن هو بطل الواقعة من وجهة النظر هذه ؟

إنَّه لأمر واضح هنا بأنَّ البطل من هذه الزاوية الجنائية ليس ذلك الذي يتحمل الضربات فهو لا شك المظلوم في هذا الجانب . إنَّ بطل الواقعة من هذه الزاوية هو يزيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد وشمر بن ذي

الجوشن وخولي وآخرون ، ولذلك فإننا عندما نطالع الصفحة السوداء من هذا التاريخ سنرى صورة الجريمة والرتاء فقط لعالم البشرية . فلو أردنا قول الشعر هنا ماذا علينا أن نقول ؟ علينا أن نقرأ المنظومات الرثائية ولا نجد شيئاً نقوله سوى الرثاء .

ولكن هل إن تاريخ عاشوراء هو هذه الصفحة فقط ؟

هل إن عاشوراء عبارة عن رثاء فقط ؟ هل هي مصيبة وليست شيئاً آخر ؟

إنَّ خطانا هنا بالذات ، حيث هذه الواقعة لها صفحة أخرى بطلها هذه المرة ليس ابن معاوية وليس ابن زياد وليس ابن سعد ولا الشعر . بطلها هنا هو الحسين (ع) . وفي هذه الصفحة ليس للجريمة مكان ولا مكان للمأساة أيضاً ، إنها صفحة الحماس والملاحم والفخر والنورانية وتجلي الحقيقة والإنسانية وتقديس الحق ، وعندما نقرأ هذه الصفحة نستطيع القول بأنَّ من حق البشرية أن تطير من الفرح . لكننا عندما نطالع تلك الصفحة المظلمة نرى أن البشرية قد نكست رأسها خجلة مفضوحة وهي ترى نفسها مصداق الآية الشريفة : ﴿ قالوا أتعجل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونُقَدِّس لك ﴾ (١) .

من الطبيعي أنه ليس الملك جبرائيل الذي يسأل الله سبحانه وتعالى هذا السؤال عندما سمع ربه يقول : ﴿ إني جاعلٌ في الأرض خليفة ﴾ (٢) . بل إنهم أولئك القسم من الملائكة الذين كانوا لا يرون إلا ذلك الوجه المظلم للبشرية عندما غاب عن أنظارهم ذلك الوجه الآخر المشرق ، لكن الله - سبحانه وتعالى - يردُّ عليهم قائلاً : ﴿ إني أعلمُ ما لا تعلمون ﴾ (٣) .

إنَّ تلك الصفحة التي اعترض عليها الملائكة يكون فيها البشر مُنكبي الرؤوس بينما تلك الصفحة الأخرى يكونون فيها رافعي الرؤوس فخراً ؛ فلماذا ترانا لا نطالع ولا نتحدث عن واقعة كربلاء إلا من زاوية صفحتها السوداء المظلمة فقط ؟ ولماذا لا نتحدث إلا عن جرائم كربلاء فقط ؟ ولماذا لا نطالع

(١) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

شخصية الحسين بن علي إلا من زاوية كونه مُعتدًى عليه ؟ ولماذا لا نرفع من الشعارات باسم الحسين إلا تلك المأخوذة من صفحة عاشوراء المظلمة ؟ لماذا ترانا نُقلِّل من أهمية تلك الصفحة النورانية من واقعة كربلاء في الوقت الذي نعلم فيه أن الجانب الحماسي لهذه الواقعة يُعادل مائة مرة الجانب الجنائي والمأساوي فيها ، وأن الوجه النوراني لهذه الواقعة يفوق بكثير وجهها المظلم .

لذلك يجب علينا أن نعتز بأننا في عداد الجناة المساهمين في جريمة واقعة كربلاء حيث إننا لا نقرأ إلا صفحة واحدة ولا نرى إلا وجهاً واحداً من وجوه الواقعة وبالتالي فإننا مساهمون في عملية التحريف وكل من يساهم في حرق معركة كربلاء عن أهدافها الحقيقية يمكن اعتباره من الجناة بحق الإمام الحسين (ع) .

لقد تم قتل الحسين (ع) في يوم واحد وفي ذلك اليوم أيضاً فصلوا رأسه عن جسده ، لكنه ليس جسماً فقط وليس مثلي ومثلك إنه مدرسة تحيا وتكبر بعد موتها .

لقد تصورت أجهزة السلطة الأموية أنها بقتلها للحسين (ع) قد أجهزت عليه ، وأنهت وجوده وتأثيره ، لكنها أدركت فيما بعد بأن الحسين (ع) ميتاً يناقشها أكثر مما هو حياً ، فقد أصبحت تربة الحسين كعبة العاشقين ، وقد قالت زينب عليها السلام ليزيد نفس هذا الكلام : «فَكَيْدُكَ وَاسِعٌ سَعِيكَ وَنَاصِبُ جَهْدِكَ فَوَاللَّهِ لَا تَمَحُو ذِكْرَنَا ، وَلَا تُمَيِّتُ وَحِينَا»^(١) .

إن شعراء الرثاء في ذلك الزمان ليسوا مثل شعراء الرثاء في هذا العصر . «فالكُميت» كان شاعر رثاء وه دعبل الخزاعي « أيضاً كان شاعر رثاء فدعبل الخزاعي مثلاً وهو صاحب القول المعروف بأنه ظل يحمل خشبة إعدامه خمسين عاماً على كتفه ، وكان عندما يُنظم مرثيته تهتز عروش الخلفاء الأمويين والعباسيين لسماحهم لها ، بينما شعراء عصرنا الحاضر يعتبرون أن القدر الحاقد والذهر

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ١٣٥ ، اللهوف ص ٧٧ .

الأعمى هما المسؤولان عن شهادة الحسين (ع) في حين أن الكميت كان يُزلزل الدنيا بقصيدته وهو يرثي الحسين (ع) فيها .

إنَّ اسم الحسين (ع) وتاريخه ومرثيته كانت أسلحة تعبوية آنذاك . حتى قبره الشريف كان بحد ذاته يُشكل مشكلة قائمة بذاتها . لذلك تراهم قرروا هدمه ومحو آثاره . وتسوية الأرض التي دفن عليها ثم رشوا الماء الكثير هناك حتى لا يعرف أحد البقعة التي دفن فيها ولكن ماذا حصل ؟ لقد ازداد توجه الناس والتفاتهم نحو زيارة قبره عليه السلام .

يُحكى أن المتوكل كان يبحث يوماً عن معلمة للغناء والرقص في قصره وأنه بحث في كل مكان عنها فلم يجدها ، ولما ألح في السؤال عنها قالوا له يبدو أنها في سفر ، ولما عادت من السفر ، استدعاها وسألها أين كانت ؟ فقالت له : إنها كانت في زيارة مكة المكرمة . فقال لها بأنَّ الوقت ليس وقت الزيارة إلى مكة وأضاف : فنحن الآن لسنا في ذي الحجة حتى تقولين إنك كنت في الحج ولا في شهر رجب حتى تقولين إنك ذهبت إلى العمرة ! وبعد إلحاح شديد اكتشف أنها كانت في زيارة قبر الحسين بن علي (ع) فاشتعل غضباً وأدرك أنه ليس بالإمكان محو ذكر الحسين (ع) .

من جهة أخرى فأنا لا أعرف من هو المجرم أو المجرمون الجناة الذين ارتكبوا هذه الجريمة بحق الحسين بن علي (ع) عندما حرّفوا هدف نهضة الحسين بقولهم إنَّ الحسين قد عرّض نفسه إلى القتل ليحمل على كتفه ذنوب أمته وهو القول الشائع بين المسيحيين عن المسيح (ع) . فهل أرادوا لأنفسهم من وراء ذلك أن يرتكبوا ما استطاعوا من المحرمات دون خوف أو وجل . وهل كان المذنبون قلائل حتى يزيد عددهم بهذا التحريف ؟! ولذلك ترى أن الوجه الذي يسود معركة عاشوراء بعد هذا الانحراف هو ذلك الوجه المظلم والأسود للمعركة وصرنا لا نسمع إلا الرثاء ولا نسمع إلا المصيبة حول عاشوراء . وأنا لا أقول بعدم ضرورة رؤية وقراءة ذلك الوجه المظلم لكنني أرى أن هذا الرثاء الحسيني لا بد وأن يأتي ممزوجاً بالحماس فعندما يقال بأنَّ رثاء الحسين بن علي (ع) يجب أن

يُخَلَّد فَإِنَّ ذَلِكَ حَقِيقَةُ نَطَقِهَا رَسُولُ اللَّهِ (ص) وَأَوْصَى بِهَا أَثْمَتْنَا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

إِنَّ هَذَا الرِّثَاءَ وَهَذِهِ الْمَصِيبَةُ يَجِبُ الِاتُّسُّى ، وَهَذِهِ الذِّكْرَى يَجِبُ أَنْ تَنْظَلَ خَالِدَةً وَلَا بَدَلَنَا مِنْ إِبْكَاءِ النَّاسِ عَلَيْهَا بِاسْتِمْرَارٍ وَلَكِنْ فِي رِثَاءِ الْبَطْلِ .

إِذَا لَا بَدَلَنَا أَوَّلًا مِنْ تَثْبِيتِ شَخْصِيَةِ الْحُسَيْنِ (ع) الْبَطْلَةِ فِي أَذْهَانِنَا ، وَمِنْ ثَمَّ نَجْلِسُ لِنَرْثِيهِ فِي ذِكْرِهِ ، نَرْثِيهِ بَطْلًا وَإِلَّا فَإِنْ رِثَاءَ رَجُلٍ مُسَكِّنٍ مُسْتَكِينٍ مُظْلُومٍ لَا حِيلَةَ لَهُ وَلَا يَدَ فِيهِ جَرَى وَيَجْرِي فِي التَّارِيخِ أَمْرًا لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَكَاءٍ وَلَا مَعْنَى لِبَكَاءِ الْأَمَةِ عَلَيْهِ .

ابْكُوا الْبَطْلَ وَأَقِيمُوا مَجَالِسَ الرِّثَاءِ وَالْعَزَاءِ لِلْبَطْلِ حَتَّى تَوَلَدُوا إِحْسَاسًا بِالْبَطُولَةِ وَالشَّجَاعَةِ فِي أَنْفُسِكُمْ وَاجْلِسُوا فِي رِثَاءِ الْبَطْلِ عَسَى أَنْ تَعْكَسَ ظِلَالُ رُوحِ الْبَطْلِ عَلَى أَرْوَاحِكُمْ وَتَزْدَادَ غَيْرَتُكُمْ نَجْمَ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ وَتَنْذَرُوا أَنْفُسَكُمْ لِلْعَدَالَةِ وَتَصْبَحُوا مِنَ الْمُقَاتِلِينَ ضِدَّ الظُّلْمِ وَالظَّالِمِينَ وَتَصْبَحُوا أَحْرَارًا وَتُقَدَّرُوا مَعْنَى الْحُرِّيَةِ . اجْلِسُوا فِي رِثَاءِ الْبَطْلِ حَتَّى تَعْرِفُوا مَعْنَى عِزَّةِ النَّفْسِ ؟ وَمَا مَعْنَى الشَّرَفِ وَالْإِنْسَانِيَةِ ؟ حَتَّى تَعْرِفُوا مَا مَعْنَى الْكِرَامَةِ ؟

نَحْنُ إِذَا مَا قَرَأْنَا وَطَالَعْنَا الْوَجْهَ النُّورَانِيَّ لِلتَّارِيخِ الْحُسَيْنِيِّ فَلَمَّا عِنْدَ ذَلِكَ نَتِمَكَّنُ مِنَ الِاسْتِفَادَةِ مِنَ الْوَجْهِ الرِّثَائِيِّ لِلْمَوَاقِعَةِ ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْوَجْهَ الرِّثَائِيَّ لَوَحْدِهِ لَا فَائِدَةَ تَذَكُّرٍ مِنْهُ ، فَهَلْ تَتَصَوَّرُونَ أَنَّ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ جَالِسًا بِانْتِظَارٍ مِنْ يَأْتِي لِيَشْفَقَ عَلَيْهِ ، أَوْ الْعِيَاذُ بِاللَّهِ أَنَّ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ (ع) وَهِيَ الَّتِي تَسْكُنُ إِلَى جِوَارِ رَحْمَةٍ رُبَّمَا تَنْتَظِرُ مِنْ يَأْتِيهَا مِنْ أَمْثَالِنَا نَحْنُ صَغَارُ الْبَشَرِ لِيُؤَسِّسَهَا وَيُخَفِّفَ مِنْ مَعَانَتِهَا بِعَزَاءِ الْحُسَيْنِ (ع) بَعْدَ مَرُورِ أَكْثَرِ مِنْ أَلْفِ وَثَلَاثِمِائَةِ عَامٍ عَلَى تِلْكَ الْفَاجِعَةِ !! .

قَبْلَ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ مَضَتْ قَرَأْتُ كِتَابًا حَاوَلَ مُؤَلِّفُهُ مُقَارَنَةَ شَخْصِيَةِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ (ع) وَعِيسَى الْمَسِيحِ النَّبِيِّ (ع) ، وَهُوَ يَرَى أَنَّ عَمَلَ الْمَسِيحِيِّينَ أَفْضَلَ مِنْ عَمَلِ الْمُسْلِمِينَ (الشَّيْعَةِ) ذَلِكَ أَنَّ الْمَسِيحِيِّينَ يُحْتَفَلُونَ بِذِكْرِ شَهَادَةِ عِيسَى الْمَسِيحِ وَيُفَرِّحُونَ لِحُلُولِهَا بَيْنَنَا يَسْتَقْبِلُ الْمُسْلِمُونَ شَهَادَةَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ (ع) بِالرِّثَاءِ وَالْبَكَاءِ ، كَمَا أَنَّهُ يُرْجَحُ عَمَلَ الْمَسِيحِيِّينَ كَثِيرًا عَلَى عَمَلِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حَيْثُ إِنْ

المسيحيين يرون في شهادة عيسى المسيح رمزاً للتوفيق والنجاح وليس للفشل والانكسار ولذلك تراهم يفرحون ويحتفلون بهذا النجاح .

في حين أن المسلمين يرون في الشهادة رمزاً للانكسار والفشل ولذلك تراهم يكون على هذا الفشل الذي أصابهم . فمستعداً لآمة ترى الشهادة رمزاً للموفقية والنجاح وتعباً لآمة ترى الشهادة ذلاً وانكساراً وأمرأ يحتاج إلى الرثاء والبكاء .

والجواب على ذلك أولاً : إنَّ عالم المسيحية هذا إنما يحتفل بهذه الشهادة انطلاقاً من العقيدة الخرافية التي تقول بأن عيسى قد قُتل حتى يُكفَّر عن ذنوب الآمة ولَمَّارات أنها قد خُفَّت أثقالها بناءً على ذلك فإنها ترى ضرورة الاحتفال بنجاتها وخلصها وتحررها من محاسبة الضمير وتأنيب الذات ! وهذه خرافة خرقاء .

وثانياً : إن هذا هو الفرق بين الإسلام والمسيحية المحرَّقة حيث إن الإسلام دين اجتماعي بينما المسيحية دين لا يتعدى شأنه الشأن الأخلاقي .

من جهة أخرى فإنه يمكن النظر إلى الحوادث مرةً من الزاوية الفردية وأخرى من الزاوية الاجتماعية . فمن وجهة النظر الإسلامية نعتبر شهادة الحسين بن علي نوعاً من النجاح على الصعيد الفردي . فهل كانت الشهادة لشخص الحسين بن علي (ع) تعبيراً عن الفشل عن الموفقية والنجاح ؟ إن كل مسلم يقول بأنها رمز للنجاح . والحسين نفسه يراها كذلك منذ اليوم الأول عندما استقبلها قائلاً : « خُطَّ الموت على ولد آدم نَحْطُ القلادة على جيد الفتاة ، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف »^(١) .

ومن وجهة نظر كل إنسان ومن وجهة نظر الشهيد نفسه نعتبر الشهادة رمزاً

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٦٦ . اللهوف ص ٢٥ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٥ . كشف الغمة ج ٢ ص ٢٩ .

للموفقية ولا يحتاج الأمر إلى شهادة المسيحية في ذلك . فقبل (١٣٥٠ عاماً) مضت رآها أسلافنا وقادة ديننا كذلك أيضاً . ها هو علي بن أبي طالب (ع) نفسه يقول وهو يستقبل الموت : « والله ما فجأني من الموت وإرد كرهته ، أو طالع أنكرته ، وما كنتُ إلا كقارب وردٍ وطالب وجدٍ . . . » (١) .

كان هذا من زاوية وجهة النظر الشخصية والفردية للحدث ، لكن الإسلام له جانبه ويعدّه الآخر في رؤيته للحدث فالفقضايا والأحداث المختلفة لا يراها الإسلام في سياق التحليل الفردي والشخصي فقط بل إنه يضعها أيضاً في سياق المطالعة الاجتماعية . إن واقعة عاشوراء من الناحية الاجتماعية من زاوية العمل الجنائي الذي تم ارتكابه تعتبر مظهراً من مظاهر الانحطاط في المجتمع الإسلامي . ولذلك ينبغي التذكير بها دائماً لكل أفراد الأمة حتى لا يتم تكرار مثل هذه الجرائم . إنها تشبه (الحسرة) وه الآه ، التي تطلقها الأمة باستمرار حتى تقول : أحقاً نحن المسلمين قد ارتكبنا مثل هذا الحادث ؟! ألا لعنة الله على من ارتكب مثل هذه الجريمة وأنه غير مسموح لنا بتكرار مثلها بعد الآن ! ثم بالإضافة إلى ذلك فإن مثل هذه المجالس التي نقيمها ، نحن بحاجة إليها من أجل صقل الأحاسيس الإسلامية والإنسانية لدى شعوبنا . ولكن بالطبع بشرط أن ندرك ما نقوم به . واليوم نحن بحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى تصحيح شؤوننا الدينية وإجراء الإصلاحات اللازمة عليها وطبيعي أن المقصود في الإصلاح هو منهج تفكيرنا وطريقة تعاملنا وتعاطينا مع الشؤون الدينية وليس الدين نفسه فأخطأنا لا يمكن حسابها على الدين . . . (٢) .

(١) بحار الأنوار ج ٤٢ ص ٢٥٤ . نهج البلاغة فيض الإسلام . من خطبة له عليه السلام قبل رحيله إلى عالم الآخرة وهي أشبه بالوصية ص ٨٧٥ .

(٢) نأسف هنا لأن نعمة حديث الشهيد لم ترد في شريط التسجيل .

المحاضرة الثانية

النهضة الحسينية ملحمة مقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيه سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُون ﴾ (١) .

قلنا إنّ الحديث الحماسي والشعر أو المنظومة الشعرية الحماسية تولد في الروح الإنسانية غلياناً واندفاعاً عجيبيين باتجاه النضال والمقاومة والصمود والدفاع عن العقيدة ، وإنّ الشخصية الحماسية يملكها ذلك الإنسان الذي ينبعث من روحه مثل تلك التموجات ، أي إنّ روحه تموج فيها إحساسات العظمة والغيرة والحمية والشجاعة بالإضافة إلى حس الدفاع عن الحقوق الإنسانية والعدالة .

ثم إننا عرضنا لحادثة عاشوراء التاريخية وجهين ، وجهاً يمثل تلك الصفحة

(١) سورة يونس : الآية ٧١ .

السوء والمظلمة أو معرض الجريمة البشرية والفعل الجنائي الخطير للغاية الملازم للظلم والعدوان اللذين لا حصر ولا حد لهما . واستناداً إلى هذا الوجه الأسود فإن روايتنا الجنائية هذه لها أبطالها الذين يُثّلون دور الأبطال الجُناة وهم ابن معاوية وابن زياد وابن سعد وعدد آخر من الجناة من أبطال هذه القصة والواقعة الجنائية . لكن هذه الرواية ليست مظهراً للجريمة فقط أي إنّ روايتنا ليست ذات وجه واحد بل ذات وجهين .

فالقصة لا تنتهي عند ذلك العمل الإجرامي الذي ارتكبه عدد من الجناة ضد جمهور من الأطهار والأبرياء ، نعم فهناك في التاريخ قصص ليس لها إلا بُعد واحد هو البعد الجنائي وهي القصص المملوءة بالجريمة فقط لا غير . مثال ذلك قصة ولدي مسلم بن عقيل القاصرين والتي تلخّص في عثور أحد الجُناة عليهما في أحد المخابئ أثناء فرارهما من ملاحقة قتلة أبيهما من جماعة ابن زياد ، ثم قتله لهما طمعاً في الحصول على المكافأة المالية الموضوعة للجاني . فنحن إذ نقرأ قصة هذين الطفلين نرى أن أحد وجوهها هو الجريمة بينما في وجهها الآخر صورة طفلين بريئين قاصرين غربيين ارتكبت بحقهما جريمة بشعة وهما غير قادرين على الكلام أو ممارسة عمل يدفع الجريمة ، باعتبارهما كانا لم يتجاوزا سن البلوغ بعد .

إنّ هذه القصة قصة جنائية محضة وهي كذلك أيضاً من ناحية الطفلين إذ هي بالنسبة لهما لا تولد إلا الرثاء والمصيبة والمظلومية . بينما قصة كربلاء ليست كذلك أبداً .

إنّما قصة ذات وجهين وجهها الآخر هو الوجه الأكثر قابلية للمطالعة والدرس والتحقيق . إنّ وجهها الآخر له صفة إيجابية واضحة وصورة نشطة وفعالة ، فهو استعراض مشير للعظمة وسموّ البشرية ورفعتها . وتصوير رائع للمعالي والمكارم الإنسانية . ووجه طافح بالحماسة والعظمة والشجاعة . إنه أمواج المطالبة بالحقوق وتقديس الحق . ومن هذا الجانب يصبح أبطال القصة غير ابن معاوية وابن زياد وابن سعد بل إن البطل أو الأبطال هذه المرة هم الحسين بن علي والعباس بن علي وأختهما زينب (عليهم السلام) وإلى جانبهم

عدد لا بأس به من الرجال المُضحين الأفاضل الذين يُمجِّدُهم الحسين (ع) أفضل تمجيد وهو الإمام الذي لا يقبل ولا يرضى لكلامه أن تشوبه شائبة المبالغة أو التهويل .

نعم فالإمام الحسين (ع) حتى أصحابه ومُجِّدُهم في ليلة العاشر من محرم ، إنه لم يصفهم بمجموعة من الأبرياء المساكين الذين سيقتلون غداً وتنقضي آجالهم ، بل إنه قال عنهم (ع) :

«فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي»^(١) ، نعم إنه فضلهم على أصحاب النبي (ص) الذين حضروا بدرأ إلى جانب جده ، على أصحاب أبيه علي (ع) وعلى أعوان الرسل وأنصارهم الذين ذكرهم القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا هُنَا إِلَّا أَصَابُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾^(٢) .

أي إنه يعترف لهم جميعاً بأنهم نعم الأبطال ، وهو قد بدأ حديثه معهم بقوله : « مرحباً ، مرحباً بجماعة الأبطال » . وبناءً عليه وبعد أن فهمنا أنَّ هذه القصة لها وجهان نريد الآن أن نقرأ الوجه الآخر ونعترف بأننا أخطأنا في الماضي عندما تناولنا جانباً واحداً فقط من تلك القصة وكُنَّا نضع الجانِب الآخر مسكوتاً عنه في الأعم الأغلب . أي إننا كنا ولا زلنا لا نعرض إلا بطولات الجُناة من أمثال يزيد بن معاوية وابن زياد وعمر بن سعد .

إنني في الحقيقة أكنُ تقديراً بالغاً لهذه المجموعات الحسينية^(٣) لأنها بعملها هذا تريد إبراز أحاسيسها وهي الأحاسيس الطبيعية والصادقة مائة بالمائة والنابعة

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٩٢ ، إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣١ ، أعلام الوري ص ٢٣٤ ، مقتل الحسين للمقدم ص ٢٥٨ ، تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٣٨-٢٣٩ ، الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٢٤ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٤٦ .

(٣) يقصد الشهيد هنا تلك المجموعات التي تلطم على الصدور وتضرب بالسلاسل الحديدية على ظهرها في عزاء الحسين (ع) .

من الإيمان والتمسك بالعقيدة . إن أولئك الذين يُدركون مدى أهمية وجود الأحاسيس الطبيعية التابعة من الإيمان والعقيدة حول أبطال الأمة العظام يعرفون ما أريد قوله هنا ، ولا يجوز لنا إلغاء مثل هذه المظاهر الحسينية كما لا ينبغي إعلان الحرب على مثل هذه الأعمال بل علينا إصلاح هؤلاء وتوجيههم . وإصلاح مثل هذه الأحاسيس العظيمة والعظيمة جداً التابعة من محض التمسك بالعقيدة والإيمان . إنك لو صرفت المليارات من الدولارات لما كان باستطاعتك خلق وتكوين مثل هذه المشاعر بين الناس !!

أن يأتي أحدهم ويصرف الأموال من جيبه الخاص ويترك كافة أشغاله ويذهب ليحمل سلسلة حديدية ويضرب بها على ظهره حتى يسود ظهره من شدة الضرب على الحسين (ع) والدمع يسيل على خديه دون انقطاع أمر له قيمة باللغة ولا يجوز محاربه والصاق تهمة الوحشية به . إن إبراز الأحاسيس الصادقة بشأن الأبطال والعظماء في التاريخ ليس عملاً وحشياً . إنه يُخطئ فقط من زاوية كونه بهذا العمل وبهذه الطريقة التي يُبرز بها إحساساته إنما يعرض بطولية الجناة ومظلومية ذلك البطل الذي يعيشه ويتعلق به . إنه لا يعرف ولا يدري بأنه ما دام قد قرر أن يعرض الحادثة فعليه أن يعرض جانب الحماسة والملمحة الحسينية منها، ويبرز للعالم ذلك الجانب النوراني المشرف لتاريخ عاشوراء .

ذلك هو الوجه المتمثل بروح الحسين بن علي (ع) . ولحسن الحظ يمكن القول إن مثل هذا الوعي قد بدأ يظهر وينمو بين الناس وإن الإنسان ليرى بعض المجموعات التي أدركت هذا المعنى وعرفت واجباتها بهذا الخصوص .

إن الرجل الكبير تكون روحه روحاً ملحمية وروح حماسة ، سواء عمل من أجل ذاته أو من أجل شعبه أو من أجل البشرية والإنسانية عامة أو حتى من أجل أهداف تفوق مستوى البشر والإنسانية ذلك عندما يجعل نفسه خادماً للأهداف الكلية للخلق ويسميها رضا الله وبعبارة أخرى عندما يعمل المرء من أجل المسار والمهدف العام الذي وضعه الله سبحانه وتعالى لخلق الذين أنشأهم أحسن الإنشاء فهذا هو طريق رضا الله .

إنَّ الرجل الكبير والعظيم هو ذلك الرجل الذي تسري داخل روحه الحماسة ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، فلولا روح الحماسة الجارية في شخصية الشاه (نادر إفسار) لما استطاع أن يطرد (الأفغان) من إيران ولا فتح الهند وهذه حماسة وملحمة بحد ذاتها . أما القول بأن أفعاله وأعماله قد تحولت إلى فردية وأصبح بالتالي عدواً لشعبه فإنَّ ذلك أمر آخر .

الإسكندر هو الآخر لا بد وأنَّ روح الحماسة كانت سارية كالأمواج في داخل شخصيته . كذلك الأمر مع الشاه إسماعيل الصفوي ونابليون بونابرت .

الإسكندر والشاه نادر والشاه إسماعيل كل هؤلاء عبارة عن إرادة كبرى وهمة عظيمة وحماسة كبيرة وملحمة عظيمة لكنها ليست مقدسة ، ذلك أنَّ كل واحد من هؤلاء كان ينوي توسعة إمبراطوريته الشخصية وتحقيق ذاته من خلال ابتلاع الآخرين وضم الشعوب والممالك الأخرى وإلحاقها بمملكته وبناءً عليه فإنك تراه بطلاً برأي أفراد شعبه مثلاً في نفس الوقت الذي يمثل رمز الجريمة بالنسبة لشعب آخر .

فالإسكندر بطل عظيم برأي اليونانيين لكنه مجرم برأي الإيرانيين . إنه بطل لليوناني لأنه منح العظمة لبلاد اليونان وذلك عندما حطَّم سائر القوى الأخرى وابتلع ثرواتها واستوعب عظمتها جميعاً وضمها تحت لواء علم اليونان . بينما هو برأي الشعوب المغلوبة والمقهورة لا يمكن أن يكون بطلاً . فنبليون بطل من أبطال فرنسا ، ولكنه هل هو كذلك بالنسبة إلى الروس والإنكليز ؟ كلا ، أبداً ، إنَّ هؤلاء جميعاً يمثلون مظهراً من مظاهر الحماسة لكنها الحماسة الفردية والذاتية ، وهي حماسة كبرى وملحمة عظيمة لكنها ملحمة ذاتية عظيمة كذلك . وهم مظهر كبير لعبادة الشخصية وحب الذات (نعم فمقابل حب التسلط الصغير يوجد هناك حب تسلط كبير في الدنيا) لكن هذه الصور الحماسية ليست صوراً مقدسة بتاتاً .

فالحماسة والملحمة المقدسة لها مميزات وصفات أخرى سأعرضها عليكم : إنها مميزات لا يمكن للإسكندر ونبليون أن يصبحا معها مظهراً من مظاهر الحماس

المقدس . فرمز الملحمة المقدسة هو ذلك الشخص الذي تعلو روحه إلى ما فوق ذاته وما فوق العرق القومي الذي ينتمي إليه شعبه والقارة التي تقع فيها بلاده . إنه ذلك الرمز الذي لا يمكن أن يرى شخصه في الميزان ، إنه لا يرى أمامه إلا الحق والحقيقة وإذا لم نشأ التقليل من أهميته ينبغي لنا القول بأنه يرى البشرية أمامه .

فآية الكريمة التالية آية من آيات الحماس . قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ (١) .

نعم ، فالدعوة واضحة ، وصريحة تعالوا يا من تدعون بأنكم أهل الدين ! تعالوا لننسى ذواتنا وأنفسنا وشخصياتنا ولا نرى إلا عقيدة واحدة أمامنا ولنضع أمامنا هدفاً وغاية وفكرة واحدة فقط : « ألا نعبد إلا الله » . ولنغني الاستغلال والاستعباد وعبادة العباد ونطبق العدل والمساواة بين بني البشر . « ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » .

إنه لم يقل : ليتحد قومي وقومك مثلاً ومحارباً قوماً ثالثاً ، فمثل هذا الكلام لا مجال له هنا ، إذاً فإحدى سمات قديسة أي ملحمة هو أن يكون هدفها مقدساً وطاهراً ومنزهاً كالشمس التي تُلقي بأشعة نورها على الكون كله وتشرق بنورها بيوت العالمين جميعاً .

العلامة الثانية لقديسية مثل هذه النهضة والملاحم هي وقوعها في ظروف خاصة للغاية ، أي في ظل أجواء لا يتوقعها أحد على الإطلاق بعبارة أخرى ترى أن أمر حدوثها يشبه انبلاج نور شعلة كبيرة في ظل جو مظلم وقاتم السواد للغاية وهو أشبه ما يكون بنداء العدالة الصارخ بوجه الاستبداد والظلم المطلق ، إنه حركة وسط السكون ، وحالة الرعب السائدة ، وهو ذلك الكلام والخطاب الهادف في ظل جو من الظلمة القاتلة .

(١) سورة آل عمران : الآية ٦٤ .

والمثال على ذلك هو في بروز ظاهرة نمرد وسيطرته على الأجواء قاطبة وإذا بالنهضة المقدسة نهضة إبراهيم عليه السلام تواجه هذه الظاهرة . ﴿ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً ﴾^(١) أو أن يظهر فرعون في ظاهرتة الفرعونية الظالمة . ﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفةً منهم يُذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ﴾^(٢) . لكنه يواجه موسى عليه السلام . أو كما حصل في عصر بعثة خاتم الأنبياء محمد (ص) عندما كانت الدنيا كلها تعيش في الظلام وفي جو من الفوضى والهرج والمرج وإذا بصوت ترعد له السماء يقول : ﴿ قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » .

لقد كانت الدولة الأموية قد عبأت كل القوى والإمكانات إلى جانبها بما في ذلك قوة الدين . وعلى هذا الأساس قامت بشراء ذمم المُحدّثين والرواة من ضعاف النفوس لوضع جملة من الأحاديث لصالح النظام الأموي . حيث يُقال مثلاً إنّ أحدهم قال : ﴿ إن الحسين قُتل بسيف جده ﴾^(٣) والمقصود هنا واضح . فهو يريد القول بأنّ الحسين قد قُتل بحكم دين جده ، ونحن نقول إنّ هذا القول لقول صادق في أحد معانيه ذلك أنّ بني أمية استطاعوا استغلال الإسلام وتحريفه ثم استخدامه في تعبئة جمهور من العامة ممن ضعُف دينهم أو خبا نور إيمانهم حتى اندفعوا لمقاتلة الحسين تحت راية الجهاد المُزيفة . وكما جاء في الحديث : ﴿ كُلُّ

يتقرب إلى الله عز وجلّ بدمه . . . ﴾^(٤) .

بل إنهم تمادوا في غيهم إلى درجة أنهم قاموا ببناء عدة مساجد للتعبير عن شكرهم لله في مساعدته لهم لإنجاز تلك المهمة ! فتصوروا درجة الظلمة والعمّة المحيطة !

في مثل هذه الظروف تنبج الشعلة الحسينية ، وأيّ ظروف ! في ظروف كان

(١) سورة النحل : الآية ١٢٠ .

(٢) سورة القصص : الآية ٤ .

(٣) مقتل الحسين للمقرم ص ٦ والعبارة لأبي بكر ابن أبي العربي الأندلسي في العواصم ص ٢٣٢ .

(٤) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٢٩٨ .

فيها المرء لا يستطيع نقل أي حديث أو جملة حول علي (ع) بل وحتى أي حديث للنبي (ص) يخص علياً (ع) . حيث كان الواحد من شيعته عندما يُريد نقل قضية ما أو خطبة ما عن علي (ع) يذهب بصاحبه إلى مكان مقفل يشبه الصندوق ثم يُغلق الباب بإحكام وبعد أن يُحلف الطرف الآخر الأيمان المُغلظة على أنه لن ينقل هذا الحديث لأي أحد ما لم يكن موثقاً .

أما الميزة الثالثة لقدسية النهضة الحسينية فهي درجة الرشد التي تتصف بها النهضة ، والنظر الشاقب البعيد النظر لصاحب النهضة ، أي إنّ هذه الملحمة والنهضة إنما تتبلور قدسيتهما في صاحب النهضة الذي يرى ما لا يراه الآخرون كما يقول المثل المعروف : « يرى في الأجر ما لا يراه الآخرون في المرأة » .

وهو بالتالي يرى ويلمس آثار حركته إذ إنّ منطقهُ هو فوق منطق الأفراد العاديين في المجتمع ، بل وهو فوق منطق العقلاء من أبناء الأمة . نعم فابن عباس وابن الحنفية وابن عمر وعدد آخر من رجال الجزيرة العربية يطلبون إليه جميعاً بنية خالصة عدم التوجه إلى كربلاء . وكانوا منسجمين مع منطقهم لكن الحسين (ع) كان يرى ما لا يرون . فلا هم كانوا قادرين على إحساس مدى الخطر الذي وصلت إليه الحالة بمقدار حسّ الحسين (ع) له ، ولا كان باستطاعتهم إدراك الآثار الكبيرة التي ستترتب على مثل هذه النهضة في المستقبل ، لكنه عليه السلام كان يرى كل ذلك بوضوح . فهو قد قال عدة مرات : « والله إنهم سيقتلونني والله إنّه يقتلي ستتقلب أوضاعهم رأساً على عقب » . إنّها النظرة الثاقبة لهذا الرجل العظيم .

إنّ الحسين بن علي (ع) عبارة عن روح كبيرة وروح مقدسة ، وعندما تكبر الروح يتعذب البدن الذي يحملها ولكن ما أن تصغر الروح حتى يرتاح البدن ويستقرّ ، وهذا حساب خاص بمحمد ذاته . أن يأتي ابن عباس وغيره وينهوا الحسين (ع) عن الخروج أمر لا يُفيد ، لأنّ روح الحسين (ع) لا تُجيز لصاحبها القعود والسكينة . يقول شاعر العرب الشهير المتنبي :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مُرادها الأجسام^(١)

نعم فعندما تكبر الروح يضطر الجسم لأن يلحق بها ويتبعها وبالتالي يتحمل المشاق معها . لكن الروح الصغيرة هي التي تذهب نحو تحقيق رغبات البدن ، فتصبح طائفة لكل تعليماته ، والروح الصغيرة تراها منهمكة أبداً في تهيئة لقمة العيش للبدن حتى وإن تطلب الأمر الاستعانة بأساليب التملق والخنوع والمراعاة وهي تبحث عن السلطة والمقام حتى وإن تطلب الأمر ارتهان ناموس الإنسان وشرفه وضميره وهي جاهزة لتقبل كل أنواع الذل والتعاسة من أجل الحصول على الثروة والأثاث ووسائل الراحة والترفيه والنوم المستقر الهادئ .

لكن الروح الكبيرة تُطعم البدن خبز الشعير ثم تُنهضه وتقول له : أحي الليل حتى الصباح . إن الروح الكبيرة عندما ترى أي تقصير في أداء الواجب تأمر البدن على الفور بأن يذهب بالرأس إلى داخل التنور حتى يحسّ بحرارته ومن ثم لا يُقصر بعد ذلك في رعاية أمور اليتامى والأرامل^(٢) الروح الكبيرة تجعل صاحبها يطلب من الله أن يُقتل في سبيل الأهداف الإلهية وأهداف الروح الإنسانية الكبرى وعندما ينزل حدّ السيف على فرقته يشكر الله^(٣) . وعندما تكبر الروح لا بد لبدن صاحبها أن يتعرض إلى ثلاثمائة جرح في يوم عاشوراء ، شاء ذلك أم أبى .

وإنّ ذلك البدن الذي تسحقه حوافر الخيل إنما يدفع في الواقع غرامة تلك الروح الكبرى ، غرامة الملحمة ، غرامة تقديس الحق ، غرامة روح الشهيد الصاعد . نعم لقد صدق المتنبّي عندما قال :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسامُ

فعندما تكبر الروح تقول للجسم بأنها تُريد أن تعطي للدم ثمناً وقيمة .
أعرفون من هو الشهيد ؟ ففي اليوم الواحد يسقط الكثيرون قتلى كأن تسقط

(١) ديوان المتنبّي ج ٢ ص ٢٦٧ طبع دار البيان . بغداد .

(٢) إشارة إلى علي عليه السلام وقصته المعروفة مع التنور واليتامى .

(٣) إشارة إلى علي عليه السلام حينما ضربه ابن ملجم وهو يُصلي صلاة الصبح حيث قال عليه السلام

قوله الشهيرة : « فزت وربّ الكعبة »

طائرة ضخمة وموت جميع ركاها فلماذا لا نقول عن هؤلاء القتل بأنهم شهداء؟ ولماذا كل هذه الهالة القدسية حول كلمة الشهيد؟ ذلك أن الشهيد هو ذلك الإنسان الذي يملك روحاً كبيرة، وروحه تملك هدفاً مقدساً يُقتل من أجل العقيدة، إنه الإنسان الذي لم يكن يعمل لذاته إنه الإنسان الذي خطا بخطواته في سبيل الحق والحقيقة والفضيلة. إنَّ الشهيد يُثمن دمه عالياً ويُقدِّره أحسن التقدير تماماً كما يُعطي صاحب المال قيمة لثروته عندما يستخدمها في سبيل الخير ولا يتركها مُجمَّدة في البنوك. حتى أنَّ الريال الواحد من ريبالاته تصبح مساوية لمئات الألوف من ريبالات الآخرين، نعم فهو من خلال تحويل ثروته المُجمَّدة إلى مؤسسة خيرية عامة نافعة ثقافية كانت أو دينية أو أخلاقية يكون بعمله هذا قد منح قيمة عالية لأمواله. والكاتب بدوره أيضاً عندما يكتب كتاباً علمياً مفيداً ويضعه في خدمة العامة يكون قد أعطى لفكره ثمناً عالياً، والآخر عندما يضع ذوقه الفني في خدمة الناس ويُقدِّم الصناعة والحرف المفيدة للبشرية، يكون كذلك.

وهكذا ترى الشهيد يُقدِّم دمه فداءً على طريق رفاه البشرية وراحتها، فأيا واحد هنا يكون الخادم الأكبر؟

ربما تتصورون أنَّ العلماء والمخترعين والمكتشفين والأثرياء هم الأكثر خدمةً للبشرية، كلا ليس هناك أحد خدم البشرية بمقدار ما خدمها الشهداء، لأنهم وحدهم هم الذين يفتحون الطريق للآخرين، ويهدون الحرية لأفراد المجتمع البشري، إنهم الذين يوفرون ظروف وشروط العدالة للمجتمع البشري حتى يتمكن العالم من الانشغال بعلمه، ويعمل المخترع براحة البال المطلوبة، ويتاجر التاجر بتجارته، ويذهب الطالب لتحقيق علمه وينشغل كل واحد بإنجاز عمله فهم الذين يخلقون الظروف الملائمة والمحيط المناسب للآخرين. مثلهم مثل القنديل والنور، فلولاً القنديل والنور والضياء ماذا كان بإمكانك وإمكانك أن تفعل؟

فالقرآن الكريم يُشبه الرسول الأكرم (ص) بالضياء والنور، فلا بد للنور أن يوجد أولاً حتى يزول الظلام وينشغل كل بأعماله.

إنه ليس ابن سينا من كتب القانون للبشرية ، وهو ليس محمد بن زكريا الخاوي أيضاً . إنه ليس ذوق الشاعر الإيراني سعدي ذلك الذي يظهر في ديوانه (بوستان وگلستان) وما صدر عن مولوي ليس له أيضاً . إنه ليس باستطاعة هؤلاء جميعاً أن يُنتجوا شيئاً لولا بركة دماء الشهداء وظلالهم الوارفة على رؤوس البشرية .

الشهداء هم الذين أسسوا وبنوا تلك الحضارة الإسلامية العظيمة وهم الذين أزالوا الموانع من طريق تقدم البشرية ، وهم الذين أشرقوا كالقناديل في الظلمات وضحوا بأنفسهم لإضاءة الطريق . وهم الذين كانت حياتهم ملحمة إلهية شاملة ، وجودهم كله يعجُّ بطلب الحق ، وتقديس الحق ، وظلوا كذلك في حياتهم حتى تمكنوا من تثبيت علم التوحيد في الدنيا ، وهو يرفرف اليوم بفضلهم .

إنهم صوت العدالة الدائم ، صوت الحرية والتحرر . فأنا وأنت اللذان نجلس هنا الآن مدينان لقطرات دمائهم ، مدينان لملاحمهم ، فالحسين بن علي (ع) كان شعلة حماسية شاملة .

إن علماء النفس لا سيما أولئك الذين يهتمون بكتابة السيرة يسعون على الدوام من أجل اكتشاف مفتاح شخصية كل عَلم من الأعلام حتى يتسنى لهم فهم روحيته .

ولذلك فهم يقولون إن لكل شخص مفتاحاً خاصاً يُطلقون عليه مفتاح الشخصية وإذا ما تم اكتشافه فإنه من السهل عندئذ فهم سيرة حياة ذلك الشخص كلها . لكن اكتشاف مفتاح شخصية الأفراد بالطبع أمر صعب للغاية لا سيما إذا كانوا من نوع الشخصيات العظيمة . يقول عباس محمود العقاد المفكر المصري الشهير في كتابه (عبقرية الإمام علي) : « لقد وجدت أن مفتاح شخصية علي هو في فروسيته . فعلي رجل عملاً حياته كلها روح الرجولة والفروسية سواء في ميدان الحرب أو في محيط العائلة - في محراب الصلاة أو في مقام الحكم أو في أي مكان كان . نعم فالفروسية تعني وقفة الرجولة والإباء وهي ما فوق الشجاعة » .

فالعقاد إذن يرى أن مفتاح شخصية علي هو الرجولة . وهذا ما اكتشفه في شخصية علي الملا الرومي قبل حوالي سبعمائة عام عندما قال : « إنني أرى في علي شيئاً هو ما فوق الشجاعة » .

ونحن إذ نطالع سيرة علي ترانا نتوقف مثلاً عند تلك القصة الشهيرة التي حصلت له مع عمرو بن ود العامري وهي : إنه لما أوقعه علي على الأرض وتقدم نحوه ليقتله ، إذا بذلك الرجل يبصق بوجه علي فيما كان من علي إلا أن رجع قليلاً إلى الوراء ، ثم عاد لتنفيذ المهمة مجدداً وعندها سأله ذلك الرجل : ولماذا لم تقتلني منذ البداية ؟ قال لما كنت قد وقعت تحت تأثير الغضب الشخصي لم أرد تحريك يدي نحو رأسك وتأثير الغضب الشخصي لا يزال عندي فيكون لغضبي الشخصي تأثير في قتلك ولأنني أردتُ قتلك خالصاً في سبيل الله وتحقيق الأهداف العامة للخلق تراجعت قليلاً إلى الوراء لإزالة مفعول الغضب الشخصي أولاً .

الشاعر (المولوي) المعروف بصف أمير المؤمنين (ع) في معرض هذه الواقعة بيتين من الشعر رائعين ، بلغ فيهما - كما أرى - حدّاً في الصدق لا يداني ، ومضمونها :

كنت فرداً وفي العدالة حقاً بل لساناً لكل عدلٍ وحقٍّ
ففي الشجاعة من أسود الله وفي المروءة .. ذا يعلم الحقُّ

وهذا عين ما توصّل إليه ذلك الرجل المصري إذ قال : إن مفتاح شخصية علي (ع) يكمن في رجولته ومروءته وفروسيته .

الحقيقة أنّه ليس من السهل على الإنسان الادّعاء بأنه اكتشف مفتاح شخصية امرئ مثل علي أو الحسين بن علي (ع) وأنا من جهتي لا أنجرأ أن أقول مثل هذا الكلام ، لكنني أستطيع القول بأنني وفي حدود معرفتي للحسين (ع) وتاريخ حياته الذي اطلعت عليه وخطاباته وأقواله القليلة^(١) للأسف الشديد ، وفي حدود دراستي أيضاً لواقعة عاشوراء التي سجّلها لنا التاريخ بدقة

(١) السبب في ندرة أقوال الحسين عليه السلام هو عصر الاختناق والقمع والرقابة الأموية الشديدة التي كانت تمارس بحق علي وأبناء علي (ع) .

والحمد لله ومن خلال وصايا ونصائح وتوجيهات الحسين (ع) المختلفة التي اطلعتُ عليها ، أستطيع القول بأنني أعتقد بأن مفتاح شخصية الحسين (ع) يبرز ويتبلور في حس الحماس والحس الملحمي ، في عظمتة وصلابته وشدة بأسه وصموده وتقديسه للحق .

إن الأحاديث التي تروى عن الحسين بن علي (ع) نادرة ، ولكن المقدار المتوفر يدل على هذه الروح العالية . لقد طُلب من الحسين بن علي (ع) يوماً أن ينقل أو يروي حديثاً سمعه بنفسه عن رسول الله (ص) . لاحظوا هنا انتخاب الحسين لنوع الحديث النبوي ، إن هذا الانتخاب بحد ذاته يُحدِّثك عن روحيته وشخصيته المتميزة .

قال الحسين عليه السلام : سمعتُ من رسول الله (ص) أنه قال : « إن الله تعالى يُحبُّ معالي الأمور وأشرفها ويكرهُ سَفَافِهَا » (١) .

انظروا إلى الرفعة والعظمة التي يتميز بها الإمام فهو عندما ينتخب الحديث النبوي لا يقع اختياره إلا على حديث الروح العالية . في الواقع إنه يُبرز شخصيته بهذا الحديث . لقد وصلتنا بعض أبيات من الشعر نُسبت إلى الحسين (ع) تتجلى فيها كذلك هذه الروح الحسينية :

سبقتُ العالمين إلى المعالي	بخسن خليفة وعلو همة
ولاح بحكمتي نور الهدى في	ليال في الضلالة مُدلهمة
يُريد الجاحدون يُطفئونها	ويأبى الله إلا أن يستمه (٢)

إضافة إلى بعض الأقوال الأخرى التي وصلتنا منسوبة إلى الإمام الحسين (ع) أيضاً وفيها نفس هذه الروح والهمة العالية ، وهي لا ترتبط بواقعة عاشوراء بل إنها قيلت قبل ذلك . هناك حديث آخر يُنقل عن الحسين (ع) يقول فيه : « موْتُ في عزٍّ خيرٌ من حياةٍ في ذلٍّ » . وآخر يقول فيه : « إن جميع ما طلعت

(١) جامع الصغير ج ١ ص ٧٥ .

(٢) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ١٩٤ . (ولعل التعبير : ليطفئوه ، وليس ليطفئونا ، فيعود الضمير إلى النور) .

عليه الشمس في مشارق الأرض ومغاربها ، بحرهما وبرها ، وسهلها وجبلها ،
عند ولي من أولياء الله وأهل المعرفة ، بحق الله ، كفيء الظلال ،^(١) .

وهنا بالذات تكتشف اختلاف المبرء صاحب الحساس الرباني عن غيره من
الأشخاص . إلى أن يضيف عليه السلام قائلاً : « ألا خُرِّدَعُ هذه اللَّمَّاطَةُ
لأهلها »^(٢) . أين هو ذلك الرجل الحر الذي ينظر إلى الدنيا وما فيها نظرتة إلى
اللَّمَّاطَةِ ؟ فالذي يُريد لنفسه أن تكون عابدة ساجدة ولا تطمع إلا برضا الله ولا
يُسبِعها إلا العبودية لله وحده لا ترى الدنيا وما فيها إِلَّا لَمَّاطَةً ، فهل تدري ما
اللَّمَّاطَةُ ؟ هي بقايا الأكل في الأسنان التي عادةً ما يُخرجها المرء بعود الخلال المنظف
للأسنان ويرميها جانباً . فيزيد وملكه والدنيا وما فيها مثل اللَّمَّاطَةِ في منطق
الحسين (ع) ، ثم يقول لهم أيها الناس إنكم لن تجدوا غير الله سبحانه وتعالى في
هذه الدنيا يستأهل أن تُضحوا بأرواحكم وأنفسكم في سبيله . فلا تبيعوا أنفسكم
لغير الله وكونوا أحراراً ولا تكونوا مرتزقة تابعين .

حديث آخر للإمام الحسين يشرح فيه طبيعة الناس وصفاتهم التي تميز
أغلبهم مهما تبجحوا وادعوا : « الناسُ عبيد الدنيا والدينُ لَعَنُ على ألسنتهم
يحوطونهُ ما ذَرَّتْ معائِشُهم فإذا مُحِّصوا بالبلاء قل الديانون » .

عثمان بن عفان يُبعد أبا ذر الغفاري ويُعلن عدم جواز مشايعته وتوديعه من
قبل أحدٍ لأنه مُطارِد من وجه العدالة الحكومية ! لكن علياً عليه السلام لا يُبدي
اهتماماً بهذا البلاغ الخلفي ويذهب هو والحسن والحسين (عليهم السلام) ويودعون
جميعاً أبا ذر ويشايعونهُ . نعم وكل واحد منهم عنده حديث مع الغفاري .
والحسين بن علي (ع) هنا عنده حديث في هذا المجال تبين فيه ظلال روحه .

إنَّ أبا ذر الغفاري رضوان الله عليه من شيعة علي وله من العمر بمقدار عمر
علي عليه السلام وربما أكثر أيضاً ولذا فإن الحسين (ع) يُناديه : عمي العزيز !
ويقول له نصيحتي لك هي التالية : « اسأل الله الصبرَ والنصرَ ، واستعِذْ به من

(١) لمة من بلاغة الحسين نقلاً عن (نفس المهموم) للحاج الشيخ عباس القمي .

الجشع والجزع»^(١) . نعم فهو يوصي أبا ذر بعدم الرضوخ للضغط وتحمل أنواع الظلم ورفض الاستسلام وعدم اليأس والجزع .

فما أكبر هذه الروح العالية العظيمة التي تتجلى فيه باستمرار والتي يجهلها أغلبنا ويغفل عنها ، عودوا إلى حديثه الأول مرة أخرى وتأملوا فيه : « خُطَّ الموتُ على وَلَدِ آدَمَ نَحْطُ الْقِلَادَةِ على جَنَدِ الْفَتَاةِ وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف »^(٢) .

في الطريق إلى كربلاء يأتي إليه البعض ويحاول منعه من التوجه إلى كربلاء ويقول له بأن الحالة خطيرة فيرد عليه الحسين (ع) بهذه الأبيات من الشعر :

سأضي وما بالموت عارٌ على الفتي	إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً
وواسى الرجال الصالحين بنفسه	وفارق مشوراً وخالف مجرماً
أقدم نفسي لا أريدُ بقاءها	لتلقى خيماً في الهياج عرمرماً
فإن عشتُ لم أندم وإن متُّ لم ألم	كفى بك ذلاً أن تعيش وترغماً ^(٣)

إنكم تطلبون مني عدم الخروح والذهاب . لكنني سأضي ونقولون إنني سأواجه خطر الموت ، وهل موت الحر عار ؟ أبداً ، فالموت يكون عاراً عندما يكون الهدف دنيئاً ويكون الإنسان قد قُتل من أجل الرئاسة والسيادة فيقولون عندئذ إنه لم يصل إلى هدفه ، لكن الموت ليس عاراً بالنسبة إلى ذلك المرء الذي يُقاتل من أجل إعلاء كلمة الحق ذلك أنه يكون قد مضى على طريق سبقه إليه الصالحون وعباد الله الأخيار .

(١) الفديرج ٨ ص ٣٠٢ .

(٢) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٦٦ اللهموف ص ٢٥ . مقتل الحسين للخوارزمي . نفس المهموم ص ١٠٠ . ملحقات إحقاق ج ٢ ص ٥ الحق ج ١١ ص ٥٩٨ . كشف الغمة ج ٢ ص ٢٩ .

(٣) في رحاب أئمة أهل البيت ج ٣ ص ٩٧ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ٦٩ . مقتل الحسين للمقرم ص ٢١٧ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٢٣٨ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٢٥ لقد ذكر البيت الأول والثاني فقط في كتاب أعلام الوري في الصفحة ٢٣٠ كما أن البيت الرابع لم يذكر في بعض الكتب المذكورة أعلاه .

إذن عندما يكون المرء قد اختار طريق مخالفة شخص هالك تعيس مجرم مثل يزيد فلا مانع من الموت في هذا الطريق . وأنا إن عشتُ فسوف لن يأتي أحد ويقول لي لماذا بقيت حياً . وإن مُتْ سوف لن يلومني أحد عندما يعرف الهدف الذي من أجله قُلتُ . إنها الملمحة الحسينية مرة أخرى . وفي الطريق إلى كربلاء يتحدث إلى أصحابه مرة أخرى فيقول عليه السلام : « ألا ترون إنَّ الحق لا يُعملُ به وإنَّ الباطل لا يُتناهى عنه »^(١) إلى أن يضيف : « إني لا أرى الموت إلَّا سعادةً ولا الحياة مع الظالمين إلَّا برماً »^(٢) .

إنني لا أستطيع الآن الخوض بالتفصيل في كل خطب الحسين (ع) فالمجال لا يسمح بذلك ولكنني أتحدث قليلاً عن ليلة عاشوراء .

لو واجهت أية شخصية تاريخية أخرى ما واجهه الحسين بن علي (ع) في ليلة العاشر من محرم حيث كانت العوامل المساعدة في انتصاره معدومة ، والطرق الدنيوية كلها قد سُدَّت في وجهه وصار يقيناً أمر حتفه وحتف أصحابه على يد العدو . في مثل هذه الظروف كان لا بد لأي امرئ أن يتوجه بلمومه وعتابه على الدهر وهذا ما يثبتته التاريخ . فأغلب الناس عندما تواجه مثل تلك الظروف المُثْبِطَة والقائمة تقول مثلاً : أف لك من دهر . ويا للأسف فالدهر لم يُساعدني أو لم يقف معي . يقولون إن نابليون عندما واجه مثل هذه الحالة في موسكو قال : للأسف فإن الطبيعة قد خالفني لساعات عدة فقط . وآخرون ربما كانوا يضربون الكف بالكف ويقولون : سوّد الله وجهك أيها السدهر اللعين لما فعلته بي . . . الخ .

لكن الحسين بن علي (ع) يجمع أصحابه وتراه وكأن روحه قد تلالأت بين جنبه لرؤية علامة التوفيق والنجاح ويقول مخاطباً صحبه الميامين : « أنهي على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء ، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا

(٢٠١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٨١ ، تحف العقول ص ١٧٦ . اللهوف ص ٣٣ . مقتل الحسين للمقرم ص ٢٣٢ . تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٢٩ . تاريخ ابن عسك ج ٤ ص ٣٣٣ . كشف الغمة ج ٢ ص ٣٢ .

بالنبوة ، وعَلَّمَتَا القرآنَ وفَقَّهَتَا في الدين» (١)

إنَّه يتحدث وكأنَّ الشروط المساعدة كافة قد اجتمعت له . نعم وهو كذلك لأن الذي يتشام في مثل هذه الظروف هو ذلك الساعي إلى السلطة الدينية فقط .

أما المرء الذي يُريد الحكم والحكومة في سبيل الحق والحقيقة ويعرف أنه على هذا الطريق سوف يمضي ، فإن مثل هذه الظروف مساعدة له . فهو لا يرى سوى الحمد والشكر . ولذلك فإن أحد شعارات الحسين (ع) في يوم عاشوراء هي :
الموتُ أولى من ركوب العار والعارُ أولى من دخول النار (٢)

لقد ظل ، حتى آخر لحظة من لحظات حياته ونشاطه وحركاته وسكناته وقوله ، مثلاً وشاهداً على عبادة الحق تعالى ونموذجاً للمطالِبين بالحق وموجاً يتصاعد بالحماس .

في ليلة التاسع من محرم يعرضون عليه للمرة الأخيرة : الموت أو التسليم ! فيرد عليهم : « والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفر فرار العبيد » (٣) .

وفي الساعات الأخيرة من حياته ظل كذلك أيضاً . فلا تُصدِّقوا أنَّ أبا عبد الله الحسين سلام الله عليه قد قال هذه الجملة : اسقوني شربةً من الماء فقد نشطت كبدي . فأننا من جهتي لم أعثر في الكتب على مثل هذه الجملة والحسين ليس ممن يطلبون مثل هذا الطلب . إنه ذلك الإمام الذي يقف في مواجهة معسكر العدو وهو يُنادي : « ألا وإنَّ الدَّعيَّ ابن الدَّعيِّ قد ركَّز بين اثنتين بين

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٩٢ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ١ ص ٢٤٦ . مقتل الحسين للمقرم

ص ٢٥٧ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣١ . اعلام الوری ص ٢٣٤ .

(٢) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٠ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١١٠ و ١١١ . اللهوف ص ٥٠ .

كشف الغمة ج ٢ ص ٣٦ .

(٣) الإرشاد للشيخ المفيد ص ٢٣٥ . مقتل الحسين للمقرم ص ٢٨٠ .

السَّلة والذَّلَّة وهيهات منا الذَّلَّة ، يَا بِي الله ذلك لنا ورسولُهُ والمؤمنون وحُجُورُ
طابت وطهرت» (١) .

نعم فجدي رسول الله (ص) ، والحجر الطاهر لأهل بيت النبوة يَا بِي ذلك
ولا يرضى لنا الذَّلَّة ، وهيهات منا الذَّلَّة . إنها الملحمة ، لكنها ليست من تلك
الملاحم الشخصية أو القومية . فليس فيها حب الذات وتقديسها بل إنها عبادة
الله خالصة . إنه يقاوم حتى اللحظة الأخيرة في يوم عاشوراء إلى أن يفقد القدرة
البدنية تماماً . في تلك اللحظة يضع أحد الرُّماة رماً مسموماً ويوجهه إلى صدره
الطاهر الشريف فيخر صريعاً دون اختيار فماذا تراه يقول في تلك اللحظة ؟ فهل
يستسلم للذل ؟ أو يرجو شيئاً من العدو ؟ أبداً فهو بعد أن أتم مرحلة الحرب
والمقاومة يُوجه نفسه كاملة لله سبحانه وتعالى باتجاه القبلة التي ما انحرف عنها
لحظة ويقول : « رضىً بقضائك وتسليماً لأمرِكَ ولا معبودَ سواكَ يَا غِيَاثَ
المستغيثين » (٢) . هذه هي الحماسة والملحمة الإلهية ، الملحمة الإنسانية الرائعة .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وصل الله على محمد وآله الطاهرين .



(١) اللهوف ص ٤٧ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٧٦ . تاريخ الشام لابن عاكرج ٤
ص ٣٣٣ . نفس المهموم ص ١٤٩ . ملحقات إحقاق الحق ج ١١ ص ٦٢٤-٦٢٥ . مقتل
الحسين للمفهم ص ٢٨٧ . تحف العقول ص ١٧٤ .

(٢) ورد شبيه هذه العبارة في القيام للزخار ص ٤٦٣ . ومقتل الحسين للمفهم ص ٣٥٧ .

المحاضرة الثالثة

النهضة الحسينية وتبلور الشخصية المستقلة للمجتمع الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيه سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحكمكم ﴾^(١) .

كثيراً ما يتردد على لساننا القول بأن الحسين بن علي (ع) قد أحيا بتضحياته رسالة الإسلام من جديد ، وسقى شجرته بدمائه الزكية الطاهرة . ونقرأ في زيارته كذلك : « أشهد أنك قد أقمّت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وجاهدت في الله حق جهاده »^(٢) .

ولا بد لنا أن نتساءل هنا عن العلاقة الموجودة بين شهادة الحسين بن علي (ع) وبين استنهاض قوة الإسلام ، وإحياء أصول الدين وفروعه ؟ ذلك أن مجرد سيل الدم لوحده لا يمكن أن يكون منشأً لمثل هذه الأمور . فما هي العلاقة

(١) سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

(٢) مفاتيح الجنان الزيارة الخاصة بالحسين في أيام عيد الفطر والأضحى .

حقاً بين نهضة الحسين ، وقيامه وشهادته ، وهذه الآثار التي نتحدث عنها ونُدعي حصولها وهو ما يبرهنه التاريخ بالفعل ؟ إن إدراك هذا الموضوع لا يتم لنا إلا بوضع الباحثين الماضيين على مد نظرنا تماماً .

فلو كانت شهادة الحسين بن علي (ع) مجرد حادثة حزن أو محض مصيبة أو ليست أكثر من عملية إهراق لدم بريء من الأبرياء ويتعبر آخر ليست سوى عملية هدر لدم شخصية من الشخصيات الاجتماعية وإن كانت بارزة جداً ، فإنه لا يمكن لها أن تعطي كل تلك الآثار .

إن شهادة الحسين بن علي (ع) لم يكن بمقدورها توليد كل تلك الآثار لولا كونها وكما عبرنا عنها سابقاً قد شكّلت تعبيراً للنهضة أو ملحمة إسلامية وإلهية كبرى . إنها لم تكن أبداً عبارة عن قصة وواقعة كارثية ولا محض عملية جريئة أو ظلم ارتكبه عدد من الظلمة والجناة ، بل إنها بطولية عظيمة ، وعظيمة جداً ، رسم معالمها ذلك الطرف الذي ارتكبت بحقه الجرائم .

إن شهادة الحسين بن علي نفخت روحاً جديدة في الإسلام . وكما قلنا في (المحاضرة الأولى) فإن الأثر الناتج عن أية خطبة أو واقعة أو شخصية حساسية نراه في الواقع في موج الحركة الذي ينبعث في الروح وفي الحمية والغيرة التي تتولد معها والشجاعة والصلابة المترتبة على ذلك . إنها تعبير عن حركة الدماء وجليانها في الأبدان وخروج الأجسام من حالة الكسل والخمول إلى عالم النشاط والفعالية وخفة الحركة . فهناك عمليات سيل للدماء كثيرة تحدث هنا وهناك لكنها لما كانت لا تحمل معها إلا بُعد التزييف الدموي فإن أثرها يقتصر على إيجاد الرعب والهول في نفوس الناس وإضفاء مزيد من الوحشة عليهم وخنق للأنفاس في الصدور وسلب للقوة الشعبية .

في حين إن هناك عمليات استشهاد في الدنيا تخلق معها وتولد رونقاً من الضياء والصفاء للمجتمع . وكما نرى بوضوح على المستوى الفردي كيف أن بعض الأعمال تُكثّر قلب الإنسان في الوقت الذي تُضيء بعض الأعمال الأخرى قلبه وتصل روحه ، وتدخل إليها الصفاء . وهذا ما ينطبق تماماً على المجتمع ،

فبعض الظواهر الاجتماعية تُسبب الكدورة للروح الاجتماعية ، كما توجد الرعب والخوف في الناس ، وتخلق حالة من الإحساس بالأسر والعبودية ، لكن بعضها الآخر يمنح الصفاء والنورانية والإشراق للمجتمع كما تُزيل الخوف من صفوه وتطرد كل إحساس بالأسر والعبودية لديه ثم تشحن النفوس بالجرأة والشهامة .

وهذا ما حصل بالضبط بعد استشهاد الإمام الحسين (ع) حيث انبعث الإسلام برونق جديد . وهذا الأثر النوراني إنما برز في المجتمع من خلال حركة المقاومة والصمود الحسينية التي أحييت روح المسلمين وأزالت عنهم حس العبودية والأسر التي كانت سائدة منذ أواخر عصر عثمان وفي أثناء دورة حكم معاوية وكسرت حاجز الخوف المتزايد لديهم . بعبارة أخرى أعادت صياغة الشخصية للمجتمع الإسلامي .

لقد وضع الحسين يده على الجرح - كما يقول المثل - أي إنه بعمله هذا حرّك حس الشخصية في المجتمع ، وهذه المسألة مهمة للغاية إذ ليس هناك رأسمال أثمن وأعلى من هذا الرأسمال لأي مجتمع كان ، أن يحسّ المجتمع بوجود شخصية خاصة به وأن يتولد عنده إحساس بالعزة والكرامة وامتلاك لقيم مثالية تخصه دون غيره من المجتمعات الأخرى بحيث إنه يصبح مكتفياً ذاتياً وعندما يصل مجتمع ما في سُلّم التطور إلى مثل هذه الحالة ، أي أن تصبح لديه فلسفة مستقلة في الحياة ، يستطيع المباشرة بها ، الفخر بحياته المستقلة القائمة على تلك الفلسفة ، عندها يمكن القول بأن هذا المجتمع استطاع الحفاظ على حماسه وملحميته ذلك أنه استطاع أن يحافظ على فلسفته المستقلة الخاصة النابعة من كيانه وجوده وأن يؤمن بها ويعتقد بأنها هي الأفضل والأرقى والأحسن ، وأن من حقه التباهي بها بين الأمم .

تعباً للمجتمع الذي يفقد مثل هذا الإحساس لأنه سيصبح لا شك مجتمعاً مريضاً ، وبالطبع فإن هذا الإحساس المقصود هنا غير ذلك الحس المنحرف الذي يتمثل بالغرور والأنانية وحب الذات وشهوة التسلط والطغيان .

إن المجتمعات التي تفقد مثل هذه الأخلاق القائمة على حس امتلاك

الفلسفة المستقلة الخاصة بها ، وضرورة الاعتماد عليها ، أو ترفض الإيمان بوجود فلسفة مستقلة خاصة بها ، فلإنها سرعان ما تفقد كل شيء ، في حين يبقى باستطاعة المجتمعات التي تُحافظ على مثل هذه العقيدة ، حتى وإن سلبوا منها كل شيء ، أن تصمد وتقف على قدميها ، وبعبارة أخرى يمكن القول بأن القوة الوحيدة التي تمنع ذوبان أي أمة في أمة أخرى أو أي فرد في فرد آخر هي القوة النابعة من هذا الخلق العظيم خلق امتلاك الشخصية المستقلة .

من المعروف إن الألمان قد اعترفوا بخسارة كل شيء في الحرب الكونية الثانية ما عدا شيء واحد هو شخصيتهم المستقلة ، ولما كنا ، كما يقول الألمان ، لم نفقد هذه الشخصية فإننا استطعنا الحصول على كل شيء مرة أخرى وقد صدقوا بالفعل . ولكن لو حدث أن أمة ما ظلت تملك كل شيء وخسرت شخصيتها فإنها سوف لن تستطيع الحفاظ على أي شيء مما تملك وسيكون مصيرها الذوبان في الأمم الأخرى شاءت ذلك أم أبت .

تعباً لحالة الاستلاب هذه وهي الحالة التي تسود مجتمعاتنا اليوم بكل أسف .

لقد قرأت لإقبال اللاهوري - الشاعر والفيلسوف الباكستاني العظيم - قوله إن موسوليني قال : « على الإنسان امتلاك الحديد حتى يمتلك الرغبة » .

أي إنك لو أردت امتلاك الرغبة لا بد لك من امتلاك القوة . لكن إقبال يقول مقابل ذلك : هذا الكلام ليس صحيحاً . فأنت لو أردت امتلاك الرغبة عليك أن تكون كالحديد ، فهو لا يريد لنا أن نمتلك الحديد بل أن نكون كالحديد ، أي أن نملك شخصية صلبة كالحديد . إنه يقول بضرورة امتلاك الشخصية وعندها لا حاجة للتوسل بالزور والقوة . ولا حاجة للاستعانة بالسلاح . وبذلك تسقط فلسفة موسوليني التي تريد للإنسان أن يتوسل بالسلاح من أجل امتلاك الرغبة . وفي مقابل ذلك تسود فلسفتنا التي تُعقِد : تحصل على ما شئت عندما تكون كالحديد ، كالفولاذ . وتمتلك الشخصية الصلبة ، وحسن العزة والفخار . إن الأمة التي تفقد الإيمان بفلسفتها الخاصة المستقلة للحياة

وتصبح مرعوبة من قبل أمة أخرى ، تصبح تابعة لتلك الأمة في كل تفكيرها وتتصور أنّ الآخرين هم الذين يفكرون بدلاً عنها ، وأنها في الأساس غير قادرة على الحكم والبت في قضايا الحياة بدون الآخرين .

وعند ذلك يصبح كل أمر عندها مقبولاً ما دام قد أصبح « موضحة العصر ، أو ظاهرة القرن المعاصرة أو إنها الفكرة المقبولة في المجتمع الأمريكي أو المجتمع الأوروبي وفي مثل هذه الحالة فإن المنطق لم يعد له دور في حياة هذه الأمة .

قبل حوالي الستين قرأت لأحد المتجديين الإيرانيين كتاباً يذكر فيه أنه عندما كان يعيش في (لندن) حصلت حادثة لطيفة وملفتة للنظر مفادها أنّ بنت سفير بريطانيا السابق في موسكو وهو لا شك من الشخصيات الكبيرة والمرموقة في المجتمع البريطاني عشقت رجلاً أسود ثم تزوجته الأمر الذي أثار ضجةً كبرى في لندن ، فكيف يمكن تصور زواج بنت بيضاء من رجل أسود ، وبنت أحد الشخصيات البريطانية المرموقة ، حتى تحول الأمر إلى حديث دائم للصحف اليومية ، ولكن إحدى الصحف كتبت تقول : « ولماذا كل هذا العجب وهذه الضجة ؟! فالعالم يتجه نحو المساواة والمجتمعات اليوم تؤمن بفكرة المساواة والإخاء بين الألوان وترفض التمييز العنصري بالإضافة إلى أن ديناً كبيراً من أديان العالم كالإسلام كان قد رفض التمييز بين البشر على أساس الألوان قبل أربعة عشر قرناً مضت ! »

ويضيف الكاتب الإيراني أنه صادف في تلك الأيام أن حضر أحد المجالس التي كان يشترك فيها عدد من الإنكليز إلى جانب عدد من الشباب الإيراني المقيم في لندن ، ولما تطرق الحاضرون إلى هذه القصة وكيف أنّ إحدى الصحف البريطانية كتبت عن الإسلام ورأيه في المساواة بين الأسود والأبيض قبل أربعة عشر قرناً قام أحد الإنكليز من الحاضرين في المجلس وقال ، نعم فدين وسخ كالإسلام لا بد له أن يحمي الوسخين (المقصود السود) .

ويضيف الكاتب الإيراني هنا ، إنّ اثنين من الشباب الإيراني الحاضر شعرا بخيبة أمل كبيرة وصارا يندبان حظهما ويتساءلان عن سبب انتمائهما إلى مثل هذا

الدين الذي يُسبب لها إحساساً بالانكسار والذل ! ثم صاراً يتقلان هذه الصورة البائسة ! من مجلس إلى مجلس ويصرّحان بأن الدين الإسلامي دين الأوساخ لأنه يجمي الأوساخ ويتساءلان كيف أن الإسلام لم يستطع إدراك الفرق الموجود بين الرجل الأبيض والرجل الأسود !

إن هذا يُسمى استلاب الشخصية ، فهؤلاء لم يكن لهم أن يفكروا كذلك بل يذوبوا في المحيط الذي يدور حولهم ، فلو كان عندهم ذرة من الاستقلال الفكري لكانوا ردّوا صاحب هذا الرأي ردّاً مُحكماً ، وأثبتوا له تفاهة حديثه ، وتخلّف عقليته ، لأنه ما معنى أن يكون للون والبشرة أي دور في التمايز في فضائل البشر ! وأن يصبح مثل هذين الشابين مخذولين ومكسورين ! إنه مرض استلاب الشخصية فقط لأنّ هذه الحالة هي التي تخلق فكرة القول بأنّ ما يقوله الإفرنج لا بد وأن يكون صحيحاً !

نحن الشعب الإيراني عندنا صفة حسنة كما عندنا صفة سيئة ، الصفة الحسنة التي لدينا هي عدم وجود حس التعصب لدينا تجاه الحقائق وربما نستطيع القول إنّه لا تعصب لدينا أبداً ، أي إننا إذا ما واجهنا الحقائق وأدركنا صحتها بعقولنا فإننا نُسلم بها ونأخذ بها أكثر وأسرع من أية أمة أخرى . لكننا بالمقابل نملك صفة سيئة تعتبر نقیصة كبرى فينا وهي : إنه في الوقت الذي نقبل بالحقائق ونُسلم بها إلّا أننا لا نرتبط كثيراً بملاحم أمتنا وأركان شخصيتنا ونختلّ عنها ونُضيّعها عند أول مجادلةٍ أو مُماحكةٍ ركيكة . فليست هناك أمة تملك حس اللامبالاة تجاه شعائرها مثلنا .

انظروا إلى الهنود واليابانيين والعرب ، إنهم من الأمم الشرقية مثلنا أيضاً ، لكنهم ليسوا مثلنا من هذه الزاوية ، ليست هناك أمة تستسلم مقابل العادات واللغات الأجنبية بقدر أمتنا نحن ، انظروا إلى صور كتب العلوم سترون أن علماء الدرجة الأولى من الهند وقد تزوّوا بأزيائهم الوطنية الخاصة بهم .

انظروا إلى نهرو ذلك الرجل السياسي الكبير ، والشخصية العالمية البارزة ، تروه كان يتجول في كل أنحاء العالم بلباسه الهندي ، ولا يمكن لطول اللباس أو

قصره أو لون البشرة أن تؤثر في شخصية الإنسان ، لكن ذلك العالم الذي يضع عمامته على رأسه ، أو عندما يلبس نهرو لباسه الأبيض الطويل ، وسدّته الخاصة بتقاليد شعبه ، ويتجول بها في كل مكان إنما يريد القول لكل العالم بأنه هندي ، ويجب أن يبقى كذلك ، وإنه لا تعصب لديه أمام العلوم والصناعة من أي بلد جاءت ، وإنه لا تعصب لديه أمام العقائد الفلسفية والدينية الكبرى ، وإنه لا بد لكل واحد منا من التمسك بشعائره وتقاليدهِ الوطنية المحلية .

فلماذا يجب علينا أن نحمل ونلوح بشعارات وشعائر أمة أخرى ؟ وصحيح الواحد منا يربط حزامين بدل حزام واحد لأن الغربي قرر استخدام الحزام في لباسه مثلاً على الرغم من أن الغربي يستخدم ذلك ضمن سياق التزامه بتقاليدهِ الخاصة به .

كل يوم يخرجون علينا بمشروع جديد وحكاية جديدة وبين فترة وأخرى تراهم يعمدون ويطرحون من جديد مسألة تغيير الخط وأنه لا بد من تبديل أحرفنا الوطنية إلى أحرف لاتينية^(١) دون أن يفكروا ما سيحل بثقافتنا ومدنيتنا وشخصيتنا ومعارفنا ومشاعرنا الوطنية والشعبية من ويلات بسبب هذا التحول والتغيير .

إن لدى شعبنا آثاراً نفيسة لا نظير لها في الدنيا ، وهل يملك العالم كله أثراً أدبياً نفيساً مثل مثنويات المولوي ؟ أو يملك العالم كتاباً مثل كتاب سعدي ؟ إنها كتب قيلت وكتبت في قالب هذه الخطوط والأحرف الوطنية . فلو حصل أن غيّرنا هذا الخط الذي تتقارب (صاده) مع (سينه) و (نائه) أو تتقارب أصوات نطق حروف (الزاي) مع (الضاد) و (الظاء) فيه ونسخناه من الاستعمال وغيّرنا هذا القالب اللغوي فهل يمكن لنا بعد مائة عام قراءة كتاب المثنوي ؟! لا أعرف كيف نسمح لأنفسنا بمثل هذا التفكير ؟

(١) يشير الشهيد هنا إلى محاولات السلطة في العهد الشاهنشاهي البائد لتغيير الخط الفارسي المستخدم في إيران إلى خط لاتيني ضمن إطار السياسة الاستعمارية العامة المتبعة للقضاء على الثقافة الوطنية والدينية للمجتمع الإسلامي في إيران .

ماذا أعطى نبي الإسلام للعرب ؟ وماذا يملك إنسان فقير ويتيم كمحمد وقف كافة أفراد قبيلته ضده حتى يُعطيه لأمة العرب ؟ لكنه مع ذلك نقلهم من عالم الحضيض إلى أوج العزة والكرامة الإنسانية . فكيف حصل ذلك ؟

لقد منحهم الإيمان الذي أوجد في داخلهم الكيانية والشخصية . وفجأة تحول ذلك العربي الأكل للجراد ، والشارب لحليب الجمال ، والغارق في حروب القبائل الجاهلية ، والعاجز عن تأمين الحياة والعزة لبناته ، والتي كان يدفعها خشية إملاق وهي حية ، تحول بفضل هذا الإحساس الجدي بالكيانية والشخصية إلى إنسان يُفكر في ضرورة خلاص العالم ، من حس العبودية والأسر والانقياد لغير وجه الله . ثم لا يهمل بعد ذلك أيضاً من الاعتراف بماضيه التعميس بل ويفتخر في القول بأن ماضيه لم يكن سوى ماضٍ سيئ وحقير ، وأنه لم يكن يمتلك يوماً مفاخر وطنية تُذكر ، في حين أنه أصبح ، بعد الدعوة الإسلامية ، صاحب فكر سام يتباهى به على غيره من الأمم ، وهذا يُقال له حس الكيانية والشخصية .

أروني كلمة تُشعل الحماس في روح الإنسان وتصنع شخصية لبني البشر أكثر من كلمة « لا إله إلا الله » ؟

إنه لا مطاع ولا معبود سوى الله ، فأين الأجرام الفلكية والحيوانات والصخور والأشجار من ركوع البشر وسجودهم ! إنني لا أركع لأي شيء مهما كان وأياً كان إنني لا أركع سوى الله الواحد القهار . ولا أقف إلا إلى جانب العدالة والحق والإحسان والفضيلة ولهذا الإنسان يُقال بأنه صاحب شخصية وكيان .

لقد دأب الأمويون بشكل حثيث على إماتة الشخصية الإسلامية في صفوف المسلمين ، والكوفة كانت آنذاك مركزاً لجيش الإسلام ولولم يذهب الإمام الحسين إليها لتوجه إليه اللوم من مؤرخي العالم كافة ولقالوا له كيف ترك الكوفة ولا تلي دعوتها وهي التي بايعت ممثلك من خلال التضاف ثمانية عشر ألفاً من أهلها واثني عشر ألفاً من الرسائل والكتب التي وصلت إليك ؟ وهل كان هناك مكان للنهضة أفضل وأرقى من العراق ؟

والكوفة أساساً أمر ببنائها عمر بن الخطاب بعد الحروب التي خاضها المسلمون في صدر الإسلام وقد أشرف على بنائها جيش الإسلام نفسه . ثم إنه لم يكن هناك شعب أشجع وأقوى وأشد صلابة على القتال من أهل الكوفة وأهل العراق .

ولكن هؤلاء أنفسهم ، وهم الذين خرج من بينهم ثمانية عشر ألفاً من المناصرين للحسين ومن بينهم كانت الكتب الاثنا عشر ألفاً ، تراهم يفرون من المعركة بعد قدوم ابن زياد إليها . فلماذا يحصل مثل ذلك ؟ لأن زياد بن أبيه كان قد حكم الكوفة لسنوات طويلة لم يترك خلالها جريمة إلا ارتكبها من قلع العيون ، إلى قطع الأيدي والأرجل ، إلى بقر البطون ، إلى التعذيب والقتل في السجون ، حتى فقدت الكوفة شخصيتها تماماً .

ولذلك تراهم ما أن سمعوا بقدوم ابن زياد حتى صارت المرأة تسحب يد زوجها ، والأم تسحب يد ابنها ، والأخت يد أخيها ، والأب يد ابنه ، ويخرجونهم بالقوة من بيعة مسلم .

ولا ريب في أن أهل الكوفة كانوا من شيعة علي بن أبي طالب (ع) وأن الذين قتلوا الإمام الحسين (ع) هم شيعته ولهذا كتب المؤرخون عن أهل الكوفة يقولون : « قلوبهم معه وسيوفهم عليه »^(١) . ذلك أن الأمويين كانوا قد سحقوا الشخصية الإسلامية في نفوس أهل الكوفة ولم يَعد فيها من يملك تلك الأحاسيس الإسلامية الواجحة .

لكن الكوفة هذه ، هي نفسها قامت وانتفضت بعد مرور ثلاث سنوات على استشهاد الحسين ، وخرج منها خمسة آلاف نفر من التوابين ، ذهبوا لزيارة قبر الحسين (ع) ، وأقاموا مجلس العزاء هناك ، وبكوا عليه ، ثم عقدوا العهد مع

(١) مقتل المرقوم ص ٢٠٣ . تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢١٨ . الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ١٦ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢١٨ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١٩٥ . كشف الغممة ج ٢ ص ٣٢ .

الله ، بعد طلب التوبة والغفران لتقصيرهم ، بأنهم لن يستقروا ما لم ينتقموا لدم الحسين بن علي (ع) أو الموت دون ذلك ، وقد فعلوا ذلك بالفعل وقتلوا قتلة الحسين والذين شاركوا في قتله في واقعة كربلاء .

وهذه النهضة كانت في الواقع قد بدأت معالمها تظهر منذ عصر يوم العاشر من محرم نفسه أو يوم الثاني عشر من محرم بالتحديد ، فمن كان وراء مثل هذه النهضة ؟ إنه الحسين بن علي (ع) .

إن منح الشخصية لأية أمة يتمثل في منحها العشق والمحبة والمثل العليا ، وإذا ما كان عندها مثل هذه المثل والقيم الأخلاقية العالية لكنها مغطاة بالغبار فإن العملية ستكون بإزالة الغبار عنها وإحيائها من جديد .

فعندما كان الحسين بن علي يتعرض لموضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أقواله وخطبه كان يقول : « وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأمة بداعٍ مثل يزيد »^(١) . أو « إنني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي » .

لقد خرج فيهم الحسين بن علي (ع) بعد عشرين عاماً أو ثلاثين على تكدُّس الغبار فوق شخصيتهم ومثلهم ليطلب الإصلاح في أمة الإسلام ومنحها العشق والمثل العليا من جديد ، وهذا هو الركن الأول في إحياء الحساس والإحساس بالكيانية المستقلة لأية أمة ، فالأمة التي تملك شخصيتها هي تلك الأمة التي تملك حس الاكتفاء الذاتي وعدم الحاجة للخارج .

هذه دروس قيمة يجب استخلاصها من قيام الحسين بن علي ونهضته . لقد أعطى الحسين الأمة درساً في حس الاكتفاء وعدم الحاجة للغير ، إذ في اليوم الذي

(١) مقتل الحسين للمقرم ص ١٥٦ . مناقب ابن شهر آشوب ص ٨٩ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ١ ص ١٨٨ . لمعة من بلاغة الحسين ص ٦٤ . مقتل العواصم ص ٥٤ . نفس المهموم ص ٤٥ . ملحقات إحقاق ج ١١ ص ٧٠٢ .

قرر فيه الخروج من مكة لم يضع أي شرط لنهضته بل قال : « خُطَّ الموتُ على وُلْدِ آدم »^(١) إلى أن قال : « فمن كان فينا باذلاً مُهَجَّتْهُ موْطِناً على لقاء الله نفسه ، فليرحل معنا فإنني راحلٌ مُصْبِحاً إن شاء الله تعالى »^(٢) .

ليس هناك قولٌ فوق هذا القول يُعْطِي معنى الاستغناء والاكتفاء الذاتي في الدنيا كلها !

ثم انظروا إلى حديثه لأصحابه ليلة العاشر من محرم وذلك بعد أن جمع أصحابه وأهل بيته وشكر الله وأثنى عليهم جميعاً وقال لهم : « ... أما بعدُ : فإنِّي لا أعلمُ أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي ، فجزاكم الله جميعاً عني خيراً ، ألا وإنِّي لأظنُّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ، وإنِّي قد أذنتُ لكم جميعاً فانطلقوا في حل ليس عليكم مني ذمام ... » . القول المعروف .

إنَّ الحسين (ع) في خطبته هذه لم يقل لهم بأنني غريب فلا تتركوني لوحدي أنا المسكين المستكين ، بل إنه أراد لهم بخطبته هذه أن يفهموا معنى الاستغناء والاكتفاء الذاتي للإنسان المسلم . لكنه بالطبع لم يرفع عنهم الواجب والتكليف الإلهي ولذلك فإنه لورأى ، بعد إتمام الحجة عليهم عدم وجود رغبة منهم للبقاء معه لكان قد أبعدهم عن ساحة المعركة فوراً ذلك أنه لا يُريد لهم الاكتواء بنار العذاب الربَّاني ، ولأنه لو طلب منهم المدد والعون بعد ذلك ولم يتحركوا لإعانتته لابتلاهم الله بعذاب نار جهنم .

إن درس الاستغناء والاكتفاء الذاتي هذا ليس درساً بسيطاً . فهذا الدرس هو الذي أوجد روح الاستغناء والاكتفاء الذاتي لاحقاً والذي تبلور في الشورات والنهضات الحسينية المتتالية .

إن الحسين بن علي عليه السلام أعطى بنهضته درساً في الغيرة والحمية

(٢٠١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٦٧ ، اللهوف ص ٢٥ ، نفس المموم ص ١٠٠ ، مقتل الحواري
ج ٢ ص ٥ ، ملحقات إحقاق الحق ج ١١ ص ٥٩٨ ، كشف الغمة ج ٢ ص ٢٩ .

للناس . لقد أعطاهم درساً في الصبر والتحمل ، درساً في احتمال المصاعب وركوب الشدائد ولقد كانت هذه دروساً بالغة الأهمية بالنسبة للمسلمين . فإذا عندما يُقال ماذا عمل الحسين (ع) وكيف استطاع إحياء الإسلام بدمه ؟ يكون جواب ذلك أن الحسين بن علي (ع) قد نفخ روحاً جديدةً في النفوس وحرّك دماء المسلمين وجعلها تغلي في العروق وأثار الغيرة ومنح العشق والقيم المثالية للناس ، لقد أوجد فيهم حس الاستغناء والاكتفاء الذاتي ، لقد أعطاهم درساً بليفاً في المقاومة والصمود وتحمل الشدائد والصبر على الصعاب وأسقط عنهم حاجز الخوف والرعب وخلق منهم بطولات وشجاعة بعد أن كانوا غارقين في جبنهم حتى النخاع .

هناك قصة معروفة في التاريخ الإيراني يقال : إن نادر شاه [أحد ملوك السلسلة الإيرانية القاجارية] لاحظ في إحدى المعارك جندياً من جنوده وقد أبدى شجاعة فائقة فتعجب كثيراً واستدعاه يوماً ، وقال له : أين كنت وأين كانت شجاعتك ويطولتلك يوم أغار الأفغان على إصفهان وسلبوها ونهبوها ؟ فقال له الجندي : كنتُ في إصفهان . قال : كنتُ في إصفهان ودخلها الأفغان وقتلوا من قتلوا وارتكبوا كل تلك الجرائم ؟ قال بلى ! فقال له : وأين كانت شجاعتك آنذاك ؟ قال : لم يكن نادر في الوجود آنذاك . فما أملكه اليوم من الشجاعة هو ما اكتسبته من روحية نادر شاه فإنني عندما أراك تتحرك الغيرة في فاصبح شجاعاً وبأسلاً .

لذلك فإنني عندما أؤكد على أن المطلوب دراسة الملحمة الحسينية ، وواقعة كربلاء ، ونهضة عاشوراء ، من هذه الزاوية الحساسة أكثر من أية زاوية أخرى فإن مقصودي في ذلك هو الاستفادة من هذه الدروس العظيمة التي يمكن لها أن تعطينا إياها . إنني لستُ مُحالفاً للرثاء وقراءة التعزية لكنني أقول : إن علينا أن نُرثي الحسين ونقرأ التعازي بشكل نستطيع معه أيضاً تحريك حس البطولة والشجاعة الحسينية ، وإحياء روح الحماس الحسيني في صفوف الأمة .

إن الحسين بن علي (ع) امتياز اجتماعي كبير ، وشعار دائم كان يرفعه كل

من أراد القيام ضد الظلم إذ كان شعاره : «يا لشارت الحسين»^(١) واليوم كذلك هو شعارنا وموضوعنا الكبير ، من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة لإقامة الصلاة ، وإحياء الإسلام ، وتجديد حياة العواطف والأحاسيس الإسلامية والمثل العليا في وجودنا . وهنا لا بد لي من الاقتراب إلى نهاية الموضوع ، رغم أن الحديث ذو شجون ، لكنني أعود مرة أخرى إلى الآية الكريمة التي قرأتها عليكم أول الحديث . بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحبيكم ﴾^(٢) .

نعم فحياة كل أمة ليس بثرواتها الكثيرة ، ولا حتى بعلومها ، فالعلم وحده ليس كافياً لإحياء الأمم ، بل إن حياة الأمة تتمثل في إحساس تلك الأمة بشخصيتها وكيانيتها ، فما أكثر الأمم المتعلّمة التي لا تملك شخصيتها وما أكثر الأمم الجاهلة ولكنها متمسكة بشخصيتها . فإذا كان الجزائريون قد استطاعوا تركيع الاستعمار الفرنسي ، بعد مضي مائة وخمسين عاماً من النضال ، وتمكنوا من نيل استقلالهم أيضاً ، فإن ذلك يعود لكونهم يمتلكون حس الحماس ، وحس امتلاك الأخلاق ، والمثل العالية .

وإذا كانت هناك أمة أخرى^(٣) تناضل وتكافح ضد أقوى أمم العالم وأغناها ، فهل سألتنا أنفسنا بماذا تقاتل تلك الأمة ؟ أتقاتل بأعدادها أو بثرواتها ؟ أبداً فتلك الأمة إنما تقاتل بشخصيتها ، وأخلاقها ، وهي تقول للمعتدي : إنني لا أقبل بسيادتك أبداً ، وأنا إنما أعيش واقفة على قدمي ودون أن يحكمني أحد ، أو يتسلط عليّ أحد ، أو أن أفنى من الوجود .

إن الذي أخذ هذا الدرس وتعلّمه من الملحمة الحسينية أكثر من غيره ، وانعكست ظلال المدرسة الحسينية على روحه المقدسة أكثر من أي إنسان آخر هي أخته الجليلة زينب عليها السلام . إنه موضوع عجيب بالفعل ، فزينب ورغم

(١) مسند الإمام الرضا ج ١ ص ١٤٨ . عيون أخبار الرضا ج ١ ص ٢٩٩ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

(٣) المقصود هنا شعب الفيتنام .

كل تلك العظمة التي كانت تملكها والمتأينة من تربية أبيها علي (ع) وأمها فاطمة الزهراء (ع) وزينب هذه بعد كربلاء هي غيرها زينب ما قبل كربلاء ، أي إن زينب ما بعد كربلاء قد تزايدت عظمتها وتضاعف حجم شخصيتها عما كانت عليه قبل كربلاء .

فنحن نرى زينب في ليلة العاشر من محرم تقترب مرة أو مرتين من حالة الانهيار العاطفي وتبكي إلى الحد الذي تقع فيه على جسم أخيها الحسين ولا يُدَى من روعها إلا تدخل الحسين (ع) بمخاطبته لها وقوله : « لا يُذهبن جِلْمَك الشيطان »^(١) . ويطلب منها التحمل والصبر ، ثم يسألها عليه السلام ولماذا تصنعين بحالك هكذا ، ألم تشهدي وفاة جدي رسول الله (ص) ؟ فوالله إن جدي خير مني ، وأبي خير مني ، وأمي خير مني ، وأخي خير مني . فترد عليه زينب : بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله ، فإن أولئك عندما رحلوا كنت أنت ملجأئي وملأني لكنه مع ذهابك اليوم سوف لن يبقى بعدك لي أي ملجأ أو ملاذ . فهذه زينب نفسها بعد انقضاء أيام عاشوراء وبعد أن شاهدت بنفسها وعاشت روح الحسين القوية والمقتدرة وسمعت خطبة وتعليقاته صارت زينب أخرى ليس لأحد دونها أدنى شخصية تُذكر . يقول الإمام زين العابدين (ع) بأننا كنا اثني عشر نفرأُربطنا جميعاً بسلسلة واحدة ينتهي أحد طرفيها بساعدي والطرف الآخر بساعد عمي زينب .

يقولون إن تاريخ ورود الأسرى إلى الشام صادف في اليوم الثاني من صفر . وعليه فإنه يكون قد انقضى اثنان وعشرون يوماً من الأسر على زينب (ع) ، اثنان وعشرون يوماً من المعاناة والعذاب المستمر وهي في هذه الحالة يُدخلونها إلى مجلس يزيد بن معاوية وهو في قصره الأخضر الذي بناه معاوية عندما كان والياً على الشام ، ذلك البلاط الفخم الذي يقال إن كل من كان يراه ويرى خدمه وحشمه وكل تلك الفخامة والعظمة المحيطة به كان يفقد قدرته على التوازن .

وكما ينقل بعض الرواة فإن على القادم إلى مجلس يزيد أن يمر عبر سبع

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٢ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٢ . أعلام الوري ص ٢٣٦ .

قاعات حتى يصل إلى القاعة الضخمة الأخيرة حيث يجلس يزيد على تخته المزين والمرصع بالجواهر وهو مُحاط بالأعيان والأشراف والسفراء المُعظمين للدول الأجنبية الذين يجلسون على مقاعدهم الذهبية أو الفضية . نعم فقد أدخلوا الأسرى في مثل هذه الظروف ، ومعهم زينب الأسيرة . التي شاهدت كل تلك الفظائع في عاشوراء وعانت كل تلك المعاناة طوال مدة الأسر المذكورة وإذا بزینب وهي في تلك الحال تموج روحها بشكل يُثير موجة رهبة في جمع الحاضرين يصبح معها يزيد الذي كان يتبجح بفصاحته وبلاغته أخرس وعاجزاً عن مواجهة زينب (ع) .

ففي الوقت الذي يبدأ فيه يزيد بتريد أبيات الشعر الشهيرة لابن الزبيري ويفخر لنفسه بالإنجازات التي حققها سُلطانه تردُّ عليه زينب مُنادية : « أَظُنْتُ يَا يزيد حيث أَخَذْتَ علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نُساقُ كما تُساق الأسارى أَنْ بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة ؟ وَأَنْ ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك »^(١) نعم فهي تُريد أن تقول له والله إنك أمامي صغير جداً وحقير وديء ولا أرى فيك ذرة من الشخصية والكيانية الإنسانية . فانظروا إلى هذه المجموعة من الأسرى من آل بيت الرسول (ص) ، فهم عملياً قد فقدوا كل شيء يملكونه ، ما عدا الإيمان والشخصية الروحية والمعنوية . ألا تتوقعون إذاً لشخصية مثل شخصية زينب أن ترسم ملامح ملحمة حسينية جديدة وتُحدث انقلاباً وثورة حقيقية في الشام ؟ وهذا هو ما حصل بالفعل .

لقد أجبر يزيد في الآن أن يُغيّر أسلوبه في معاملة الأسرى فأمر بإرسالهم إلى المدينة بشكل محترم كما اضطر كذلك للإعلان عن تبرئه من قتلة الحسين (ع) وألقى باللائمة على ابن زياد وقال ألا لعنة الله على ابن زياد فإنني لم أمره بهذا وإنه هو ابن زياد قد فعلها من عنده !! فمن كان وراء تلثم يزيد وارتبأكه ؟ إنها العقيلة زينب (ع) .

وهي التي أنهت خطبتها في ذلك المجلس قائلة : « يا يزيد كد كيدك واسع

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ١٣٣ . مقتل الحسين للمقمّر ص ٤٦٢ . اللهورف ص ٧٦ .

سميك وناصب جهذك فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا^(١)، فها هي زينب تُنادي مَنْ يخافه الناس ، ويرتعبون منه ، ويُنادونه بأمر المؤمنين بكلّ احتقار - يا يزيد - اعمل ما شئت ولكنك كن على ثقة بأن ذكرنا غير قابل للفناء ، بل إنما أنت الغاني والمنهزم على الدوام .

لقد كانت خطبة العقيلة زينب كافيةً لأن تُحرس يزيد وتُسكنه تماماً ، فاشتعل غضباً ، وزاد غيظ ذلك الشقي اللعين ، وسيطر على وجوده كله ، ولكنه لما كان عاجزاً عن ردّ الحجة بالحجة ، ومواجهة التحدي بمثله ، اضطر ليُظهر حقه ودناءته بطريقة ، أراد من ورائها ، إحراق قلب زينب ، وإسكانها ، وقلب الموقف ضدها ، من خلال عمل يفتقد إلى الرجولة والإباء ، عندما أشار بعصاه الخيزران إلى شفاه وأسنان أبي عبد الله الشريفة الطاهرة .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .



(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ١٣٥ ، اللهوف ص ٧٧ .

القسم الثالث

عامل التبليغ في النهضة الحسينية

(التبليغ في الاسلام)

- المحاضرة الأولى : مفهوم التبليغ
- المحاضرة الثانية : أدوات ووسائل إبلاغ الرسالة
- المحاضرة الثالثة : منهج التبليغ
- المحاضرة الرابعة : أساليب التبليغ في النهضة الحسينية
- المحاضرة الخامسة : واقعة كربلاء تجسيم عملي للإسلام
- المحاضرة السادسة : دور أهل بيت سيد الشهداء في تبليغ النهضة الحسينية
- المحاضرة السابعة : شروط المبلغ والتأثير الدعائي لأهل بيت الحسين في مدة الأسر

المحاضرة الأولى

مفهوم التبليغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيه وصفيه ، سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين .

﴿ الذين يُبَلِّغُونَ رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ﴾^(١) .

كما أنَّ حديث الناس من ناحية البساطة والتعقيد يمكن أن يكون حديثاً بسيطاً وسهلاً وذا معنى واحد أو ذا وجوه وأبعاد متعددة وفيه ظاهر وباطن مختلفان فإنَّ الثورات والحركات الإنسانية أيضاً ينطبق عليها المعنى نفسه . فنحن يمكن أن نسمع نوعين من الحديث : حديثاً ذا معنى واحد وحديثاً ذا معاني متعددة ومختلف الأبعاد ولنا في القرآن الكريم خير مثال على ذلك . فالقرآن تنقسم آياته إلى نوعين من الآيات : آيات محكمات وأخر متشابهات .

فالآيات المحكمات هي تلك الآيات ذات المعنى الواحد إن من حيث

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .

اللفظ ، أو من حيث العبارة والمعنى ، أي إنه لا يمكن استنباط أكثر من مفهوم ومعنى واحد من تلك الآيات .

بينما الآيات المتشابهات هي تلك الآيات التي يمكن استنباط معاني عدة منها وحتى لا نقع في الخطأ نتيجة تشابه المعاني في مثل هذه الآيات ينبغي علينا العودة إلى الآيات المحكمات في تفسيرها والآية المحكمة هنا بمثابة « أم الكتاب » .

لقد قلنا إن الثورات والحركات الإنسانية هي الأخرى ينطبق عليها هذا التقسيم . فقد تكون نهضة ما ذات معنى واحد وهدف واحد ، وربما تكون متشابهة المعاني والغايات ، وإن تلك الأهداف مجتمعة تصب في هدف أساسي واحد . نعم فقد تحمل النهضة في داخلها وجوهاً متعددة وأبعاداً مختلفة .

إن نهضة الإمام الحسين (ع) يمكن اعتبارها نهضة ذات معاني ووجوه وأبعاد مختلفة . والسبب في وجود التفسيرات المتعددة لهذه النهضة يكمن في محاذاة العوامل لبعضها البعض وتداخل تأثيرها .

فإننا لو نظرنا مثلاً إلى هذه النهضة من زاوية بعض العوامل المتداخلة فيها ، نرى أنها تظهر وكأنها محض تمرد وعدم استسلام للسلطة الجائرة ، ورفض الرضوخ لمطالب الحكم غير الشرعية . فمن هذه الزاوية نرى أن هذه النهضة عبارة عن عملية نفي وعدم تسليم للأمر الواقع . وهذه الناحية نعرفها جميعاً .

فبعد موت معاوية ، وتسلم يزيد السلطة ، وبعد كل تلك المؤامرات التي حيكت ، رأى (يزيد) لزوم أخذ البيعة من عدد من الوجوه البارزة ، والشخصيات المرموقة في العالم الإسلامي آنذاك ، وعلى رأسهم شخص الحسين بن علي (ع) تلك الشخصية المقدسة التي كان يحسب لها ألف حساب حتى يمكنه من وراء ذلك إسكات كل الناس وخنق أصواتهم ، وكان يرمي في الواقع إلى أخذ تعهد من الحسين بن علي (ع) بشأن عدم مخالفته للحاكم الجديد .

فبعد موت معاوية بعث يزيد ، على الفور ، رسالة مستعجلة إلى حاكم

المدينة (الوليد بن عتبة بن أبي سفيان) وهو من بني أعمامه يُخبره فيها بموت (معاوية) ، وتسلمه هو مكان أبيه مركز الخلافة ، ضم إليها وريقة مستقلة ، كتب عليها أسماء بعض الشخصيات البارزة ، وعلى رأسهم الحسين بن علي (ع) ، طالباً إليه أخذ البيعة منهم بأي شكل كان .

ومعروف أنّ الإمام الحسين (ع) لم يقبل بإعطاء البيعة [وهي القصة التي ربما سمعتموها مراراً] وبعد توقف قصير في المدينة ، مع علمه أنهم لن يتركوه وشأنه ، عزم مع أهل بيته على التوجّه إلى حرم الله الأمن - بيت الله الحرام - في (مكة) . ويبدو أنّ خبر موت (معاوية) كان قد وصل إلى المدينة في نهاية شهر (رجب) وهو الوقت الذي طُلبت فيه البيعة من الإمام الحسين (ع) .

ربما كان اليوم الذي انطلق فيه الإمام الحسين (ع) باتجاه مكة هو اليوم السابع والعشرون من شهر (رجب) المرجّب وكان اليوم الذي وصل فيه إلى مكة هو اليوم الثالث من شهر (شعبان) وهو ما يُصادف يوم ولادته حيث أقام فيها حتى اليوم الثامن من (ذي الحجة) . على كل حال فإنّ الحسين لم يكن مستعداً على الإطلاق لتمكينهم من أخذ البيعة منه .

وجواب النفي هنا يُعطي لهذه النهضة ماهيةً خاصةً هي ماهية النفي ، وعدم التسليم والرضوخ لمطالب سلطة العصر الفاشية .

العامل الآخر ، الذي يتداخل في هذه النهضة هو عنصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو ما ورد بوضوح وبشكل صارم في أقوال الحسين بن علي (ع) وبيّنته الشواهد والدلائل الكثيرة أيضاً . أي إنّنا لو افترضنا جدلاً أنهم لم يطلبوا البيعة منه فإنه لم يكن هو ليسكت عنهم هذه المرة .

وأما العامل الآخر فهو عامل إتمام الحُجة . ففي ذلك الزمان كان العالم الإسلامي يتشكل من ثلاثة مراكز مهمة ومؤثرة :

المدينة : وهي دار هجرة النبي ، والشام : وهي دار الخلافة الراشدة آنذاك ، والكوفة وهي دار خلافة أمير المؤمنين علي (ع) سابقاً إضافة إلى كونها

مدينةً جديدةً بثأرها الجند في زمن (عمر بن الخطاب) ، واعتبروها معسكراً إسلامياً ، ولذلك تراها كانت تنافس الشام ، وتعادها في ميزان القوى العام .

فعندما يسمع أهل الكوفة ، أي أهل معسكر العالم الإسلامي ، نبأ عدم قبول الإمام الحسين (ع) بمبايعة (يزيد) تراهم يُرسلون إليه بشائية عشر ألف رسالة، وتذهب هذه الرسائل إلى المركز ، يطلبون فيها من الإمام الحسين (ع) القدوم إلى الكوفة ، وأنهم ، في حال قدومه ، سيكونون له خير مدافع وخير معين .

وهنا يصبح الحسين (ع) أمام منعطف تاريخي خطير ، فلما أن يرفض طلبهم فيكون حكم التاريخ عليه قاسياً ، ويُتهم عندئذ بأنه لم يستغل الفرصة المناسبة والمواتية جداً ، أو أن يُقال إنه لم يرد استغلالها إما خوفاً أو لأي سبب آخر ، أو أن يُتمم الحُجة عليهم وهم الذين مدّوا أيديهم إليه فيجيبهم بقبول الدعوة ، وهو الأمر الذي سمعتموه أيضاً بالتفصيل . وهنا تأخذ نهضة الحسين مرة أخرى ماهيةً وشكلاً وبعداً ولوناً آخر .

ومن جملة الأبعاد الأخرى لهذه الحركة هو بُعدها التبليغي . أي إن هذه النهضة ، في الوقت الذي كانت فيه تعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جهة ، وإتماماً للحُجة من جهة أخرى [وفي ذات الوقت الذي شكّلت فيه نوعاً من عدم الاستسلام لشروط ومطالب السلطات الغاشمة لذلك العصر والزمان] فإنها شكّلت في أحد أبعادها معنى التبليغ وأداء الرسالة والتعريف بالإسلام .

وحتى نبدأ بحثنا لا بدّك من شرح معنى التبليغ وتوضيحه لا سيما الفرق بينه وبين مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يتضح للمتبع أن عنصر التبليغ في النهضة الحسينية ، غير عنصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيها .

والتبليغ مصطلح ورد استعماله كثيراً في القرآن الكريم . ففيه وصف أنبياء الله مثلاً على أنهم من المبلغين للرسالات الإلهية . والأمر لم يكن محصوراً بالأنبياء طبعاً فقد ورد هذا التعبير في غير مورد أيضاً ؛ فالقرآن مثلاً ينقل على لسان الأنبياء

في قوله تعالى : ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾^(١) أو كما ورد حول الأنبياء في قوله تعالى : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ ﴾^(٢) . على كل حال فالمقصود أن كلمة « بلاغ » و« تبليغ » و« يبلغون » وسائر التصريفات المتفرعة عنها قد ورد استعمالها كثيراً في القرآن الكريم ، فما معنى هذه الكلمة ؟

للأسف فإن هذه الكلمة في لغتنا الفارسية قد أخذت كما هو متعارف عليه اليوم طابعاً نحساً ومُنفراً حيث صارت تعني في اللغة اليومية المتداولة العمل بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لخداع الناس وإغرائهم وإقناعهم بشراء أو اقتناء هذه البضاعة أو تلك من البضائع المعروضة في السوق^(٣) .

ولذلك ترى البعض يتوسل بها أحياناً عندما يُريد التكلّم عن موضوع معين والإثبات بأنه موضوع لا أساس له من الصحة فيقول يا مولانا هذا « تبليغ » وكذب وخداع . ولذا ترى أنّ البعض لا يُجَبِّد استعمال هذا المصطلح في الشؤون الدينية . لكنني سبق لي وأن قلتُ للأخوة في جلسة أخرى بأنّه لا يجوز لنا أن نترك ونهجر هذه الكلمة التي تحمل معنىً صحيحاً لا سيّما وأنّها وَرَدَتْ كثيراً في القرآن الكريم) وفي (نهج البلاغة) بسبب المعنى التحريفي الذي طرأ عليها ، ونحكم عليها بناءً على المعنى الجديد ، بل لا بد لنا من شرح معناها الصحيح للناس على الدوام .

إنّ كلمة تبليغ لها معنىٌ مقارب لمعنى الوصول والإيصال . هناك في اللغة العربية مثلاً موارد كثيرة تتداخل فيها المصطلحات بشكل ظريف ودقيق لا قدرة لنا نحن أبناء اللغة الفارسية على استيعابها أو تذوّقها . ففي اللغة العربية توجد كلمة « إيصال » مثلاً كما توجد كلمة « إبلاغ » . فما معنى الإيصال ؟ كأن تقول

(١) سورة الأعراف : الآية ٧٩ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٩٩ .

(٣) تستخدم كلمة تبليغ في الفارسية المتداولة بمعنى كلمة الدعاية والإعلان في العربية - المترجم - .

مثلاً أوصلتُ قطعة القماش فتصبح بالفارسية « رساندم » وإذا قلنا ما معنى « الإيلاغ » بالفارسية ؟ كأن تقول أبلغتُ الأمر كذا وكذا . فإنك ستجد أنّ معناه بالفارسية هو : « رساندم » أيضاً . وهذا يعني أنّ الفارسية تستخدم نفس المصطلح في كلتا الحالتين . بينما اللغة العربية لا يمكنها أن تساوي بين مصطلحي « الإيصال » و « الإيلاغ » . فمصطلح الإيصال لا يُستخدم إلا إذا كان المقصود إيصاله هو شيء ما بيد شخص ما إلى مكان ما أو شخص ما . أي إن مصطلح الإيصال لا يستخدم إلا في إطار الأمور والقضايا الجسميّة والماديّة . كأن توصل رسالة أو ظرفاً إلى شخص ما ، أو أنّ أمانةً معينة - على أن تكون مادية - تُلب منكَ أن توصلها إلى أصحابها فعندها يُستخدم مُصطلح « إيصال » ويقال إنك أوصلتُ الأمانة مثلاً .

في حين أنّ مصطلح الإيلاغ لا يُستخدم إلا بمعنى إيصال الفكرة أو الرسالة المعنوية ، أي عندما تُريد إيصال شيء ما إلى فكر وروح وضمير وقلب إنسان ما . ولذلك فإنّ محتوى ومضمون الإيلاغ لا يمكن أن يكون أمراً مادياً وجسمياً بل إنه لا بدّ وأن يكون أمراً معنوياً وروحياً ، ولا بدّ أن يكون فكراً أو إحساساً أيضاً . وبعبارة أخرى يُستخدم مصطلح الإيلاغ في حالة إيصال سلام أو خبر أو فكرة معينة إلى الآخرين ، فيقال مثلاً : أبلغُ سلامي ، أو أبلغُ هذا الأمر . فعندما يُبلغُ أمرٌ ما يعني ذلك أنّ فكرة ما أو شأناً من الشؤون المعنوية قد أبلغ للآخرين ، وعندما يُبلغ المرء سلاماً فإنه يُبلغ الإحساسات والمحبة والعشق إلى الآخرين .

وعليه فإنه في الموارد المشابهة لما ذكرنا أعلاه لا بدّ من استخدام مصطلح الإيلاغ والتبليغ فيها وفي القرآن الكريم ورد ذكر هذا المصطلح أيضاً عندما ورد ذكر الرسائل التي هي عبارة عن مجموعة من الأفكار .

وعليه فالتبليغ هو عبارة عن إيصال مفهوم أو أمر ما من إنسانٍ إلى إنسانٍ آخر . وكلمة « بيامبر » الواردة في اللغة الفارسية والتي تعني (النبي) عبارة عن ترجمة لكلمة « الرسول » العربية ، وهي الكلمة التي تعني بالعربية مبلغ الرسالة . وكلمة (الرسالة) العربية لحسن الحظ أخذت منحىً إيجابياً في تطورها وتداولها في

اللغة الفارسية . بالطبع فنحن أبناء اللغة الفارسية (وإلى حد ما أبناء العربية)
نستخدم كلمة الرسالة في المفهوم المتداول بغير مفهوم الكلمة الذي يستخدمه
القرآن الكريم .

فالعادة المتبعة عندنا هي القول بأن فلاناً قد كتب رسالةً في الموضوع الفلاني
وذلك عندما يكتب في موضوع ما بمقدار كراس صغير لا يتجاوز حجمه حجم
الكتاب . في الوقت الذي لا يحمل فيه الموضوع أية رسالة معينة مثلاً ، كأن
يكتب الواحد منا كراساً أو مقالاً مطوّلاً حول جذور مصطلح أو مفهوم من
المفاهيم اللغوية أو حول قواعد اللغة الفارسية أو قواعد اللغة العربية فيقولون عنه
إنه كتب رسالته في الموضوع الفلاني في الوقت الذي نرى فيه أنّ هذا الموضوع
(الجذور اللغوية) لا يرتبط بهذه التسمية .

فمصطلح (الرسالة) ينبغي استخدامه في المكان الذي يكون فيه مجال
الحصول معنى « الإبلاغ » . أما أن يأتي أحدنا ويُقدّم حلّاً لمسألة علمية أو أدبية
ما ، دون أن يكون حاملاً لأية رسالة ، أو بلاغ معين للناس ، ثم نأتي نحن
ونستعمل كلمة الرسالة لعمله فهذا أمر لا يجوز ولكن لحسن الحظ يبدو أنّ
استخدام مصطلح « الرسالة » مؤخراً في اللغة الفارسية قد أخذ منحىً جديداً أكثر
إيجابية . حيث صار يُقال إنّ فلاناً عنده رسالة خاصة تجاه مجتمعه أي إنّ مصطلح
الرسالة صار اليوم يُستخدم عندما يُراد القول إنّ فلاناً يحمس بمسؤولية خاصة تقع
على عاتقه تجاه مجتمعه ، وإن عليه أداءها . وهذا الاستخدام الجديد إذا لم يكن
متطابقاً مع التعبير القرآني لكلمة « الرسالة » فإنه قريب منه جداً .

بعبارة أخرى إنّ الاستخدام الجديد لهذا المصطلح في مجتمعتنا الحاضرة
قريب جداً من استخدام القرآن الكريم له وذلك في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ
رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾^(١) وهذا شرط مهم من شروط
الرسول والمُبلِّغ أي - خشية الله - ستطرق إليه لاحقاً إذا ما وقفنا إلى ذلك إنّ شاء
الله .

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .

والآن بعد أن عرفنا معنى « الإبلاغ » و« التبليغ » نستنتج إن مفهوم التبليغ الذي ورد في القرآن الكريم هو غير مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . صحيح أن هناك علاقة بينهما ، لكنها يظان رغم ذلك مفهومين مختلفين .

التبليغ هو مرحلة من مراحل التعريف والإيصال الحسن للفكرة ، أي مرحلة المعرفة ، في حين أن عمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعود لمرحلة الإجراء والعمل . فالتبليغ وظيفة عمومية مُلقاة على عاتق المسلمين جميعاً كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة عمومية أخرى .

إن الواجب الملقى على عاتق كل مسلم من ناحية التبليغ هو ذلك الإحساس الذي ينبغي أن يتولد في داخله بأنه هو أيضاً حامل لرسالة الإسلام ، في حين أن الواجب الملقى على عاتق كل مسلم في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو ذلك الإحساس الذي ينبغي أن يتولد فيه بأنه هو الآخر جزء من القوة الإجرائية والتنفيذية لهذه الرسالة والتي يجب عليه أن يطبقها ويُنفذها عملياً ويُلبسها لباس العينية في المجتمع . من هنا فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيء والتبليغ شيء آخر .

وعليه فإنه مثلما يوجد هناك جانب ويُعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النهضة الحسينية يوجد كذلك بُعد التبليغ فيها ، إن هذه النهضة نهضة متشابهة ومتداخلة الأبعاد والمعاني ومن جملة الأهداف والمقاصد التي احتوتها هو أنها عُرِفَت الإسلام كما هو وكما يجب أن يكون . لقد أبلغت نداء الإسلام إلى عالم البشرية وعرضته على الجميع وبشكل بليغ جداً ! وكما ذكرت في البداية فالخطاب نوعان : محكم ومتشابه . وتعرفون أيضاً أن الخطاب ينقسم من زاوية أخرى أيضاً إلى قسمين : بليغ وغير بليغ .

فعلماء الإسلام يُشخصون بعضاً من الخطابات والأحاديث على أنها خطابات وأقوال بليغة وفصيحة ، فأي القول يمكن اعتباره قولاً بليغاً ؟

إنه ذلك القول الذي يستطيع أن يوصل منظور وهدف القائل على أحسن

وجه وأتمه إلى فكر وروح وإحساس الطرف المقابل .

إنه القول الذي يتمكن من إيصال هدف القائل حقاً وحقيقة .

النهضة هي الأخرى بهذا الشكل ، فهناك نهضة 'ايغة' وأخرى غير بليغة :

فالنهضة البليغة هي تلك النهضة القادرة على إيصال ما تريد إيصاله من رسالة إلى القلوب والأفكار والإحساسات البشرية على أحسن وجه ممكن . فعندما ننظر إلى النهضة الحسينية من هذه الزاوية نرى أنه ليس هناك نهضة أبلغ وأفصح منها في الدنيا كلها :

فهي من الناحية المكانية وأبعادها الكونية قد بلغت في التأثير مدى الكون كله .

وهي من الناحية الزمانية ليس فقط لم يتناقص نفوذها وتأثيرها بعد مرور أربعة عشر قرناً على وقوعها بل إنها زادت قدرة ونفوداً . إنها نهضة فوق العادة قوية وعظيمة .

والآن لا بدّ لنا من البحث حول موضوع التبليغ نفسه حتى نعرف جيداً عناصر التبليغ التي تتكون منها النهضة الحسينية ونبيّنها . لقد عرفنا معنى ومفهوم التبليغ وعرفنا أيضاً أنّ القرآن الكريم أكّد كثيراً على مفهوم التبليغ . وهناك جملة معروفة وردت بشأن بعثة الأنبياء في نهج البلاغة تقول : « فبعث فيهم رُسُلَهُ ، وواتر إليهم أنبياءه ليستأذوهم ميثاق فطرته ويذكروهم مني نعمتي ويحتجوا عليهم بالتبليغ »^(١) .

أي يُريد أن يقول لهم : إن الدين ليس أمراً مفروضاً على البشر بل إنه جواب على نداء الفطرة البشرية ، إنه العهد الذي قطعه الله مع عباده . وهو العهد الذي لم يُكتب على الورق ، ولم ينطق بالالفاظ ، ولا كان بالصوت ، ولم

(١) نهج البلاغة قبض الإسلام المخططة الأولى القسم ٣٦ ص ٣٣ .

يحصل بطريقة البيعة ، بل إنه خُطَّ بقلم القدر في عمق الروح والطبيعة الإنسانية أي إن الرسل جاؤوا ليقولوا : أيها الناس ! لا تُريد منكم إلا الرفاء بعهدكم الذي عاهدتم الله به وليس شيئاً آخر . « ويُذكروهم منِّي نعمته » ، فالأنبياء إنما هم مُذكرون - « ومحتجوا عليهم بالتبليغ » . وحتى يُبلغوا الناس رسالة الله وبهذا يكونون قد أتموا حجتهم على الناس . ثم يقول : « ويُثيروا لهم دفائن العقول »^(١) (ما أبلغها من جمل) .

نعم فالرسل إنما جاؤوا ليزيلوا الغبار وطبقات التراب المتراكمة والمُكدَّسة على عقول الناس وقلوبهم كي يخرجوا تلك الجواهر المدفونة في أعماق باطن الناس وفي أفكارهم وأرواحهم وعقولهم ؛ نعم لقد جاء الرُّسل ليظهروا هذه الجواهر الكامنة في داخل الناس أنفسهم وجلانها لهم مرة أخرى ، إذ كل فرد منا يملك جوهرة في بيت روحه ونفسه وهو لا يعلم عنها شيئاً . لقد جاء الأنبياء حتى يُبرزوا هذه الجواهر من أجل أن يتمكن كل واحد منا من إخراجها بكل شوق وحرارة وابتهاج .

فأنبياء الله جميعاً من المُبلِّغين حسب هذا المعنى الذي سبق شرحه لكنهم ليسوا جميعاً مُشرِّعين ، ولذلك فإن الأنبياء على نوعين :

فهناك الأنبياء المُشرِّعون والمُبلِّغون في آنٍ معاً .

وهناك الأنبياء المُبلِّغون فقط . إنَّ الأنبياء المُشرِّعين هم الأنبياء الذين يُسنون القوانين وعددهم قليل ومجموعهم لا يتجاوز الخمسة : - نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لكن الأنبياء جميعاً يمكن اعتبارهم من المُبلِّغين للرسالات الإلهية ، كما أنهم من الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر . فأنتم عندما تسمعون بمجيء مائة وأربعة وعشرون ألفاً من الأنبياء لا يجوز أن تتصوروا بأن كل واحد منهم كان يسنُّ قوانين جديدة للبشر .

(١) المصدر السابق .

فالذين جاؤوا بالقوانين محدودون. أما سائر الرُّسل فإنهم مُبلَّغون لرسالات الأنبياء المرشِّعين ، وعلينا أن نطلق عليهم الرُّسل التبليغيين . كما أنه سوف لن يأتي نبيٌ مُشرِّع بعد نبي آخر الزمان وخاتم الأنبياء ولا أي رسول تبليغي كذلك . غير أن المبلِّغين سيستمرُّون في الظهور ، كيف؟ لما كانت دورة الخاتمية بمشابهة دورة الكمال والبلوغ البشري فإن الوظيفة التي كانت مُلقاة قبلاً على عاتق الرُّسل المائة والأربع وعشرون ألفاً - أي مهمة التبليغ - لا بد وأن يقوم بها اليوم عامة الناس ، العلماء وغير العلماء . ولهذا فإنَّ المُبلِّغين الواقعيين للإسلام هم أولئك البشر الحاملون لرسالة الرُّسل . أي إنهم أولئك النمط من البشر الذين يُبلِّغون رسالة الأنبياء إلى الناس .

ولكن ما هو شرط نجاح الرسالة ؟ وما هي هيئة الرسالة التي يمكن لها أن تكون موفقة ؟ وهل إنَّ الإسلام بذاته رسالة موفقة ؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب فما هو سر نجاح الإسلام ؟

نقول : إنَّ شروط نجاح أية رسالة يتمثل في أربعة أشياء إذا ما توافرت في أية رسالة يكون نجاح تلك الرسالة أمراً قطعياً . ولكن لو فشلت هذه الشروط في الاجتماع ؟ فإنها ستخلق أشكالاً أخرى مختلفة عن الأصل :

الشرط الأول لنجاح أية رسالة هو عقلانيَّتُها ، وقوة محتواها أي إنَّ علينا أولاً أن نرى ما أوردته الرسالة للبشرية من حاجات ، وإذا ما كانت تلك الحاجات متطبقة مع المتطلبات العامة للإنسان وقادرة على أن تُلبِّي احتياجاته الإنسانية أم لا ؟ فالإنسان يملك مشات الحاجات الفكرية والاجتماعية والحسية والعملية والمادية والعاطفية وغيرها .

إنَّ أية رسالة ناجحة لا بدَّ لها أن تكون متطابقة مع الحاجات البشرية العامة . وينبغي أن تكون في الدرجة الأولى منطقية في طروحاتها أي أن تكون منسجمة مع الطرح الفكري والعقلي للإنسان ، وبالتالي قادرة على جذب عقل الإنسان نحوها .

ولهذا فإنَّ الرسالة التي تكون مناقضة لمنطق الإنسان وعقله وإنَّ كانت توافق الحسَّ البشري مثلاً سوف لن يكون بمقدورها الاستمرارية والدوام في مهمتها مهما طال بقاءها . من أجل هذا ترى القرآن الكريم يدعو الإنسان باستمرار إلى التعقل والتفكير ولم يتخلَّ القرآن لحظة عن العقل والمنطق بل إنك تراه يستخدم العقل بمثابة قاعدة وأساس في كافة طروحاته ، ويدعو إلى التعقل دوماً وعلى طول الخط .

ومن أجل أن يكون مضمون الرسالة غنياً وقوياً بما فيه الكفاية لا بد لها إذاً من أن تأتي منطبقةً مع احتياجات الحسَّ البشري ، فالإنسان بدوره يمتلك مركزاً للإحساسات والعواطف لا يمكن تجاوزه ، إلى جانب مركزه العقلي والفكري ، ولذلك فإنَّ انسجام طروحات أية رسالة وتوافقها مع الإحساسات والعواطف البشرية ، وإلى حد ما إشباع الإحساسات العالية والرفيعة والريفة للبشر ، بالإضافة إلى التناغم مع الحاجات الحياتية ، والعملية ، والموضوعية يمكن اعتبارها من الشروط الأخرى التي تُغني مضمون تلك الرسالة .

فالرسالة التي تصادم مع الحاجات الطبيعية للبشر لا تستطيع أن تكون رسالة موفقة .

هناك حديث يتم الاستناد إليه في الفقه أيضاً يقول فيه النبي الأكرم محمد (ص) : « الإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه »^(١) . وهو من الأحاديث التي تحتمل تفسيرات عدة وقد فسره كل مجموعة من العلماء من زاوية معينة ، واستنبطوا منه استنباطات متعددة ، والحديث هذا يمكن اعتباره من جملة أقوال النبي المشابهة . وبعبارة أخرى يمكن اعتباره من « جوامع الكلم » للنبي الذي تم فيه استخدام لفظ واحد لمعانٍ عدة . فعلماء الفقه مثلاً عندما يقفون عند هذا الحديث فإنهم يستنبطون منه بعض المقررات الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الإسلامي ويستخلصون من الحديث أنه لا ولاية ولا سيادة لغير المسلم على المسلم

(١) نهج الفصاحة ص ٢١٤ الحديث ١٠٥٦ .

أبداً ، وأنه لا يمكن للإسلام أن يقبل بمثل هكذا سيادة بشائناً ، كأن يأتي أحد من أهل الذمة (مثل اليهود أو المسيحيين وأحياناً الزرادشت) ويتحكم في شؤون المسلمين في المجتمع الإسلامي ! أو أن يتخذ من أحد المسلمين عبداً له ! فالفقهاء يقولون إنّ « الإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه » ومعنى هذا إنّ الإسلام لا بد وأن يكون فوق العقائد والنظريات الأخرى . وانطلاقاً من هذه الرؤية يتم استنباط الأحكام الفقهية الخاصة بهذا الموضوع .

إنّ المتكلمين ينظرون إلى هذا الحديث من زاوية أخرى ، فهم يتعاملون معه من الزاوية الكلامية (فالتكلمون يتعاملون مع الأحاديث والروايات على أساس المنطق والإستدلال والبحث والمحاكاة) ولهذا فإنهم يقولون :

إنّ هذا الحديث يعني أنّ منطق الإسلام هو المنطق الغالب . فهناك حيث تتم المواجهة بين منطق الإسلام ومنطق العقائد الأخرى وتتصارع الاستدلالات والمناهج والاحتجاجات فإن منطق الإسلام لا بد هو المتفوق والمتصر ، وهذا بُعد آخر لهذا الحديث .

وأما الذين تعاملوا مع هذا الحديث من الناحية الاجتماعية فهؤلاء أيضاً استنتجوا بدورهم استنتاجاً آخر عندما قالوا :

إنّ المقصود بأنّ الإسلام هو أفضل المناهج والرسالات والعقائد العملية والقابلة للتطبيق . ولماذا ؟ لأنّ قانون الإسلام هو القانون الأكثر انطباقاً أو تطابقاً مع الحاجات البشرية ولهذا تراه يفتح الطريق أمام حركة البشر العملية أفضل من غيره .

عندما ينظر المرء إلى أجهزة الدعاية المسيحية ويرى كل تلك الإمكانيات الواسعة والوسائل والأدوات التي بحوزتها بالإضافة إلى ضخامة الميزانية والعدد الهائل من القوة البشرية التي تضعها في هذا المجال وشبكة التنظيم المتطورة يعجب حقاً كيف أنّ الإسلام يستطيع المقاومة والصمود أمام كل تلك الحملة الدعائية المسيحية ؟ ! إنه لأمر عجيب حقاً !

فعندما ننظر إلى واقعنا نرى أنفسنا في مستوى الصفر من زاوية التجهيز الدعائي ، فليس هناك دين في العالم أضعف من الدين الإسلامي من ناحية جهاز الدعاية والتبليغ .

إن اليهود الذين يُشكّلون أقلية بين الأديان نراهم مجهّزين أحسن التجهيز في الخفاء . على الأقل بعوامل التحريف ، إنهم لا يملكون عوامل إيجابية يجذبون بواسطتها الناس إلى دينهم لكن عواملهم التخريبية كثيرة ، أي القدرة على تخريب الأديان الأخرى . فأنت ترى مثلاً أنّ اليهودي مستعد لقضاء سنين طويلة من عمره وهو يدرس ويتخصص في أحد الفروع الإسلامية حتى يتمكن من إشغال مقعد علمي في إحدى الجامعات فيُنَفَّذ بذلك ما يُحطّط له . أو أن يؤلف كتاباً وينث فيه من سموم أفكاره ما يشاء . فهل تعرفون (وهذا أمر سمعته مراراً من أهل الخبرة والأطلاع) أنّ ٩٠٪ من مقاعد الدراسة العلمية لعلوم الاستشراق في العالم هي بحوزة اليهود ؟ نعم فمستشرقو العالم هم اليهود ! تصوروا كم هي قدرتهم على التخريب ! تلك هي المسيحية وهذه هي اليهودية ! يكفي أن تنظروا إلى الفرقة الفاسدة والفضالة كما سمينموها في بلادنا هذه وتروا مقدار قوة أجهزتها الدعائية (١) !

مع ذلك كله فقد قرأت قبل عدة سنوات في إحدى صحفنا المحلية (نقلاً عن صحيفة (لوموند) الفرنسية) بأن أربعة عشر مليوناً من سكان العالم قد انضموا إلى الإسلام في السنوات الأخيرة فقط . فما هي وسائل الدعاية التي أتت بهم إلى الإسلام ؟ وهل كان هناك مُبلِّغ واحد مخصص لهذا العمل ؟ كل ما هنالك ربما كان لدى هؤلاء الناس أجهزة الراديو الصغيرة (الترانزستور) التي كانوا يستمعون بها إلى بعض البرامج التي تُذاع باللغة العربية عن الدين الإسلامي . إنني عندما تحدّثت إلى أحد المُطلعين من الأصدقاء القاطنين في (أوروبا) قال لي : إنّ الرقم الذي أعطته (لوموند) ليس دقيقاً فلنأتي سبقي لي وأن تكلمت مع إحدى

(١) أعتقد أنه يقصد الفرقة البهائية - المترجم -

الشخصيات الدينية المسيحية البارزة حول هذا الموضوع وقال : إنَّ عدد الذين انضموا إلى الإسلام بلغ خمسة وعشرين مليوناً .

ثم أضاف بأن القارة الأفريقية الآن أمام ظاهرة حادة وبارزة وهي أنَّ قوتين أساسيتين اليوم في حالة تقدم سريع هناك ، هما : الإسلام والشيوعية وأنَّ كل وسائل التبشير المسيحي غير قادرة عل وقف هذا النمو السريع لهذين التيارين .

يحدث هذا والأجهزة الدعائية المسيحية هي القوية بينما أجهزة الدعاية الإسلامية ضعيفة للغاية فنستج من ذلك أنَّ المضمون والمحتوى للرسالتين مختلف ؛

فمضمون المسيحية لا يتعدى الحالة الإحساسية والعاطفية رغم قوتها في هذا المجال لكن المضمون الإسلامي مضمون ذا منطق قوي .

ومضمون المسيحية يحمل في طياته حالة الفرض والإجبار بينما مضمون الإسلام مضمون عملي يتلاءم ونسيج الحياة الاجتماعية العام .

فالمنطق الإسلامي يدخل إلى النفوس مثلما يدخل الماء إلى فم العطشان ، ويمر عبر البلعوم بكل سهولة ونعومة . فمن خلال العقل يثبت وجود الله وفكرة التوحيد .

في مقابل ذلك ترى المنطق المسيحي يبدأ من اللحظة الأولى بوضع العقل جانباً ويدعو إلى فكرة التثليث !

إنها أيام محرّم الحرام ونحن إنما طرحنا هذه الموضوعات من أجل أن نشرح الرسالة الحسينية إلى الناس ونُبين لهم كيف أنَّ النهضة الحسينية نهضة تحمل لواء الإسلام ، وكيف أنَّ الإمام الحسين قد استطاع بنهضته هذه أن يُبلغ رسالة الإسلام إلى العالم كله .

في الثامن من (ذي الحجة) وهو اليوم الذي يتوافد فيه الحجاج إلى مكة من

كل حذب وصوب ، في اليوم الذي يتحرك فيه الناس نحو (منى) و (عرفات) ترك الإمام الحسين (ع) (مكة) وراءه بعد أن خطب خطبته الغراء وانطلق عازماً إلى العراق كما جاء في رواية السيد (ابن طاوس) ، وانتقل من موقع إلى موقع حتى وصل الحدود العراقية وهو لا يعلم بعد ماذا يجري في (الكوفة) من أحداث .

ففي هذه الأثناء كانت حادثة مؤلة وعجيبة تقع (لمسلم بن عقيل) في الكوفة ، فلقد شاهد الإمام الحسين (ع) في الطريق رجلاً قادمًا من الكوفة ومتجهًا نحو مكة . [الطرق في الجزيرة العربية لم تكن محاذية لبعضها البعض بحيث يكون الذهاب والقادم مجبرين على لقاء أحدهما بالآخر ، فالطريق عبارة عن صحراء مترامية الأطراف تفصل بين الذهاب والقادم فيها مسافات طويلة] فتوقف لحظة إشارة منه لذلك الشخص برغبته عليه السلام بلاقائه ، ولما كان هذا الشخص معروفًا من قبل الإمام الحسين (ع) وهو يحمل خبراً سيئاً ومؤسفًا ، فإنه لم يرد التوقف حتى لا يسأله الإمام عن أخبار (الكوفة) فيضطر لإخباره بتلك الأخبار المؤسفة ، ولذلك فقد حَرَفَ طريقه باتجاه آخر .

من ناحية ثانية كان هناك رجلان من قبيلة بني أسد ممن أنبيا مناسك حجها بسرعة واتجهوا مُسرِعين للالتحاق بقافلة الحسين (ع) وفي نيتها نصرته (أبي عبد الله) .

وشاءت الأقدار أنهما التقيا بهذا الشخص القادم من (الكوفة) ، والذي لم يتوقف عند قافلة الحسين (ع) . عند اللقاء انتسب الطرفان حسب الأصول والتقاليد العربية ، فلذا بالرجل من بني أسد وبعد حصول المزيد من السؤال والجواب ، وتوصل الطرفين إلى اقتراب نسب بعضهما من البعض الآخر سأل الرجلان القادمان من المدينة ذلك الرجل القادم من العراق : ما أخبار الكوفة عندك ؟ فقال لهما : إنه يحمل أخباراً سيئة من (الكوفة) وإنَّ الحسين (ع) قد حاول أن يستوقفه وهو في الطريق قبل أن يصل إليهما ، ولكنه لما كان لا يُريد إخبار الإمام بتلك الأخبار السيئة فقد استكمل طريقه حتى وصل إليهما الآن ،

وهكذا أخبرهما بقضايا (الكوفة) وما جرى فيها (لمسلم) وأصحابه .

وبعد أن سمع هذان الرجلان ما سمعاهُ واصلاً طريقهما في إثر الحسين (ع) حتى وصلا النقطة التي نزل عندها لكنهما لم يُخبراهُ على الفور بل انتظرا بعض الوقت حتى نزل عليه السلام منزلاً آخر ، وكان قد مضى ليلة ويوم على لقائهما بذلك الرجل .

كان عليه السلام يجلس في خيمة ، وقد أحاطت به مجموعة من صحبه وأنصاره ، فدخل الرجلان وجلسا مع الجالسين ، وقال يا أبا عبد الله ! نريد إبلاغك ببعض الأخبار فهل تسمح لنا بعرضها عليك هنا في هذا المجلس ، أو أنك تريد أن تسمعها في الخلوة ؟ فقال لهما قولاً كل ما عندكما بحضور أصحابي فانا لا أخفي شيئاً عنهم . فقال أحدهما : يا بن رسول الله ! إننا قد التقينا بذلك الرجل الذي لمحتهُ عن بُعد ، ولم يتوقف عندك ، وهو من المعتمدين وأصحاب الثقة لدينا ، فنحن نعرفه جيداً ، ونحن وإياه أبناء عشيرة واحدة ، إنه من بني أسد ، وقد سألناه عن أخبار (الكوفة) فكانت لديه أخبار مؤسفة عنها فهو يقول : إنه لم يخرج من الكوفة إلا بعد أن رأى بعينه استشهاد (مسلم) و (هاني بن عروة) وإنه قد رأى جسديهما مربوطين بالحبال وسُحلان في أزقة (الكوفة) وأسواقها .

فما أن سمع أبو عبد الله (ع) خبر شهادة (مسلم) حتى اغرورقت عيناه بالدموع لكنه شرع فوراً بقراءة الآية الكريمة : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ (١) .

في مثل هذه الظروف تُرى ماذا يُنتظر من أبي عبد الله (ع) أن يقول : هل يقول بأنه ما دامت (الكوفة) قد تمت السيطرة عليها و (مسلم) قد قُتل و (هاني) كذلك فإن مهمتنا قد انتهت ، ونحن قد فشلنا فلنرجع من حيث أتينا . لا أبداً

(١) سورة الاحزاب : الآية ٢٣ .

فقد قرأ تلك الآية الكريمة التي عبّرت بدقة عن الموقف . فالآية يبدو أنها كانت قد نزلت بشأن معركة الأحزاب . أي بعد أن قُتل من قتل من المؤمنين في تلك المعركة واستشهد على طريق الحق ، فيما بقي الآخرون ينتظرون دورهم في الفداء والتضحية .

نعم فمسلم قد أدّى واجبه ونحن على الطريق سائرون ، وبالطبع فإن أصحابه عليه السلام قد قالوا قولتهم ووقفوا وقفهم الشجاعة إلى جانبه ، لكن ذلك جعل عدداً من الأعراب ممن التحق به في وسط الطريق ، ظناً منهم أنه يأتي بلداً ، سيحصلون فيه على الغنائم والأرزاق ، ولكنهم ما إن سمعوا بأنخبار (الكوفة) هذه حتى تفرّقوا ميمناً وشمالاً « ولم يبق معه إلا أهل بيته وصفوته » وقد كان عددهم قليلاً آنذاك ، لكنه أضيف إليهم فيما بعد عدد لا بأس به من الأفراد المُغرّرين ممن كانوا في جيش (عمر بن سعد) لكنهم كانوا يعودون إلى رشدهم واحداً واحداً ، ويلتحقون بمعسكر الحسين في معركة كربلاء .

ربما لم يكن عددهم يتجاوز العشرين آنذاك . لقد جاء خبر استشهاد (مسلم) و (هاني) الفجيع إلى أبي عبد الله وصحبه وهو في تلك الظروف الصعبة . يقول صاحب لسان الغيب : « بعض المؤرخين يقول لما كان أبو عبد الله الحسين (ع) لا يُخفي شيئاً عن أهله وأصحابه ، فإنه كان عليه أن يذهب إلى خيمة النساء والأطفال ليُخبرهم بشهادة (مسلم) في الوقت الذي يوجد بينهم عدد من عائلة (مسلم) ، أطفال (مسلم) وإخوته الصغار ، أخته وبعض أخوات عمومته وأقربائه » .

فكيف يُطلعهم أبو عبد الله على هذا الخبر لقد كان له (مسلم) بنت صغيرة فنأدى ابنة (مسلم) وقال: إيتوني بها. فجاؤوا بابنة (مسلم) فأجلسها على ركبتيه وصار يُلاعبها ، لقد كانت البنت ذكية ، وشديدة الملاحظة إذ رأت أن الملاحظة التي تراها الآن ملاطفة غير عادية ، ملاطفة الأب لبنته ولذلك قالت له : يا أبا عبد الله ! يا بن رسول الله ! إذا مات أبي فكم . . . (١) ؟ فتأثر أبو

(١) العبارة هكذا ناقصة في أصل الشريط .

عبد الله ، وقال لها : بُنَيَّةُ أَنَا مَحَلُّ أَبِيكَ !! فارتفعت أصوات البكاء من أهل بيت أبي عبد الله (ع) . وعندها توجه عليه السلام نحو أولاد (مسلم) وقال لهم : يا بني عقيل ! إنكم أعطيتم (مسلم) وهذا يكفي . يكفي بني عقيل أنهم أعطوا (مسلماً) ، فإن أردتم الرجوع فارجعوا . فقال بنو عقيل : يا أبا عبد الله ! يا بن رسول الله ! إننا لم نكن قد قدّمنا (مسلماً) شهيداً وكُنّا معك ، فكيف بنا بعد أن أصبحنا نطالب بدم مُسلم . فهل نتركك لوحدهك ؟ والله لا نبرح حتى نُدرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم !!

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين .



المحاضرة الثانية

أدوات ووسائل إبلاغ الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه سيدنا ونبيّنا ومولانا أبي القاسم محمد صل الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين . ﴿الذين يُلْفُونَ رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً﴾^(١) .

لقد قلنا في المحاضرة السابقة إنّ نجاح أية رسالة رهن بتحقيق الشروط اللازمة لها ، وقلنا إنّها أربعة شروط أولها يرتبط بالرسالة نفسها ، بمقدار غناها وقدرتها المعنوية وتعبير القرآن بحقانيّة الرسالة نفسها . وهذا شرط لا يتعلق بالرسول ، بل بالرسالة نفسها كما أسلفنا .

والقول بأنّ حقانيّة أية رسالة بحد ذاته عامل مؤثر للغاية في نجاح تلك الرسالة أمر لا يقبل التشكيك ، لا من الزاوية العلمية والنفسية والروحية ، ولا من ناحية المنطق الديني والعقدي .

والقرآن الكريم طالما يؤكد على أنّ حقانية الرسالة عامل بحد ذاته مؤثر في

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .

بقاء الرسالة ودوامها ، وفي المقابل فإن كون الرسالة على باطل ، أو عديمة المحتوى والأثر والفائدة ، أيضاً بحد ذاته عامل مساعد على فناء تلك الرسالة ، والقضاء عليها من داخلها .

قال الله تعالى في كتابه الكريم : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فذهب جفاً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ (١) .

هناك عوامل أخرى لنجاح أية رسالة لا ترتبط بماهية ومحتوى الرسالة . إن أية رسالة تُريد الانتقال من روح إلى روح أخرى ، وتنفذ إلى داخل أرواح الناس ، وتضع المجتمع تحت تأثيرها المعنوي لا شك بحاجة إلى رسول . إن خصائص وشخصية الرسول ، والكفاءات المطلوبة فيه ، والشروط اللازمة لحامل الرسالة ، كلها أمور أخرى ليس هنا مجال البحث حولها .

العامل الآخر المطلوب هو الوسائل والأدوات المتخذة لإبلاغ الرسالة . فالرسول لا بد أنه بحاجة إلى سلسلة من الأدوات والوسائل الضرورية والتي بدونها لا يمكنه إبلاغ رسالته إلى الناس . والعامل الرابع يتمثل في الطريقة والمنهج والأسلوب الذي يتبعه الرسول . أي كيفية إبلاغ الرسالة . إذن هناك أربعة عوامل مؤثرة في نجاح أو فشل أية رسالة هي :

١ - ماهية الرسالة (حقائق الرسالة وغنى مضمونها) .

٢ - خصائص شخصية الرسول .

٣ - وسائل وأدوات الإبلاغ .

٤ - الكيفية والمنهج المتبع في أداء الرسالة .

(١) سورة الرعد : الآية ١٧ .

والآن نستمر في بحثنا فتحدث حول الوسائل والأدوات اللازمة لإبلاغ الرسالة . ونقول : إن أية رسالة إذا ما أُريد لها أن تصل إلى الناس لا شك أنها بحاجة إلى الوسيلة والأداة . فأنما لو أردت مثلاً إبلاغكم رسالة ما لن يكون بمقدوري ذلك دون استخدامي لوسيلة أو أداة معينة . أي إنه ليس بإمكانني وأنا جالس هنا أن أُلقي إلى قلوبكم بهذه الرسالة هكذا بواسطة الإشراف ودون استخدام أية وسيلة تُذكر . فالحذ الأدنى المطلوب مني استخدامه هو اللفظ ، أو الحديث ، أو الخطابة والمحاضرة ، أو الكتاب والكتابة أكان ذلك نثراً أو شعراً . حتى هذا المنبر الذي أحاطبكم الآن من خلاله ما هو في الحقيقة سوى وسيلة وأداة للتبليغ ، وهذا (الميكروفون) الموضوع هنا بحد ذاته عبارة عن أداة ووسيلة للحديث وإبلاغ الرسالة إلى غير ذلك من الوسائل الأخرى .

بالطبع فإنَّ الشرط الأول لإبلاغ الرسالة الإلهية يتمثل بمشروعية الوسائل المستخدمة في التبليغ . أي إنه لا يجوز القول بأنه ما دام الهدف مقدساً وتمثل في إبلاغ الرسالة الإلهية فإنه يجوز لنا استخدام الوسائل والأدوات كيفما اتفق سواء أكانت تلك الوسائل مشروعة أو غير مشروعة .

ولا يجوز القول بأنَّ الغاية تُبرِّر الوسيلة ، أي إنَّ الغاية تُبرِّر المقدمات المطلوبة للوصول إليها . وإنه يكفي أن يكون الهدف صحيحاً ولا حاجة بعد ذلك للنظر إلى المقدمة .

إنَّ مبدأ كهذا مرفوض في منهج الإسلام . لأنَّ اتخاذ أية خطوة باتجاه تحقيق الهدف المقدس يتطلب منا استخدام الوسائل المقدسة لذلك أو كحد أدنى اتخاذ الوسائل المشروعة . فإذا كانت الوسيلة المتوفرة وسيلة غير مشروعة فلا يحق لنا استخدامها .

فهناك للأسف البعض ممن يستخدم وسائل وأدوات غير مشروعة من أجل الوصول إلى أهداف بحد ذاتها مشروعة ولو دققنا في هؤلاء الناس نرى أنهم في الحقيقة إنما يتخذون من تلك الوسائل بالذات أهدافاً وغايات وما حديثهم عن الغايات المشروعة سوى محض ادعاء .

فعلى سبيل المثال يمكن ذكر موضوع التمثيل والمسرحية التي تقام في عاشوراء (وتسمى بمسرح الحسين) [وهو أمر كان كثير التداول في (طهران) سابقاً] وهو في الواقع نوع من التمثيل المسرحي لحادثة كربلاء ، وتمثيل قضية كربلاء ، أمر بحد ذاته ليس فيه إشكال ما دام الأمر لا يتعدى موضوع عرض واقعة كربلاء على شكل مسرحية ، لكننا رأينا ذلك بأعيننا ، كما أنّ الكل يعرف ، بأنّ مسألة التمثيل كانت قد أصبحت بحد ذاتها هدفاً للناس ، ولم يعد الموضوع موضوع الإمام الحسين (ع) وعرض قصة كربلاء ، وتمثيل الواقعة ، فقد دخلت عناصر وقضايا كثيرة على العملية جعلتها أشبه بكل شيء عدا حادثة كربلاء ، وقضية الإمام الحسين (ع) .

وما أكثر الخيانات ، والأكاذيب ، وأعمال الضلال والخدع ، وتحقق اللذات التي كانت ترتكب في هذا المجال وكانت تصل أحياناً إلى ارتكاب الحرام الحتمي . فالبعض منهم لم يكن معتقداً ولا ملتزماً بأي شيء .

فأنا أذكر ذلك منذ طفولتي حيث كانت هذه القضية باستمرار مورد نزاع بين والدي رضوان الله عليه وبعض الناس ، وقد استطاع الوالد بسبب نفوذه الواسع آنذاك من التخفيف من حدة تأثيراتها السلبية ، وقد كان يقول لهم : « إنكم تقومون بأعمال هي في حكم الحرام قطعاً باسم الإمام الحسين (ع) وهذا أمر لا يجوز أبداً » .

كما أنني أتذكر تلك السنوات التي عشتها في (قم) ، وكمن هذه المسرحيات المبتذلة التي كانت تعرض على الناس آنذاك . في السنين الأولى لمرجعية المرحوم آية الله (البروجردي) - رضوان الله عليه - حيث كان في أوج نفوذه جاء إليه البعض وشرح له وضع هذه المسرحيات ، والوضع العام المبتذل الذي يرافقها ، فدعا سباحته في حينها جميع رؤساء الهيئات الحسينية إلى اجتماع في منزله وسألهم يوماً أيّ المراجع تُقلّدون؟ فقالوا له جميعاً : « نُقلّدك أنت » . فقال لهم سباحته : « إنّ فتاوي بشأن هذه المسرحيات والتمثيلات التي تقيمونها بالشكل الذي سمعتُ فيه حرام في حرام » . فهل تعرفون ماذا كان ردّهم عليه ؟ قالوا

له : « مولانا ! نحن نُقلِّدك طوال العام ما عدا هذه الأيام الثلاثة أو الأربعة فنحن لسنا من مُقلِّدك !! » قالوا له ذلك ، ولم يعتنوا بحديثه وفتواه ، وفعلوا ما كانوا يُريدون فعله .

أنّ هذا يبيّن بوضوح أن الهدف ليس الإمام الحسين (ع) وليس الإسلام ، الهدف هو المسرحية والتمثيل بحد ذاته وما تحفيه من فوائد ، أو قتل من لذات واستمتاع رخيص . كان هذا هو الشكل أو الطريقة القديمة لهذا الموضوع .

أما اليوم فإننا نرى التشويه للتاريخ يجري بشكل آخر على الطريقة الحديثة كما يقال ! وذلك من خلال ما يُسمى بمسرح العرفاء والفلاسفة الذي يدعون إليه بين الحين والآخر تحت غطاء الاحتفال بالذكرى السنوية للعارف الكبير (المولوي) ، وإقامة مؤتمر كبير لهذا الغرض ثم يقولون بأنّ العرفاء كان لهم مجلس يُسمى بمجلس الطرب والسماع . وبالرغم من أنّ مجلس السماع بحد ذاته مورد إشكال ، ولكن حتى لو افترضنا أنّ ذلك العارف كان يُنظم مجلس طرب وسماع فعلاً أيام حياته ، ولا أريد الخوض هنا أيضاً بمشروعية أو عدم مشروعية هذا المجلس ، لكنه بالتأكيد لم يكن كمجالسهم التي يقيمونها اليوم باسمه حيث يأتون بعددٍ من الراقصين والمطربين ويُحيون بواسطتهم مجلساً لا علاقة له بالعرفان لا من قريب ولا من بعيد .

وهذا ما حصل بالفعل في ذكرى مرور سبعمائة عام على العارف الكبير مولانا (مولوي)^(١) . وذلك عندما أقاموا حفلاً راقصاً أعدّ من أجل الطرب والشهوة واللذة باسم ذلك الرجل العارف الذي يأبى شأنه أن يكون كذلك !

مرة أخرى نقول إذا كان الهدف مشروعاً فينبغي أن تكون الوسيلة مشروعة أيضاً . ولكن يخرج علينا من جهة ثانية أناس لا يقبلون حتى باستخدامنا للوسائل المشروعة ، حيث يتطلب الأمر أحياناً جهداً كبيراً لإقناعهم بضرورة استخدام الوسائل الحديثة المشروعة . حتى هذا الميكرفون الذي نخاطبكم اليوم من

(١) يشير الشهيد هنا إلى المؤتمر الفاضل الذي أقامه المعهد البائد تحت هذا العنوان .

خلاله ، فهل تصورون حجم المعارضة التي جوبها بها لاستخدامنا له ؟ !
 فلماذا كل هذه المخالفة ؟ اليس الميكروفون بالنسبة للصوت ، مثل النظارات
 بالنسبة للعيون ، ومثل السماعة للأذن . فالإنسان صاحب السمع الثقيل بعد
 استعماله للسماعة يصبح سمعه طبيعياً ، ويصبح مثلاً يسمع القرآن بعد أن كان لا
 يسمعه كما أنه يصبح يسمع السب والشتيمة جيداً بعد أن كان لا يسمعها .
 وهذا أمرٌ لا علاقة له بالسماعة والحالة هي نفسها مع الميكروفون ، فالميكروفون ليس
 أداةً مخصصة لعمل الحرام .

فالوسيلة التي يحرم استعمالها هي تلك الوسيلة المخصصة لفعل الحرام فقط
 ولا يمكن استخدامها لغير فعل الحرام . كالصليب مثلاً أو الصنم فهي أدوات لا
 يخرج منها إلا عمل الشرك ولكن لماذا يحرم استعمال الوسائل التي يمكن استخدامها
 في الحرام كما يمكن استعمالها لعمل الحلال ؟

ينقل أحد وعَظَا المنبر الحسيني المشهورين أنه وفي السنوات الأولى التي اكتشف
 فيها الميكروفون ، وبينما كان قد بدأ لتوه في استخدام الميكروفون في الحديث من على
 المنبر أو بتعبيره - بعد أن صرنا نستمتع في قعدتنا - (الحقيقة أن للميكروفون فضلاً
 كبيراً على حياة الوعَظَا فلو رجعنا إلى ما قبل ثلاثين سنة خلت لرأينا أن الوعَظَا
 الذين كانوا يَعْمَرُونَ حتى الـ ٧٠ عاماً قليلون ، فأغلبهم كان يفارق الحياة في سني
 الأربعين والخمسين عاماً ، وأحد أسباب موتهم السريع تمثل في الواقع بعدم وجود
 الميكروفون آنذاك مما كان يضطر الواحد منهم إلى الصراخ الدائم حتى يُسمع صوته
 للجميع . والسبب الآخر كان عدم وجود السيارة آنذاك إذ كان مجبراً على ركوب
 الجحش أو الحمار مباشرةً بعد خروجه من المجلس وهو أمرٌ مضر بالصحة لا سيما
 في فصل الشتاء وهكذا فإن الميكروفون جاء بمثابة المنقذ لهم) . ولكن استعماله لم
 يكن قد شاع وانتشر بعد ، يقول ذلك الواعظ إنه صادف أن أحد الوعَظَا الذين
 يسبقوني في القراءة ممن لا يُطيقون تحمل الميكروفون أن صرخ بأعلى صوته قائلاً :
 أبعدوا عني قبر الشيطان ! فما كان من القائمين على العزاء إلا أن وضعوا الميكروفون
 جانباً بالفعل ، لكنني رأيت أن الموقف لا يناسبني بهذا الشكل وإذا ما سكّ اليوم

فلأنهم سيحرموني من نعمة الميكروفون على الدوام فلما جاء دوري قلت لهم بصوت عالٍ : إيتوني بلجام الشيطان هذا يرحمكم الله !!

الهدف القول إن هذا الجمود الفكري والتخلف الذي يُسيطر على أذهان البعض منا ليس في محله أبداً . فما هو ذنب الميكروفون ؟ فأجهزة الراديو والتلفزيون والسينما بحد ذاتها ليست هي المذنب . المهم أن نرى المضمون ! ماذا يُقال في الراديو؟ وماذا يُقال ويُعرض في التلفزيون هو المهم؟ وماذا يُعرض في قصة الفيلم من موضوعات هو المهم ؟ وهنا لا يجوز للإنسان أن يتحجر في تفكيره ويحول الشيء المشروع والحلال بحد ذاته إلى شيء حرام وغير مشروع !!

ومن أجل أن نعرف كيفية استخدام الإسلام للوسائل المتاحة آنذاك وكيف أن تلك الوسائل قد لعبت دوراً مهماً وأساسياً في إبلاغ رسالة الإسلام للعالم دعونا نعود إلى الوراء ، إلى سيرة القرآن الكريم نفسه ، فهل فكرتم يوماً في موضوع فصاحة وبلاغة وسلاسة آيات القرآن الكريم ، في سهولتها والجاذبية التي تُميزها ؟

فالقرآن يحمل في داخله ميزتين أساسيتين الأولى تتعلق بمضمون ومحتوى الرسالة وهي ما يُطلق عليها بالحقانية . وأما الأخرى فهي ميزة الجمال .

إن نصف النجاح القرآني عائد إلى كون القرآن مقولة جمال وفن . فللقرآن فصاحة تفوق فصاحة البشر ، ويعود نفوذه إلى الجمال الذي يمتاز به ، والفصاحة وجمال الخطابة هما أفضل وسيلة لانتقال محتوى ومضمون أي حديث من طرف إلى آخر .

والقرآن الكريم لا يترك فرصة إلا ويُعبّر فيها عن هذه المميزات القرآنية وجمال التصوير القرآني . وهناك العديد من البحوث التي تناولت تأثير آيات القرآن في الإنسان نفسه ! وهذا التأثير يرجع إلى الأسلوب القرآني ذاته أي فصاحة القرآن وجماله . قال تعالى :

﴿ الله نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مِثَالِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ

يخشون ربهم ثم تلين جلودهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ﴿١﴾
كما يقول تعالى في آية أخرى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ﴿٢﴾ . وقوله تعالى :

﴿ يَخْرُوتُونَ لِلآذِقَانِ سُجَّدًا ﴾ ﴿٣﴾ أو كما ورد في قوله تعالى حول المسيحيين :
﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ ﴿٤﴾ .

هل تعرفون أساساً كيف حصل الانقلاب في الحبشة ؟ ومن أين بدأ انقلاب
الحبشة أساساً ؟ وماذا حصل حتى صارت الحبشة مسلمة ؟

فهل هناك غير القرآن وجماله ؟ إنها تلك القصة المفصلة المعروفة حول
دخول جعفر بن أبي طالب إلى ذلك المجلس المهيب والوقر ، والقاعة الضخمة ،
ذات الهيبة السلطانية التي ما إن دخل إليها جعفر وشرع في قراءة آيات القرآن
(سورة طه) حتى انقلبت الجلسة رأساً على عقب . فما الذي حصل ؟ ! إنها
تركيبة القرآن اللغوية والجمالية فيبانه وفصاحته تخلقان جواً روحياً وجاذبيةً وقدرة
فائقة في التأثير على القلوب والأنفس .

إن إحدى ركائز النجاح لأمير المؤمنين علي (ع) تتمثل في فصاحته وبيانه
فـ (نهج البلاغة) يعتبر من التأليفات التي مر على زمان صدوره بشكل كتاب ما
يُقارب الألف سنة . وموضوعات (نهج البلاغة) من خطب وأقوال وحكم مر
على قولها ما يُقارب الألف وثلاثمائة وخمسين عاماً (بالتقويم القمري) . هذا الأثر
الأدبي البليغ كان وما يزال محافظاً على قيمته وأثره الثمين .

(١) سورة الزمر : الآية ٢٣ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٢ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ١٠٧ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٨٣ .

وقد تتبعت مرة وتفحصت جيداً تاريخ الأدب القديم والمعاصر ابتداءً من عهد أمير المؤمنين علي (ع) حتى يومنا هذا فראيت أَنَّ كافة الأدباء والفُصحاء من أهل لغة الضاد إنما يقفون خاضعين أمام فصاحة وبلاغة هذا الأثر العظيم .

وما يُذكر في هذا المجال أَنَّهُ دُعي مؤخراً في القاهرة إلى احتفال ضخم لتكريم وتقدير الأستاذ الشهير (شكيب أرسلان) المعروف باسم أمير البيان وأنه قد صعد إلى المنبر رجل من الحاضرين وحاول أن يصف (شكيب أرسلان) ويثمنه عالياً ، فقارن بينه وبين أمير المؤمنين (ع) وقال عنه إنه أمير بيان عصره كما كان عليّ أمير بيان عصره . ولكن ما أن جاء دور (شكيب أرسلان) في الحديث حتى بدت عليه معالم العصبية والحق وقال ما هذه السفاسف التي قيلت بشأني في هذا الحفل ؟ فهل تُقارنونني بعلي ؟ ! انني لا أساوي خيطاً في نعل علي . فأين بياني من بيان علي ؟ !

نعم فتحن نرى في عصرنا هذا بالذات من يستمع إلى خطب علي (ع) ولا يستطيع أن يتمالك نفسه ، فتجري دموعه كالسيل من مآقيه دون اختيار ، فمن أين أتى هذا التأثير ؟ إنه من جمال خطاب علي (ع) .

ولدينا نماذج كثيرة من هذا القبيل من الناس في زمن علي (ع) نفسه ، يقال إنه لما أنتم (ع) خطبته الغرّاء المعروفة والتي يبدو أنه أنشأها في الصحراء كان الحضور جميعاً قد غرقوا في البكاء .

والقصة أن هناك رجلاً اسمه « همام » طلب يوماً من أمير المؤمنين (ع) أن يصف له صورة الأتقياء ، فامتنع عليه السلام في البداية ثم اكتفى بثلاث جمل بسيطة مختصرة . فما كان الرجل ليكتفي بل طلب المزيد من التوضيح والرسم الكامل للصورة ، وعندها شرع علي في وصف صورة المتّقين وهو جالس في ذلك المجلس وقال إنَّ ليلهم هكذا ونهارهم هكذا ولباسهم هكذا ومعشرهم هكذا ، وقراءتهم للقرآن هكذا . . . وقد أحصيتها مرة فكانت مائة وثلاثين صفة وردت في أربعين جملة قرأها علي (ع) في ذلك المجلس ، وظل الرجل يستمع إلى الخطبة

بوجل شديد وكانت حرارته ترتفع باستمرار وما أن انتهى علي من الخطبة حتى صرخ الرجل صوتاً ومات ، فالرجل لم يُعدّ يحتمل وطاقته المحدودة كانت قد وصلت إلى نهاياتها ، فقال علي أمير المؤمنين وقتها : « هكذا تصنعُ المواعظ البالغة بأهلها »^(١)

لنأخذ موضوع الدعاء مثلاً . صحيح أن الإنسان يخاطب ربه في الدعاء ، وبالتالي فإن اللفظ والخطاب ليس له أثر كبير في هذا المجال . لكن أدعيتنا بالإجمال تصفُ بدرجة عالية من الفصاحة والجمال . لماذا ؟ ذلك أن جمال الدماء ينبغي أن يكون عاملاً مساعداً في إيصال مضمون الدعاء إلى قلب الإنسان . ولماذا يُقال إنه من المستحب أن يكون المؤذن « صَيِّئاً » أي صاحب صوت جميل ؟

إنه أمر يرد بحثه في متن الفقه الإسلامي . فكلمة (الله أكبر) لا يختلف معناها سواء قالها الإنسان بصوت جميل أو بصوت بشع ، كذلك عبارة (أشهد أن لا إله إلا الله) ، لكن الإنسان عندما يسمع الله أكبر من صاحب الصوت الجميل تحتلج أحاسيس قلبه بشكل يختلف عنها في حالة سماعه (الله أكبر) نفسها من صاحب الصوت البشع .

لقد شهدت يوماً مجلساً للعرزاء وقد خصصوا أحد كبار المُسنين من الأعياء ومن أصحاب اللسان الثقيل وأوكلوا إليه مهمة إرسال الصلوات فتعجبت كثيراً لهذه الحالة المأساوية لأن الرجل كان لا يستطيع إرسال الصلوات إلا بعد جهد كبير وبعد أن يهتز بدنه كله ، حتى يصبح في حالة سخرية لا يُحسدُ عليها ، وتساءلتُ بيني وبين نفسي سبحان الله ! لم يبق أحد يُرسل الصلوات غير هذا الرجل المسكين ؟ وهل إن المطلوب منا أن نختار أسوأ الأصوات لهذه المهمة ؟!

وفي هذا المجال بالذات يذكر لنا سعدي - الشاعر الإيراني المعروف - قصة لا بأس من نقلها هنا : كان هناك مؤذن في إحدى المدن ، يتميز بصوته النشار ،

(١) نهج البلاغة - فيض الإسلام . الخطبة ١٨٤ . وهي معروفة بخطبة همام ص ٦١٨ .

والشع ، ومرت الأيام عليه وإذا بيهودي قد أقبل إليه يوماً وقال له : « هل تقبل مني هذه الهدية البسيطة؟ » فقال له : ولماذا؟ قال له اليهودي : « لأنك قد خدمتني خدمة كبيرة » ، فسأله المؤذن : « وما هي الخدمة ؟ فأنا لم أخدمك بشيء » ، فقال اليهودي : إن لي بنتاً كانت قد بدأت منذ مدة تميل إلى اعتناق الدين الإسلامي ولكنها منذ أن بدأت تستمع إلى صوت أذانك عادت إلى رشدائها وبدأت تشمئز من الإسلام ، وأنا الآن بدوري فَرِحُ لأنك ساهمت بعودة ابنتي إلى دينها فجئت لك بهذه الهدية ! » وهذا شيء يؤلم في الواقع .

هناك حديث رفيع وظريف جداً لـ (ابن سينا) ورد في مقامات العارفين ، يتحدث فيه عن كيفية ظهور التجمع الروحي عند الإنسان ، فيذكر عدة عوامل مؤثرة بهذا الخصوص من جملتها قوله : « الكلام الواعظ من قائل زكي » . ونحن عندما نسمع بهذه العوامل سنرى كيف أننا لا نحمل كثيراً منها في داخلنا ! نعم فالواعظ نفسه لا بد له وأن يكون طاهر القلب ، نقياً ، بعد ذلك يقول : « بعبارة بليغة ونغمة رخيمة »

نعم فكلامه لا بد وأن يكون بليغاً حتى يدخل أثره إلى أعماق أرواح المستمعين . ثم إن مظهر الواعظ نفسه عامل مؤثر آخر في حجم الأثر الذي يتركه الخطاب .

وتراني الآن أعرض عليكم هذه العوامل حتى نفهم أن طريقة ووسيلة الانتقال والإيصال بحد ذاتها أمر مهم .

إنها الخصوصيات والكيفية والوسائل المطلوب توافرها لدى الرسول الذي يريد إبلاغ رسالته ونشرها في الأطراف والأكناف .

هناك مسألة أخرى أحبّ تبيانها لكم ، وهي مسألة قراءة القرآن . صحيح أن القرآن ليس مثل الأذان : فالأذان مطلوب من شخص أن يذهب إلى المئذنة ويؤذن في الناس ، وقلنا إنه يُستحب أن يكون صيئاً ، لكن القرآن يقرأه الجميع .

وعليه فإنه مطلوب من الجميع الذين يقرأونه أن يقرأوه قراءة جميلة . وهذا أمر مؤثر في روح القارئ كما في روح المستمع .

فهذا هو القرآن الكريم حيث يقول تعالى فيه : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾^(١) فإذا يعني ذلك ؟ إنه يعني أنك عندما تقرأ القرآن ينبغي عليك أن لا تقرأه مُتَّصِلاً بشكل سريع ولا أن تضع الفواصل الكثيرة بين الكلمات . بل المطلوب قراءة تتصف بحالة الإلقاء المتسق المتناسق ، أي اقرأ القرآن بشكل وكأنك تُخاطَبُ نفسك ، أو كما يقول العرفاء فلأن المطلوب من الإنسان أن يقرأ القرآن بشكل يفترض فيه أن الله يخاطبه الآن حين القراءة وأن المخاطب الدائم هو القارئ نفسه وأنه في حالة استماع وتلقٍّ مباشر من الله تعالى .

يقول (إقبال اللاهوري) إنه سمع مرة حديثاً من أبيه ترك له أبلغ الأثر في حياته ، وخلاصة الحديث كما يرويه (محمد إقبال) نفسه : إنه صادف أن مرَّ عليَّ أبي ذات مرة وأنا منشغل في قراءه القرآن فقال لي : « يا محمد ! اقرأ القرآن بشكل كأنه قد نزل عليك » ولذلك تراني ومنذ ذلك الوقت لا أقرأ القرآن يوماً أو أتوجه لمطالعة آياته إلّا وأنصوّر أنه الله تعالى هو الذي يقرأ الآن وهو يخاطبني الآن أيضاً إنه (محمد إقبال) .

ولدينا في الحديث : « تَغَنُّوا بِالْقُرْآنِ »^(٢) وهو حديث يتكرر مضمونه في أحاديث كثيرة أخرى . والمقصود قطعاً هو قراءة القرآن بلحن جميل جداً ، بالطبع ليس المقصود هنا بالألحان هي تلك الألحان التي تروحي وتناسب اللهو واللعب والشهرة فإنها قطعاً حرام وغير مشروعة ولكن كل لحن يتناسب مع حالة معينة عند الإنسان .

عندما كنت طالباً في الحوزة العلمية في مشهد كان هناك رجل يُدعى السيد (محمد عرب) وكان قارئاً ممتازاً للقرآن الكريم ، وكان رجلاً متديناً ومحترمه علماء

(١) سورة المزمل : الآية ٤ .

(٢) بحار الأنوار ج ٩٢ ص ١٩١ . جامع الأخبار الفصل ٢٣ ص ٥٧ .

مشهد كافة ، وكان هذا الرجل يتم جداً بتربية جيل من الطلبة يتقن قراءة القرآن على الأصول فقد كان يُعلم تلاميذه أولاً قواعد علم قراءة القرآن ، وهو أمر مفقود في إيران للأسف الشديد ، لكنه منتشر في الدول العربية ولا سيما في مصر ، بالإضافة إلى تعليمهم عدداً من الألحان (والتي كان يُطلق عليها الحان) الخاصة التي كان يُعلمهم إياها في مسجد (گوهر شاد) الشهير في (مشهد) . وكان في تلك الأيام عدد من الألحان التي تشبه في تسمياتها أسماء الألحان الموسيقية المعروفة ، لكنها طبعاً ألحان قرآنية خاصة . فكان الطلبة يتعملون هذه الألحان القرآنية اللطيفة . وهذه مسألة هامة لا بد لنا أن نروّجها . فإحدى معاجز القرآن تكمن في قابليته على استيعاب الألحان ، الألحان المعنوية والروحية بالطبع لا يحتاج ألحان اللذة والشهوة . وهو أمرٌ يحتاج بالضرورة إلى رجال متخصصين .

أعرفون لماذا انتشر صوت (عبد الباسط عبد الصمد) بهذا الحجم الكبير في العالم الإسلامي كله ؟ الجواب لأن عبد الباسط كان يقرأ القرآن بصوت ولحن جميلين وكان يعرف أنواع القراءات والألحان ، ويعرف بالضبط كل سورة بأي لحن تُقرأ . فمثلاً هناك لحن يناسب سورة (الشمس) وآخر يُناسب سورة (والضحى) .

ورد في الحديث حول عدد من الأئمة الأطهار سلام الله عليهم ومن جملتهم الإمام السَّجَّاد والباقر عليهما السلام ، بأنهم عندما كانوا يقرأون القرآن فإنهم كانوا يُرتلونه بصوت رخيم ، ولحن جميل أخاذ ، حتى إنَّ صوت قراءتهم كان يطير بالآفاق ويملأ فضاء الزقاق مما كان يدفع المارة إلى التوقف عند بابهم ويُقال إنه وطوال المدة التي كان يقرأ فيها الإمام القرآن بلحنه الجميل ، وصوته اللطيف ، كان الناس المارة يتجمعون حول بيته إلى درجة أنَّ الزقاق يصبح غير قابل للمرور من شدة التراحم ، بل ويقال أيضاً إنَّ الناس كانت تقف لتستمع إليه وهي تحمل على أكتافها قُرب المياه الثقيلة التي ملأها من البثر وهي في طريقها إلى البيت ذلك أنَّ صوت الإمام الجَذَّاب كان يمنهم من متابعة المسير ، ويُسَمِّر أرجلهم على الأرض ، ويفقدهم القدرة على تحريكها ، إلى أن ينتهي الإمام من قراءة القرآن .

(كانت العادة قديماً أن يحمل الأشخاص قرباً من الجلد ليملاؤها من مياه الآبار المنتشرة في المدينة وذلك للاستخدام في المنازل ، ذلك أنَّ المدينة لا يوجد فيها نهر بل مجموعة من الآبار فقط) فهاذا يعني كل هذا ؟ يعني أنه مطلوب منا أن نستعمل ونستخدم الوسائل المشروعة من أجل إبلاغ الرسالة الإلهية على أحسن وجه .

لماذا تُرى يقرأ الإمام القرآن بلحن جميل ونغم رخييم جداً ؟ فلا بد أنه كان يُريد أداء وظيفة تبليغ القرآن من خلال ذلك . إنه يُريد إيصال صوت القرآن ورسالة القرآن بهذه الطريقة .

خذ قضية الشعر مثلاً في الإسلام فترى مسائل عجيبة حوله :

فالنبي حارب الشعر كما روج له في نفس الوقت ، فهو حارب الشعر غير الملتزم ، أي الشعر غير الهادف والخيالي المحض ، شعر التسلية والأكاذيب ، كأن ينظم أحدهم شعراً في وصف سلاح فلان ، أو فرس فلان ، أو وصف معشوقة هذا ، أو شعرها ، أو ينظم شعر الهجاء والمديح ، مقابل الحصول على المكافآت المالية .

فالنبي حارب مثل هذا الشعر بشدة وقال في هذا المجال : « لأنَّ يمتلئ جوفُ رجلٍ قَبْحاً خير له مِنْ أن يمتلئ شعراً »^(١) لكنه - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول في مكان آخر : « إنَّ من الشعر لحكمة »^(٢) .

لقد كان من أصحاب النبي (ص) بعض الشعراء ، (وحسان بن ثابت) الشاعر المعروف كان أحدهم . والتمييز بين هذين النوعين من الشعر لم يأت على ذكره النبي (ص) لوحده بل ورد ذكره في القرآن الكريم أيضاً . قال تعالى : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ ألم تر أنهم في كلِّ وادٍ يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿^(٣) .

(١) نهج الفصاحة ص ٤٧٠ الحديث ٢٢١٥ .

(٢) الغدير ج ٢ ص ٩ .

(٣) سورة الشعراء : الآيات ٢٢٤-٢٢٧ .

نعم فلقد كان هناك شعراء يُقدِّرهم النبي (ص) والأئمة الأطهار (ع) ويشوقونهم ويشجعونهم في عملهم ، ولكن مَنْ هم هؤلاء الشعراء ؟

إنهم الشعراء الذين كانوا يُبلِّغون رسالة الإسلام إلى الناس عن طريق استخدام الشعر الجميل ، وإنه لمن الطبيعي أن يكون الشعر أقدر من النثر في إنجاز هذه المهمة ، فالشعر له وزن خاص وقافية ، ولحن ، وأذهان الناس مستعدة لحفظ الشعر أكثر منها لحفظ النثر . لقد قال النبي (ص) بحق شاعر الرسالة المحمدية (حسان بن ثابت) : « لا تزال مؤيداً بروح القدس ما ذُبت عَنَّا أهل البيت »^(١) . نعم فهذا هو قول الرسول الأكرم (ص) حول شاعر الحقيقة والإسلام وشاعر أهل البيت عليهم السلام .

كما أن شعراء عصور الأئمة (عليهم السلام) لم يُقَصِّروا في خدمة الإسلام وأهل بيت النبوة ...

فلدينا في التاريخ الإسلامي من الشعر الحماسي والتوحيدي الكثير سواء باللغة العربية أو الفارسية . (بالطبع هناك من نظم بالتركية ولغة الأردو) أي الباكستانية أيضاً) وهي أشعار راقية في الحكمة والموعظة . وكل هذه الأشعار إنما هي من نتائج وإنجازات الثقافة والتراث الإسلاميين .

إن الأثر الذي يتركه الشعر لا يمكن للنثر أن يترك مثله . وإعجاز (نهج البلاغة) يكمن بالتحديد هنا حيث ترى كل تلك الفصاحة والجمال النثري بالشكل الذي يفوق في تأثيره تأثير الشعر بكثير . إنك لن تستطيع أن تجد صفحة واحدة من النثر بالفارسية يوازي شعر (الشاعر الكبير) سعدى . بالرغم من كثرة وجود النثر الأدبي الرفيع لدينا باللغة الفارسية مثل الكلمات القصار للخواجه (عبد الله الأنصاري) أو نثر (سعدى) نفسه .

الملا (جلال الدين الرومي) بكل اقتداره وقوة آثاره الأدبية ، لا نجد له أي

(١) الغدير ج ٢ ص ٣٤ وفي عبارة أخرى للغدير . (. . ما نصرتنا بلسانك) .

أثر نثري يُذكر عندما تُقارن مجالس الحكمة والوعظ النثري له مع الشعر الراقى الموجود باللغة الفارسية . باللغة العربية أيضاً لا نجد عندنا نثراً راقياً جداً بمستوى الرقي الأدبي للشعر - بالطبع ما عدا (نهج البلاغة) وهو ما سبقت الإشارة إليه فالشعر بحد ذاته استطاع أن يلعب دوراً هاماً في التبليغ وهو قادرٌ على أن يلعب المزيد أيضاً .

بالطبع فالشعر السّميّ يستطيع أن يلعب دوره السّميّ كما أنّ الشعر الجيّد يستطيع أن يلعب دوره الجيّد كذلك . فأشعار الحكمة ، والتوحيد ، والمعاد ، والنبوة ، وأشعار مدح النبي والأئمة الأطهار ، أو الأشعار القرآنية ، أو ما أخذ طابع المراثية والرثاء الحسيني ، شرط أن يكون على خُطى شعر شعراء عصر الأئمة ، كلها أشعار مفيدة قادرة على لعب دور بالغ ومفيد جداً .

لقد تطرقتُ مرّةً في خطبي إلى هذا الموضوع وقلتُ ذات مرّة بأنّ هناك تفاوتاً وبقاً كبيراً بين رثاء (الكُمية) و(الخزاعي) والرثاء الذي نُظم في عصرنا الراهن من أمثال رثاء (الجوهري) أو (المحتشم) . فالفرق بين هذا وذاك لشاسع كالفرق بين الأرض والسماء . إنّ تلك المراثي كانت مفيدة جداً بينما هذه المراثي الجديدة ليست مفيدة وبعضها مُضر أيضاً .

إنّ (إقبال اللاهوري) أو (إقبال الباكستاني) كان عالماً عظيماً ومحترماً حقاً . إنه ذلك الرجل الذي كان يحس بثقل المسؤولية المُلقاة على عاتقه تجاه الرسالة المحمدية ولذلك تراه لم يترك وسيلةً مشروعة وخيرةً إلّا واستخدمها في سبيل الإسلام .

ومن جملة تلك الوسائل التي استخدمها هي الشعر ، فليس هناك أحدٌ من شعراء اللغة الفارسية ، لا سيما في العهود المتأخرة ، يستطيع منافسة (إقبال) بشعره الهادف ، وإذا ما كان الشعر وسيلةً لدى الشاعر من أجل الوصول إلى هدفه فإنه عند ذاك يصبح لا نظير له على الإطلاق .

فـ (إقبال) كان ينظم الأناشيد الشعرية عندما كان الأمر يتطلب نشيداً ،

ولديه أناشيد رائعة جداً بهذا الخصوص نظمها بلغة الأردو وقد نمت ترجمتها إلى اللغة العربية . وقد تُرجمت أخيراً من قبل السيد (محمد علي سفير) إلى اللغة الفارسية ، وتمت إذاعتها وقراءتها هنا من على منبر (حسينية الإرشاد) ، فما أروعها من أناشيد !

فأنا شخصياً قد بكيْتُ لدى سماعها ورأيت الكثيرين ممن بكوا على أنغامها ، فلماذا لا نستخدم أسلوب الأناشيد ؟ إنّ هذه جميعاً وسائل لا بد منها ، فنحن اليوم لا يجوز لنا إغفال هذه الوسائل والإمكانيات الحديثة ، فقد ظهرت وسائل في العصر الحديث لم تكن متداولة في العصر القديم ، ولا يجوز لنا الاكتفاء بوسائل العصر القديم ، المهم أنّ نُتميّز بين الوسيلة المشروعة والوسيلة غير المشروعة .

إنّ أبا عبد الله الحسين (ع) نفسه لم يترك وسيلة ممكنة إلا واستخدمها وهو في عز حرارة الشمس ، وذلك من أجل إبلاغ رسالته وإيصال رسالة الإسلام . انظروا إلى خطبه عليه السلام ابتداءً من (مكة) مروراً بالطريق إلى (كربلاء) وانتهاءً بـ (كربلاء) وحتى يوم استشهاده ، إنّها خطب مُهيّجة وعاطفية ومُحرّكة للغاية فضلاً عن جمالها وفصاحتها وبلاغتها المتناهية .

فالوحيد الذي استطاع في خطبه أن ينافس عليّاً أمير المؤمنين (ع) هو الحسين (ع) . حتى إنّ البعض قال : « إنّ خطب الإمام الحسين (ع) ، في يوم عاشوراء ، أفضل من خطب أمير المؤمنين (ع) » . فهل دققتم في جمال تعبيراته ، وفصاحتها ، ورفعته ، وهو يشرح أهدافه وغاياته بعد أن قرّر ترك (مكة) مُتجهاً نحو (الكوفة) .

لا بدّ للمرء من أن يعرف العربية جيداً حتى يتمكن من إدراك جمال وحُسن التعابير الواردة في القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وأحاديث الأئمة الأطهار ، وأدعيتهم ، وخطبهم . إنّ الترجمة الفارسية لكل هذا لا تنفي بالغرض ، فكيف يمكن إدراك مفهوم هذه الجملة الجمالية الرائعة : « خُطّ الموت على ولد آدم نخط القلادة على جيد الفتاة . . . » إلى أن يقول :

« ما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف » . إلى آخر الكلام الرائع والبلغ . حيث يقول لأصحابه بأن المصير الذي سيلاقيه لا بد وأن يكون في رضا الله وإنه مهما كانت الظروف فما علينا إلا الشكر له والرضا برضاه سبحانه وتعالى بقوله عليه السلام : « رضا الله ، رضانا أهل البيت » (١) .

إنه الطريق الذي اختاره الله لنا ، وما دام كذلك فما علينا إلا انتخابه . إنها كلمات بسيطة لا تتجاوز السطرين لكن فيها تكمن قوة هائلة ، وأثر كتاب كامل من الحديث الحسن .

ثم ينهي كلامه عليه السلام عندما يريد إبلاغهم بما يريد منهم بقوله لهم : « مَنْ كَانَ بَازِلًا فِينَا مُهْجَتَهُ ، وَمَوْطِنًا عَلَى لِقَاءِ اللَّهِ نَفْسَهُ ، فَلْيَرْحَلْ مَعَنَا ، فَإِنِّي رَاحِلٌ مُصْبِحًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » .

ثم انظروا إليه وإلى أصحابه كيف قضوا ليلة العاشر من محرم :

أصوات جميلة ، ورفيعة ، وعالية ، تعلو من خيامهم ، تتلو القرآن ، وهممة هنا ، وتواشيح هناك ، وأصوات ساحرة تجذب إليها قلوب الأعداء ، لعلها تخضع خشوعاً لله .

لقد قلت لكم بالأمس (في المحاضرة السابقة) إن أصحاب أبي عبد الله ، الذين قدموا معه من المدينة ، قلائل ، وربما لم يتجاوز عددهم العشرين نفرًا . ذلك أن عدداً منهم قد تركوه في الطريق ، ولم يتابعوا معه حتى (كربلاء) .

إن أغلب أصحابه الاثنتين والسبعين الذين حضروا معه معركة (كربلاء) هم إمّا من التحق به في كربلاء نفسها ، أو من ترك معسكر (عمر بن سعد) وانضم إلى معسكر الحسين (ع) في آخر لحظة ، ومن جملة أولئك الذين التحقوا به كانوا أولئك الذين مروا بالقرب من خيمته عليه السلام واستوقفهم صوتٌ رخيماً

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٦٧ . مقتل الحسين للمقرم ص ١٩٣ . اللهوف ص ٢٥ . كشف الغمة ج ٢ ص ٢٩ .

من داخلها : إنه صوت تلاوة القرآن الكريم ، وذكر الله ، ذكر الركوع والسجود وسورة الحمد والصور الأخرى ، إنها أصوات خاشعة كانت تجذبهم وتؤثر فيهم . . .

وهذا يعني أنّ أبا عبد الله وأصحابه لم يتركوا وسيلة يمكن الاستفادة منها بأحسن وجه إلاّ واستخدموها في حربهم للظالمين ، فهم قد عبأوا كل الوسائل والإمكانات التي بحوزتهم في خدمة التبليغ والدعاية للمعركة الفاصلة . حتى مسرح ترتيب الخيم ، ومسرح العمليات الحربية ، فقد رسم صورة ترتبها عليه السلام بشكل عرض تاريخي مُثير ، وكأنه أراد لها أن تبقى مشاهد تاريخية تهر الأبدان والنفوس في الأجيال إلى يوم يُعثنون .

يقول الراوي : إنّ أصحاب الحسين عليه السلام ظلوا يمنعون آل بيت النبوة- صلوات الله وسلامه عليهم -من النزول إلى ميدان القتال سواء أكانوا أولاد الحسين (ع) ، أو أبناء عمومته ، أو أخوته ، أو أبناء أخيه . إذا كانوا يقولون له : يا مولاي دعنا نقاتل دونك نحن أولاً فإنّ نحن قُتلنا جميعاً فعند ذلك أنت أعرف منا . لكن شباب أهل بيته ، ورجلهم ، كانوا ينتظرون ، بفارغ الصبر ، تلك اللحظة التي سيأذن لهم فيها الحسين (ع) بالخروج إلى القتال . فما أن استشهد آخر رجل من أصحاب الحسين (ع) ، يقول الراوي ، حتى صارت التتميمات تخرج من كل أنحاء المعسكر « فجعل يُودّع بعضهم بعضاً » .

وكان أول من استأذن الحسين (ع) ونزل إلى الميدان من أهل البيت (ع) هو الابن الأكبر للإمام علي الأكبر (ع) . وعليّ الأكبر هذا كان أشبه الناس خلقاً وخلقاً برسول الله (ص) وعندما كان يخُطب كان المرء يرى وكأن جده رسول الله قد تمثّل فيه ، نعم فقد كان نسخة طبق الأصل عن جده النبي محمد (ص) ولذلك ترى الحسين (ع) وهو يودّعه يقول :

« اللهم اشهد على هؤلاء ، فقد برز إليهم أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك محمد (ص) وكُنّا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيك نظرنا إليه » .

لقد جاء هذا الغلام يطلب الإذن من أبيه بالقتال والجهاد . يقول الرواة بأنه عليه السلام كان يتردد ويتعلل بعلة كثيرة لكل من يطلب منه الإذن بالقتال وهو ما حصل مع القاسم بن الحسن مثلاً وهي القصة التي تكرر سماعها على أذانكم كما اعتقد لكن الأمر كان يختلف مع علي الأكبر فما أن جاء يستأذنه في البراز حتى أذن له بإجماع منه وذلك عندما أنزل رأسه عليه السلام مشيراً بالإيجاب .

يقول الراوي : وبينما كانت عينا أبي عبد الله الحسين تبدوان وكأنهما نصف مفتوحتين نظر إلى غلامه نظرة يائسة ومشى وراءه بعض الخطوات مودعاً . ثم نظر إليه نظر آئس^(١) ثم رنا بطرفه إلى السماء وقال :

« اللهم اشهد أنه برز إليهم غلامٌ أشبه الناس خلقاً وخلقاً برسولك . . . الخ » كما أسلفنا إلى أن الحقها بعد ذلك بجملة موجهة لـ (عمرو بن سعد) : « قطع الله رحك يا بن سعد كما قطعت رحي ! »^(٢) .

وبالفعل فإنه لم تمض مدة طويلة على دعاء أبي عبد الله حتى انتقم المختار لدم الحسين بن علي (ع) فقتل (عمرو بن سعد) أولاً ولما جازوا برأسه ووضعوه في مجلس المختار وهو مغطى بقطعة قماش وكان يومها ابن عمر بن سعد حاضراً في المجلس يُريد التشفع لأبيه فنادوه وسألوه إذا ما كان يعرف صاحب الرأس المغطى ؟ فلما كشف الغطاء عن الرأس انتفض الابن من مكانه دون اختيار ، فأمرهم المختار على الفور بأن يلحقوه بأبيه .

يبرز علي الأكبر إلى الميدان وهو يرتجز الشعر ويتقدم نحو أهل الكوفة ، وهو الفارس المغوار ، ويُقاتل بشجاعة نادرة ، إلى أن يُسيطر عليه العطش فيرجع إلى أبيه (وهذه من المعجزات التاريخية إذ ما هو المقصود من عودته هذه وما هي الغاية

(١) اللهوف ص ٤٧ .

(٢) اللهوف ص ٤٧ . مقتل علي الأكبر للمقرم ص ٧٦ . مقتل الحسين للمقرم ص ٣٢١ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٣٠ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٤٣ .

من وراثتها ؟) يقول له : « العطش قد قتلني ، وثقل الحديد قد أجهدني . فهل لي بشربة ماء من سبيل أتقوى بها على الأعداء ؟ »

فما كان من هذا الحديث إلا أن كوى قلب أبي عبد الله بالنار . فقال له : يا بُني إن فمي ولساني كفمك ولسانك بل وأكثر . ولكنني أعدك بشربة ماء من جدك وذلك بقوله :

« عُد يا بُني إلى قتال عدوك ، وإني لأرجو أن يسقيك جدك بكأسه الأوفى شربة لا نظماً بعدها أبداً » .

فيعود علي إلى الميدان ويستمر في البراز والجهاد .

هناك رجل يُدعى (حميد بن مسلم) وهو راوي الحديث وقد كان مثل الصحفي في ساحة عمليات كربلاء وهو إذ لم يشترك في الحرب غير أنه بنفسه ينقل أغلب وقائع المعركة .

يقول الراوي : « إنني كنت واقفاً إلى جانب أحدهم ، وكان علي الأكبر يقاتل ويضرب بالسيف عن يمينه وعن شماله ، وقد أبلى بلاءً حسناً ، وصار الجميع يفرون منه فتوعد ذلك الرجل علياً الأكبر بأنه إذا مامر من جنبه فإنه سيقتله حتماً ويحرق قلب أبيه .

يقول الراوي فقلتُ له وما شأنك به أنت . فإنه لا بد سيقتل في النهاية . قال : كلا وما أن مرَّ علي الأكبر من هناك حتى غافله هذا الرجل بضربة رُمح أودت بقوته وجعلته يلقي بيديه على رقبة جواده بعد أن فقد توازن جسمه . وإذا بعلي الأكبر يُنادي هنا رافعاً صوته : « يا ابتاه هذا جدي قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا نظماً بعدها أبداً »^(١) .

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٤٤ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٣١ . مقتل الحسين للمقرم ص ٣٢٤ . مقتل العواصم ص ٩٥ .

وهنا ينقل الراوي هذه الجملة العجيبة : « فاحتملهُ الفرس إلى عسكر
الأعداء فقطعوه بسيوفهم إرباً إرباً »^(١) .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد



(١) مقتل الحسين للمقرم ص ٣٢٤ مقتل العواصم ص ٩٥ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٤٤ . مقتل
الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٣١ . كما وردت في مضامين متشابهة في : أعلام الوري ص ٢٤٢ .
في رحاب أئمة أهل البيت ج ٣ ص ١٢٧ . الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٧٤ . اللهوف ص ٤٨ .
مناقب ابن شهر آشوب ص ١٠٩ ، الشيخ المفيد ص ٢٣٩ .

المحاضرة الثالثة

منهج التبليغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه سيدنا ونبيّنا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين : ﴿الذين يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(١) .

سبق وأن بيّنتُ لكم أنّ أحد أبعاد النهضة الحسينية هو التبليغ . التبليغ بالمعنى الواقعي للكلمة وليس بالمعنى المتداول حالياً بين الناس (سبق وأن مرّ علينا أن كلمة التبليغ باللغة الفارسية تفيد معنى الدعاية والإعلان) . أي إيصال النداء والرسالة التي هي رسالة الإسلام وصوت الإسلام للناس . فلنتنظر إلى الإمام الحسين (ع) ونتفحص في الأساليب الخاصة التي اتّبعها عليه السلام في حركته ونهضته لا سيما تلك الأساليب ذات القيمة التبليغية المتأصلة أساساً لكون الإمام قد استخدمها في إيصال أهداف وغايات حركته ونداء الإسلام الواقعي المنبعث من أعماقه عليه السلام بأفضل وجه إلى الناس . ولنبدأ أولاً بشرح مختصر لمسألة الطريقة والأسلوب ، أو ما يُصطلح عليه اليوم بالمنهج ، وهو المصطلح الذي يطلق عليه الأجانب - Method - .

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .

إنَّ أحدَ شروطِ نجاحِ أيِّ عملٍ : اختيارُ وانتخابُ الطريقةِ والأسلوبِ الصحيحِ . خذ مثلاً علمَ الطبِّ : إنه علمٌ واحدٌ لكنك ترى أحياناً أنَّ طريقةَ كلِّ طبيبٍ أو جراحٍ تختلفُ عن الآخرِ . كأنَّ يبرزُ أحدهمُ أكثرَ توفيقاً ونجاحاً في الأسلوبِ والطريقةِ أو المنهجِ العمليِّ الذي اختاره للتطبيقِ .

يعيشُ العلمُ والعلماءُ اليومَ مرحلةَ جديدةٍ من مراحلِ التطورِ البشريِّ بعد أن مرَّ العلمُ بمنعطفِ هامٍ في سيرِ تحولاته صار يُقالُ إنَّ هناكَ علماً حديثاً مقابلَ العلمِ القديمِ . صحيحٌ أنه ليسَ هناكُ شيءٍ في العلمِ اسمه جديدٌ مقابلَ القديمِ ، لكنَّ المرحلةَ الجديدةَ لتطورِ العلمِ صار يُطلقُ عليها بالمرحلةَ الجديدةَ ، فما هو الفرقُ الموجودُ بينَ المرحلةِ القديمةِ والمرحلةِ الجديدةِ ؟ .

في المرحلةِ الجديدةِ تسارعُ التطورُ العلميُّ بشكلٍ يفوقُ التصورَ ، كما لو أنَّ مانعاً هاماً قد رُفِعَ من أمامِ عجلةِ التطورِ العلميِّ مما دفعَ العلمَ إلى المُضيِّ بسرعةٍ فائقةٍ في التطورِ في حين أنَّ حركةَ العلمِ في المرحلةِ القديمةِ كانت حركةً بطيئةً .

والسؤالُ المطروحُ ما هو سببُ هذه السرعةِ في المرحلةِ الجديدةِ ؟ هل إنَّ العلماءَ الجددَ مثلَ (پاستور) أكثرُ نبوغاً من العلماءِ القدامى أمثالَ (بقراط) و (جالينوس) و (ابنِ سينا) ؟ أو بعبارةٍ أخرى هل يمكنُ القولُ بأنَّه قد ظهرتْ أسماءُ بارزةٌ وشخصياتٌ خارقةٌ للعادةِ وأدمغةٌ مفكرةٌ في العالمِ الجديدِ لم يكنِ موجوداً مثلها في العالمِ القديمِ ؟

أبداً ، ليسَ كذلكُ . فقد لا يوجدُ أحدٌ يدَّعي بأنَّ (پاستور) ، أو الآخرينَ ، من أقرانه أكثرُ نبوغاً من (أرسطو) و (أفلاطون) و (ابنِ سينا) و (بقراط) و (جالينوس) أو خواجه (نصير الطوسي) . لكنَّ سرعةَ نجاحِ هؤلاءِ الجددِ أكثرُ من سرعةِ أولئكِ القدامى . فإين يكمنُ سرُّ هذا التحولِ إذن ؟

يقولون إنَّ السرَّ يتمثلُ في أنَّ أسلوبَ العلماءِ قد تغيَّرَ فجأةً . فمنذ أن تبدَّلَ أسلوبُ العلماءِ في التحقيقِ تسارعتْ عجلةُ التطورِ العلميِّ بشكلٍ ملحوظٍ . فالأساليبُ لها دورٌ في النجاحاتِ ، ومن الممكنِ أنْ نضعَ شخصاً نابغةً ، وذكياً ،

وصاحب استعداد ونشاط ، على رأس إحدى المؤسسات فتراه يفشل في إدارتها ، في حين أنّ شخصاً آخر ، أقل منه نبوغاً واستعداداً ذهنياً ، لو وضع على رأس نفس المؤسسة ، لربما أحسن إدارتها ، وكان أفضل من غيره ويكون السبب في الأسلوب والطريقة المتبعة من قبل كل منها .

ولنضرب على ذلك مثلاً أكثر وضوحاً : إنّ كل واحد منا لا بد وأنه صادف في حياته أفراداً في المجتمع ، أذكاء جداً ، وذوي استعداد وحافضة ذهنية واسعة ، لكنهم مع ذلك يكونون أقل نجاحاً ، من آخرين ، من أفراد المجتمع ، ممن هم أقل منهم مستوى في الذكاء والاستعداد الذهني والقدرة والفاعلية ، لماذا ؟

لأن طريقة هؤلاء تكون أفضل من طريقة أولئك . فإنك ربما تجد من هو قادر من ناحية استعداداته الذهنية على القراءة المتواصلة والاستيعاب اليومي على مدى ستّ عشرة ساعة ، ولكن كيف ؟ كان يقرأ كتاباً ما من أوله إلى آخره ، ثم يتناول على الفور كتاباً آخر لا علاقة له من ناحية التخصص بالكتاب الأول ، ثم كتاباً آخر وهكذا دواليك ، وذلك بشكل فوضوي تماماً ، بينما في المقابل قد تجد من لا يملك أكثر من ثماني ساعات من القدرة على مواصلة القراءة اليومية لكنه عندما يبدأ بقراءة كتاب ما فإنه أولاً يقرأ بدقة كاملة دون تسرع ثم لا يكتفي بهذه المرة بل يُعيد قراءة الكتاب نفسه ولا يُتمدّ يده إلى كتاب جديد ما لم ينته من استيعاب مواد الكتاب الأول ، ولا يكتفي بهذا الحدّ أيضاً . بل تراه يشير في المرحلة الثالثة إلى الموضوعات الهامة والجيدة في الكتاب ، وينقل كل تلك الموضوعات ، التي يراها لازمة ، بشكل منظم ، إلى أرشيف معلوماته الخاص . أي إنه يخلق حافظته كتابية خاصة به تُفيدة مدى الحياة يمد إليها يده متى ما أحس بالحاجة إليها ، وعندما ينتهي من أمر هذا الكتاب تراه يلجأ لقراءة كتاب آخر في نفس المجال والتخصص ، وبعد مرور فترة على قراءة هذا النمط من الكتب وانتفاء الحاجة إليها تراه يبدأ في قراءة مجموعة أخرى من الكتب ذات التخصص المختلف عن المجموعة الأولى . وهكذا دواليك .

في حين أنّ المرء الذي يقرأ اليوم كتاباً ما ، ثم غداً كتاباً آخر ، ويعده من

نوع آخر تماماً ، دون أن تلتزم قراءته هذه أي نظام أو منهج معين يشبه في الواقع ذلك الشخص الذي يجلس على المائدة ويأكل ملعقة من هذا النوع من الطعام ثم ملعقة من ذاك وأخرى من طعام ثالث ولقمة من هنا وأخرى من هناك وبالتالي فإنه يُعرض معدته للفساد ومن ثم لا يكون قد أنتج شيئاً إيجابياً على الإطلاق . وهذا الأمر يعود إلى الطريقة والأسلوب والمنهج المتبع .

إن قضية التبليغ بمعناها الواقعي والصحيح تعني نقل وإيصال الرسالة إلى الناس ، أي توعية الناس بالرسالة وإقناعهم بها وجذبهم إليها ، وإبلاغ أية رسالة يحتاج إلى أسلوب ومنهج صحيح .

وبالأسلوب الصحيح وحده يمكن للتبليغ أن يكون ناجحاً وموفقاً ، ولو حصل أن اختار الإنسان الأسلوب المعاكس ، فإنه ليس فقط سوف لا يحصل على نتيجة إيجابية من العمل ، بل إنه سيجني حتماً نتيجة معاكسة تماماً ، فعندما يُدقق الإنسان مثلاً في موضوع ما ويُرَكِّز عليه جيداً ومن ثم يتوجه للبحث عن الآيات القرآنية المتعلقة بذلك الموضوع ويتدبر فيها فإنه سيري عندئذ كم هي كثيرة ومفيدة النتائج المترتبة على هذه الطريقة والتبليغ لآيات القرآن الكريم ! وهذا أمر ينطبق على كل المواضيع ومن جملتها موضوع التبليغ .

إن القرآن الكريم قد بيّن الطريقة والأسلوب والمنهج الواجب اتباعه في التبليغ ، إما بواسطة آياته مباشرة ، أو عن طريق أحاديث الأنبياء ، وعلى الستهم . وإن إحدى القضايا التي أكد عليها القرآن الكريم في مجال أسلوب وطريقة التبليغ هي كلمة (البلاغ المبين) . أي الإبلاغ الواضح والنير ، فما هو المقصود من هذا المصطلح ؟ المقصود هو بساطة الموضوع ، وسلاسته ، وعدم احتوائه على أي شائبة ، بحيث يصبح في متناول فهم الناس فيستوعبونه بسهولة كاملة .

فالكلام المُغْلَق ، والمعقد والمُغْلَف بغلاف من الكلمات والاصطلاحات الكثيرة والذي يُطالب الناس ويقول لهم بأنه لا مقدرة لكم على إدراك الأمور إلا بعد سنوات الدرس الطويلة ، كلام غير موجود في قاموس تبليغ الرسل

والأنبياء . فلقد كان الأنبياء يشرحون مفاهيمهم بشكل بسيط ، وواضح ، بحيث يفهمها أكبر العلماء ويستفيدون منها في نفس الوقت الذي يستفيد منها أقل الناس معرفةً بالعلم والعلوم ، على الأقل في حد إمكانياتهم ، ومدى سعة استيعابهم الذهني للأمور والمفاهيم (لا أريد القول هنا بأن الجميع يستفيد بمستوى واحد) .

ولذلك فإنّ على المُبلِّغ والرسول الذي يُريد أن ينطق بلسان الأنبياء ، ويتكلم مثلهم ، وينهج طريقهم ، عليه حقاً أن يكون بلاغةً بلاغاً مُبيناً . وهذا جانب من معنى مفهوم المبين .

بالطبع هناك احتمالات أخرى لمعنى ومفهوم كلمة (المبين) (وقد يكون جميع المعاني المستخرجة من هذه الكلمة صحيحاً) فقد يكون أحد احتمالات معنى كلمة (المبين) هو الحديث المباشر ودون ستار . أي إنّ الأنبياء ، ليس فقط لم يتحدثوا بلغة مغلقة ومعقدة وملتوية ، بل إنهم كانوا يُحدثون الناس دون مجاملات وبطريقة مباشرة لا حجاب ولا ستار فيها ، ولم يكن أسلوبهم أسلوب الكناية واللف والدوران فعندما يحسون بضرورة قول شيء ما للناس فإنهم كانوا يقولونه لهم بصراحة ووضوح تام ، فيقولون لهم مثلاً ﴿ أتعبدون ما تحتون ﴾ (١) .

المسألة الأخرى التي يؤكد عليها القرآن الكريم في موضوع التبليغ هي تلك المسألة التي يُعبّر عنها القرآن (بالنصح) . ونحن نترجم « النصح » عادة بإرادة الخير ، وهذا صحيح لكن يبدو أنّ إرادة الخير ليست تماماً عين النصح ، فلازمة النصح تبدو أنّ تكون مقابل « الغش » . فأنّت لو أردت مثلاً أن تبّيع الحليب لأحد في إمكانك أن تبّيعه حليياً خالصاً ويمكن أن تبّيعه حليياً مغشوشاً ، أي مخلوطاً بالماء لا سمح الله ، أو لو أردت بيع الذهب لشخص فقد تبّيعه ذهباً خالصاً (بحدود المعايير المعروفة للذهب) وربما تبّيعه ذهباً مغشوشاً ، يعني فيه غش ؛ فالنصح يأتي مقابل الغش . والناصح الواقعي هو ذلك الشخص الذي يملك الخلوص الكامل ، وعندما يُقال توبة نصوح ، يعني توبة خالصة .

(١) سورة الصافات : الآية ٩٥ .

فالمبلغ ينبغي له أن يكون ناصحاً وخالصاً ومخلصاً . أي أن لا يهدف في حديثه تحقيق أي هدف ، أو غرض ، أو غاية ، سوى إبلاغ وإيصال الرسالة المترتبة عليه ، أي الخير للطرف المقابل ، وذلك بكل إخلاص وخلوص نية . كما ورد في الحديث : « الناس كلهم هالكون إلا العالمون ، والعالمون هالكون إلا العاملون ، والعاملون هالكون إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم » .

سبق لي وأن نقلت للمستمعين هذه القصة عدة مرات وأجد الآن مناسبة لتكرارها عليكم : يُنقل عن المرحوم آية الله (البروجردي) أعلى الله مقامه ، أنه أثناء وعكته الصحية الشهيرة (وهي الوعكة التي أودت بحياته بعد أيام قلائل) صادف أن طلب منه أحد أفراد حاشيته أن يقول كلمة يكون فيها تذكار لنفسه ونصيحة للآخرين المجتمعين حوله . فقال سباحته : « لقد آن الرحيل ولم نعمل شيئاً ولم نجتمع ذخيرتنا للآخرة » . فما كان من أحد الحضور إلا أن فكر أن الوقت وقت المجاملات فقال : « لماذا تقولون هكذا يا مولانا ؟ الحمد لله ، فأنتم قد قمتم بالعمل الفلاني ، وطبقتم كذا وكذا ، وبنيتم مسجداً ، وأُسستم مدرسة ، وأرسيتم دعائم الحوزة العلمية ، إلى غير ذلك من الحديث . . .

وما أن أتم المتحدث حديثه حتى أدار سباحته وجهه إلى الحضور وقال جملة من حديث شريف وسكت . والجملة هي : « خُلص العَمَلُ فإنَّ النَّاقِدَ بصيرٌ بصير »^(١) .

نعم أيها المستمعون فمسألة الإخلاص في العمل مسألة ليست بسيطة ، والقرآن بدوره أيضاً يُشير إلى مثل هذه النقطة ، وذلك على لسان الأنبياء كافة كما ورد في قوله تعالى : ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ ﴾^(٢) . نعم لأنني ناصح لكم لذلك لا أبغي منكم أجراً على عملي .

المسألة الأخرى هي مسألة عدم التكلف ، والتكلف مفهوم يرد ذكره

(١) مواظب العبدية ص ١٢٤ .

(٢) سورة (ص) : الآية ٨٦ .

ويتكرر استعماله في موارد كثيرة وهو بمعنى أن يُلصق الإنسان شيئاً بنفسه وهو ليس فيه ، وهو ما يرد استعماله في الحديث والخطابة أيضاً . فيقال مثلاً للأشخاص الذين يستخدمون ألفاظاً ومصطلحات عجيبة وغريبة بدل استخدامهم الكلام الفصيح والبلغ بأنهم أشخاص مُتكلّفون في الكلام .

جاء في الحديث الشريف أنه صادف أن أحد الحضور في جلسات الرسول الأكرم (ص) صار يستخدم من هذه الكلمات والتعبيرات العجيبة الغريبة فقال (ص) : « أنا وأتقياء أمي براء من التكلّف » .

فالتكلّف غير الفصاحة . بل إنّ الفصاحة بالذات تعني الحديث السلس ، وعدم التكلّف ، وعدم التعقيد في الحديث . لقد ورد على لسان الأنبياء عليهم السلام - حول التبليغ في قوله تعالى : ﴿ مَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ^(١) وكما جاء في تفسير المفسرين لهذه الآية فإنّ المعنى لا يُفِيد بأنّ المتحدّث ليس من المتكلّفين في حديثه ، بل إنّ المقصود إنه غير مُتكلّف فيما يقوله من الحديث . أي أنّه لا يقول ، ولا يتحدث بما لا يعرفه ، وليس ثابتاً وظاهراً ويُسأل له . أي إنه لا يتظاهر بمعرفة أمر ما أمام الناس في الوقت الذي هو يجهل ذلك الأمر أو أن حقيقته لم تتبيّن بعد .

لقد ورد في (مجمع البيان) في سياق تفسير هذه الآية الشريفة أنه روي عن (عبد الله بن مسعود) عن النبي (ص) أنه قال : « يا أيها الناس من علّم شيئاً فليقل ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، فإنّ من العلم أن يقول لما لا تعلم الله أعلم » ^(٢) .

نعم فإنّ أحد العلوم هو العلم بأنك لا تعلم ، فالاعتراف بهذا الأمر هو بحد ذاته درجة من درجات العلم و(عبد الله بن مسعود) بعد أن ينقل هذا الحديث يردف فيقول : « فإن الله تعالى قال لنبيه (ص) : ﴿ قل ما أسألكم عليه من

(١) سورة (ص) : الآية ٨٦ .

(٢) مجمع البيان ج ٨ ص ٤٨٦ .

أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿١﴾ . مما يعني أن (عبد الله بن مسعود) وهو من صحابة النبي الكبار قد استخدم هو الآخر عبارة « ما أنا من المتكلفين » بمعنى أن على كل من يعلم أن يقول ما يعلم وما لا يعلمه عليه أن يقول بأنه لا يعلم .

فهذا (ابن الجوزي) وهو من الخطباء المعروفين حيث يُقال إنه صعد مرة فوق أحد المنابر الذي يرتفع عن الأرض ثلاث درجات وإذا بامرأة تأتي إليه وتسأله مسألة ما فيقول لها لا أعلم فتجيبه المرأة : « لَمَّا كُنْتُ لَا تَعْلَمُ فَلَمَّاذَا صَعِدْتَ ثَلَاثَ دَرَجَاتٍ أَعْلَى مِنَ النَّاسِ ؟ » . فقال لها : « إِنَّ هَذِهِ الدَّرَجَاتُ هِيَ لِتِلْكَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي أَعْرِفُهَا وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهَا . وَإِنَّهُ لَوْ كَانَ الْمَفْرُوضُ أَنْ يُصْنَعُوا لِي مَنِيرًا بِحَسَبِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي أَعْرِفُهَا لَوَجِبَ عَلَيْهِمْ صَنْعُ مَنِيرٍ يَصِلُ فِي عُلُوِّهِ إِلَى الْقَمَرِ » .

الشيخ (الأنصاري) وهو من العلماء الأعلام العظام سواء من الناحية العلمية ، كما في بابي الفقه والأصول ، حيث يُعتبر حقيقة من العلماء المحققين من الطراز الأول أو من ناحية الورع والتقوى . ولذلك تراهم كانوا يُبالغون كثيراً عندما يتحدثون عنه إذ كانوا يقولون عنه مثلاً : إِنَّ الشَّيْخَ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ وَإِنَّ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ غِيَابُ آيَةِ مَسْأَلَةٍ عَنْهُ .

ومع كل هذا فإنه كان يحصل أن يُسأل عن مسألة شرعية معينة فلا يتذكر لها حلاً رغم أنه كان من المجتهدين ، وكلما كان لا يتذكر الحل كان يقول بصوت عالٍ بأنه لا يعلم حتى يُسمع السائل والتلامذة المحيطين به بأن الاعتراف بعدم العلم ليس أمراً مُثِيناً .

وكان إذا سُئِلَ عن مسألة معينة ، وكان عنده حلها ، يُجيب السائل بحلها بصوت منخفض لا يسمعه إلا السائل نفسه . وإذا لم يكن يعرف جوابها فإنه كان يُردّد بصوت عالٍ يسمعه الجميع لا أعرف ، لا أعرف ، لا أعرف .

هناك مسألة أخرى يذكرها القرآن الكريم في الحديث عن الطريقة

(١) نرى المصدر السابق .

والأسلوب التبليغي ، وذلك على لسان الأنبياء ، ألا وهي مسألة التواضع (مقابل الاستكبار) . فمن يُريد أن يُبلِّغ الرسالة ، ولا سيما إذا كانت الرسالة إلهية ، فإنه مطلوب منه إظهار أعلى درجات التواضع أمام الناس ، أي ينبغي عليه الابتعاد عن كل مظاهر الادّعاء والانانية (أنا) تماماً ، ومن ثم عدم تحقير الناس أبداً ، ولا بد له أن يضرب المثل الأعلى في الخشوع والتواضع . فالقرآن الكريم يورد حديثاً للنبي (نوح) عليه السلام ، وهو يخاطب بعضاً من أهل قومه ، كما ورد في قوله تعالى : ﴿ أَوْعِظْهُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ﴾ (١) . فانظروا إلى عبارة « من ربكم » ولا حظوا كيف أنه لا يريد تخصيص مقام الربوبية به ويقول - ربى - بل يقول « ربكم » أنتم على ما هي حالتكم عليه . ثم يقول : « على رجلٍ مِنْكُمْ » أي على واحد من مثلكم .

إنه منتهى التواضع البشري وهو ما جاء ذكره في القرآن الكريم في مكان آخر على لسان النبي محمد (ص) : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ (٢) .

نعم ثم يضيف سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٣) .

وهناك مسألة أخرى يمكن إضافتها إلى قضايا التبليغ وطرقه وأساليبه ألا وهي مسألة الرفق واللين أي الابتعاد عن مظاهر الخشونة . فمن يُريد إبلاغ رسالة ما إلى الناس وخاصة إذا ما كانت الرسالة هي نداء السماء ، ويهدف إلى إيجاد الإيمان والعلاقة بين الفرد والرسالة السماوية ، فلن عليه أن يكون لين القول وسهل الحديث . فالحديث أيضاً مثل الماديات في الدنيا فمنه الناعم ومنه الخشن .

فأحياناً يأتي الحديث إلى الإنسان ، ويصل إلى مسامعه ، ليناً سهلاً بشكل وكأنه (راحة الحلقوم) بالنسبة للبدن ، أي ناعماً وملائماً ولطيفاً إلى درجة يجذب قلب الإنسان إليه بأي شكل من الأشكال .

(١) سورة الأعراف : الآية ٦٣ .

(٢،٣) سورة الكهف : الآية ١١٠ .

وأحياناً أخرى يصل الحديث إلى مسامع الإنسان خشناً وصلباً بشكل كما لو أنّ المسامير قد دُقَّت على أطرافه ، حديثاً محاطاً بالشوك والتحقير والكنائية والسخرية ، وخشناً إلى الدرجة التي يتمنى فيها الإنسان طرده من مسامعه وعدم قبوله .

فهذا هو القرآن الكريم يُرسل (موسى) و(هارون) - عليهما السلام - إلى محاوره (فرعون) ودعوته للحق ويضع في صُلب تعليماته لهما طريقة الدعوة ومنهجها في قوله تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (١) . ورغم ذلك كله فإنّ (فرعون) لم يهتد ، ولم يكن من السامعين ، لكنه منهج الأنبياء حتى مع (فرعون) في الدعوة .

ويقول القرآن الكريم حول النبي الأكرم (ص) : ﴿ فِيهَا رَحْمَةٌ مِنْ اللَّهِ لِنَبِيِّهِمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٢) .

نعم فالله سبحانه وتعالى هنا يخاطب النبي الأكرم ، ويُذكره بأنّ نعمة الله ورحمته هي التي جعلت منه ذلك الرسول اللين السهل القريب إلى الناس ، وأنّه لولا هذه اللبونة ، ولولا دفع الخشونة عنك يا رسول الله ، لانفض الناس من حولك مع كل معجزاتك التي تملكها ، وكل هذا الإعجاز القرآني الذي بين يديك ، إضافة إلى كل مميزاتك ، ومواصفاتك الأخرى . فاللبونة عامل مؤثر في التبليغ وهداية الناس إلى العرفان والإيمان .

وهناك قصص كثيرة في هذا المجال يمكن ذكرها إلا أنّ البحث يطول ، ولكن هل إنّ اللبونة والسهولة هذه تتناقض مع الصلابة ؟

كلّا فهناك فرقٌ بين الخشونة والصلابة . فهلّا لاحظت مرةً حبة الحصى

(١) سورة طه : الآية ٤٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

الصغيرة الغائرة في قعر الأنهار وتلمستها جيداً ورأيت كيف أن احتكاك المياه الدائم بها بفعل السنين الطويلة قد صلب من كيانتها، لكنه نعم ملمسها كثيراً، فتراها قوية صلبة، لا فرق بينها وبين سائر الأحجار والصخور الأخرى، لكنها ناعمة وملساء إلى درجة أن الإنسان لا يشعر عند لمسها بأي إزعاج أو عدم ارتياح يذكر، بل إن الإنسان ليُشعرُ بالانزعاج والخشونة من مسح يديه على ملابسه أكثر من مسحه إياها على تلك الحصى. وإن سيفاً مصقولاً ترى فيه من الليونة ما يشبه حركة السوتر وليونته، لكنه في الوقت ذاته، يملك صلابة وصرامة.

أن تكون صلباً، ومعكم البنية، وشجاعاً، ولا تخاف أحداً غير الله، شيء، وأن تكون خشناً شيء آخر، فالأنبياء وعلى الرغم من كل التواضع والنعومة التي كانوا يُبدونها في أحاديثهم وأخلاقهم وسلوكهم مع الناس، إلا أنهم لم يكونوا على استعداد للتراجع، أو التنازل، قيد أنملة، عن مبادئهم، فهم لا يخافون من شيء ولا يخشون أحداً غير الله.

فالشجاعة والشجاعة يمكن اعتبارها شرطين من شروط الرسول وجزءاً لا يتجزأ من منهج الدعوة وكيفية التبليغ. والآية القرآنية التي قراتها عليكم في أول المحاضرة تُفيد هذا المعنى قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ اللَّهَ إِلَّا اللَّهَ﴾ (١).

المسألة الأخرى التي ترد في موضوع بحث طرق تبليغ الأنبياء ومنهجهم، هي مسألة كون الأنبياء لا يُمثلون في الواقع إلا دور الرُّسل، ولا يملكون شيئاً من عندهم أبداً. فهم خلق الله، ورُسُلُهُ، ومُبلِّغون رسالاته. فلم يأتوا ليقوموا صكوك الجنة، أو النار، لأحد من الناس، كما فعل قساوسة المسيحية من قبل، وربما لا يزالون؛ فلا أحد من الأنبياء يستطيع ضمان أي مقدار من الجنة لأحد من الناس. وعلى الرغم من أنهم كانوا يعرضون رسالاتهم بكل يقين واطمئنان ولا يتناهبهم شك أو تردد في أي جزء من الرسالة إلا أنهم كانوا إذا ما سُئلوا عن

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .

عواقب أمور الناس ونهاياتهم ، كانوا يكتفون بالقول : الله هو العالم ، وعنده
بواطن العلوم ، والله وحده هو العالم بعاقبة كل امرئ؛ إلى أين تنتهي .

فمن لا يعرف ذلك الصحابي الجليل والمهاجر العظيم (عثمان بن مظعون)
والذي كتب عنه المؤرخون أنه من أوائل المهاجرين الذين انتظموا مع الرسول
الأكرم (ص) في المدينة المنورة . وهذا الصحابي كان أول الراحلين إلى الملا الأعلى
في (المدينة المنورة) . وقد أمر الرسول الأكرم (ص) بدفنه في (البقيع) وهي
الأرض التي صارت (مقبرة البقيع) بعد أن دفن هذا الصحابي الجليل فيها ،
وقبره الآن موجود في القسم الشرقي منها وقد كان الرسول (ص) يُحِبُّهُ وَيُقَدِّرُهُ
تقديراً كبيراً ، والكل كان يعرف ذلك .

وهو من يقول عنه أمير المؤمنين علي (ع) في (نهج البلاغة) : « كان لي فيما
مضى أخ في الله ، وكان يُعَظِّمُهُ في عيني صَغُرَ الدنيا في عينه »^(١) وهذا ما يقول به
شارحو نهج البلاغة ويُضيفون بأنَّ أمير المؤمنين (ع) كان له ولدٌ اسمه (عثمان)
وأنَّه قد سَمَّاهُ يومها على اسم (عثمان بن مظعون) تاسيًّا بذلك الصحابي الجليل .

ويذهب مثل هذا الرجل من الدنيا بعد أن كان يسكن في دار أخٍ أنصاري
له ، ومعه أيضاً كانت تسكن امرأة في تلك الدار ، وربما كانت زوجة ذلك
الأنصاري كان اسمها (أم علاء) حيث كانت بخدمة ذلك الصحابي أيضاً .

يقول الراوي إنَّ رسول الله (ص) قد حضر للمشاركة في تشييع جنازة
(عثمان بن مظعون) وقد تَصَرَّفَ في تلك المراسم كما يتصرف مع أخص أصحابه
وأنصاره . وأثناء تلك المراسم إذا بـ (أم علاء) تُدير وجهها نحو جنازة
(عثمان بن مظعون) وتقول : « هنيئاً لك الجنة » . فإذا بالرسول الأكرم ينظر
إليها ويقول لها بصوت حاد : ومن قال لك هذا؟ قالت يا رسول الله ! فهذا من
صحابتك وأنا إنما قُلْتُ ذلك لعلاقتك ومحبتك الشديدة له . فما كان من

(١) نهج البلاغة حكمة ٢٨١ ص ١٢٢٥ .

رسول الله (ص) إِلَّا أَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكَرِيمَةِ : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ (١) .

إنه لا مَرَبْلَيْغَ حَقًّا . وشبه ذلك ورد في نهاية سورة الجن المباركة : ﴿ قُلْ أَنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿ (٢) .

إن إحدى الخصائص البارزة جداً في الأسلوب التبليغي الذي أتبعه الرُّسُلُ والأنبياء ، وربما ورد ذكر ذلك في القرآن حول الرسول الأكرم محمد (ص) أكثر من غيره ، هي عدم التفريق بين طبقات الناس في تبليغ الإسلام . فالزمان والعصر هو العصر الجاهلي والحياة الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك حياة طبقية عجيبة فالفقراء عندهم لم يكونوا من البشر فضلاً عن الغلمان والعبيد .

أما الأشراف والأعيان والذين يُعَبَّرُ عنهم القرآن الكريم بالملأ فإنهم كانوا يعتبرون أنفسهم هم أصحاب الحق الدنيوي على الدوام ومن بعد الإسلام فإنهم أصحاب الحق الآخروي أيضاً . وهؤلاء لم يكتفوا باحتقار الفقراء وعدم الحساب لهم بأي حساب ، بل إنهم كانوا يعتقدون بأن هذا التفاوت الطبقي سيظل سائداً حتى في الآخرة . فالدنيا بنظر هؤلاء الملأ دليل الآخرة وعندما نكون مُعَزَّزِينَ ومُكْرَمِينَ في الدنيا فهذا دليل على أَنَّ الله يُحِبُّنا ويُعَزِّزنا حتى منحنا كل هذه الأشياء وبالتالي فإنه سَيَمُنَّ علينا في الآخرة بمثل هذا ، وأما أنتم الفقراء فإنكم ستظلون كذلك على حالكم هذه . فالتعيس والبائس في الدنيا تعيس وبائس في الآخرة أيضاً .

وكان أولاء يقولون للرسول الأكرم (ص) : اتعرف يا رسول الله أين يكمن عيبك ؟ وهل تعرف لماذا نحن مترددون في قبول رسالتك ؟ ذلك لأنك قد جمعت حولك المسحوقين والأراذل من الناس . إكنس هؤلاء من حولك

(١) سورة الأحقاف : الآية ٩ .

(٢) سورة الجن : الآيتان ٢١ - ٢٢ .

وعندها سترانا نحن الأعيان والأشراف قد أحطنا بك . لكن القرآن الكريم يقول لنبيه الكريم أَنْ صُدُّهُمْ رُدُّ عَلَيْهِمْ يَاعْمَدُ وَقِلْ لَهُمْ : ﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ ^(١) . فأنالستُ بطارد المؤمنين بجريمة كونهم غلماناً أو عبيداً أو فقراء أبداً . قال تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ ^(٢) . فلا تطرد هؤلاء من حولك يا رسول الله . هكذا يخاطبه ربه ، دُعُ الأشراف يولون وجوههم حيثما شاؤوا وإن أرادوا الإسلام فليصبحوا من الآدميين .

ربما سمعتم قصة أحد هؤلاء الأعيان من المسلمين عندما كان جالساً في مجلس الرسول (ص) . فلما كانت السُنة والسيرة عند رسول الله (ص) تقضي بالجلوس دائرياً في المجالس أي بشكل حلقة حتى لا يتشكل من المجلس مكان أعلى ومكان أسفل ، وتقضي ثانياً بنهي الرسول لأصحابه عن القيام لأي أحد عند دخوله المجلس وقوله بأنها من سُنَّة الأعاجم ، سُنَّة الإيرانيين . وقوله - صلى الله عليه - بأن من دخل مجلساً فليجلس حيثما وجد مكاناً للجلوس ، لا أن يُجبر الناس على القيام حتى يفرغ محل للجلوس من أجل أن يجلس فلان في صدر المجلس مثلاً . فالإسلام ليس فيه كل ذلك .

ويقول الراوي إنه دخل على هذا المجلس رجل فقير رث الملابس ، فوجد محلاً فارغاً إلى جانب ذلك الرجل من الأعيان فجلس حيث وجد المكان . وما أن جلس الفقير حيث جلس حتى ملّم نفسه ذلك الغني الوجيه حسب العادات الجاهلية وانحاز جانباً في مقعده ، فانتبه الرسول الأكرم (ص) لحركة ذلك الوجيه فقال له ما الخبر يا فلان ؟! أخشيت أن يلتصق جزء من ثروتك بهذا الرجل قال لا يا رسول الله . قال : أم خفت أن جزءاً من فقره سيعلق بك ؟ قال لا يا رسول الله . قال : ولماذا إذاً تصرفت هذا التصرف ؟ قال أخطأت يا رسول الله وإنني على استعداد لدفع نصف ثروتي الآن وفي هذا المجلس لأخي المسلم هذا عقاباً لي

(١) سورة الشعراء : الآية ١١٤ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٥٢ .

عل جريمتي هذه . فقيل لذلك الأخ المؤمن قم وخذ ما يُريد منحه إياك هذا الرجل قال لا أريد ذلك . فقالوا له ولكنك لا تملك الثروة والمال فلماذا لا تأخذ؟ قال لأنني أخاف إن أخذتها أن أصبح يوماً مغروراً ومتكبراً مثله .

هناك مسألة أخرى تُطرح أيضاً في سياق أسلوب التبليغ هي مسألة الصبر والاستقامة . قال تعالى : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ (١) . وقال كذلك : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ (٢) أو كما ورد في مكان آخر ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾ (٣) . وعبرة « فاستقم كما أمرت » هذه وردت في مكانين في سورة (الشورى) كما في سورة (هود) . لكنها في سورة (الشورى) تكتفي الآية بمخاطبة الرسول الأكرم (ص) وحده ، في حين أنها في سورة (هود) تخاطب النبي وأصحابه معه ، حيث تطلب ، منه ومن أصحابه أيضاً ، الاستقامة والصمود . من هنا يُنقل عن الرسول (ص) قوله : « لقد شيتني سورة هود » (٤) . فهي لم تطلب منه لوحده الاستقامة بل تطلب منه إبلاغ أصحابه أيضاً ودعوتهم إلى الصبر والاستقامة .

ولا بد لنا هنا في هذا المجال من الحديث بعض الشيء عن الأسلوب التبليغي للإمام الحسين (ع) . فقد قام أبو عبد الله الحسين بعدد من الأعمال والإجراءات التي يمكن اعتبارها أسلوباً وطريقة ومنهجاً له ، في إدارة النهضة والحركة الحسينية . ولكن دعوني الآن أترك الحديث عن أسلوب وطريقة عمل الإمام الحسين (ع) إلى الليلة القادمة وهي ليلة عاشوراء ، فلأنني أريد قراءة شيء من المقتل عليكم هذه الليلة .

والحقيقة أنها سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ في كل مكان تقريباً وهي الحديث عن حضرة (أبي

(١) سورة القلم : الآية ٤٨ .

(٢) سورة الأحقاف : الآية ٣٥ .

(٣) سورة هود : الآية ١١٢ .

(٤) مجمع البيان ج ٥ ص ١٤٠ .

الفضل العباس) - سلام الله عليه - في ليلة التاسع . فمقام أبي الفضل العباس رفيع جداً . فأنتمنا عليهم السلام قالوا عنه : « إِنَّ لِلْعَبَّاسِ - مَزَلَّةً عِنْدَ اللَّهِ يَغِيْطُهَا بِهَا جَمِيعُ الشُّهَدَاءِ » (١) .

وما يؤسف له القول بأن التاريخ لم يترك لنا كثيراً عن حياة هذا الرجل الجليل والعظيم . أي إنه لو شاء أحد أن يكتب كتاباً في سيرة العباس فسوف لن يجد الكثير . ولكن ماذا تنفع المعلومات الكثيرة ؟ فأحياناً تكون حياة يومين أو ثلاثة أيام أو خمسة لشخص ما والتي لا يطول شرحها ولا يستوعب أكثر من خمسة صفحات من الورق لكنها مشرقة إلى درجة أنها تثبت وتبرهن قيمة ذلك الشخص ، وأهميته بمقدار عشرات الكتب . وحضرة أبو الفضل العباس هو من هذه الشخصيات النادرة ، كان يبلغ من العمر في واقعة (كربلاء) حوالي (٣٤) عاماً وكان له أبناء من جملتهم ولد اسمه (عبيد الله بن عباس بن علي بن أبي طالب) وهو الذي ظل على قيد الحياة لزمان طويل بعد الواقعة .

ينقل الرواة أن الامام زين العابدين (ع) وقعت يوماً عيناه على عبيد الله فتذكر مأساة (كربلاء) فسالت الدموع من عينيه على الفور .

كان للعباس (ع) من العمر ما يقارب سن البلوغ في يوم استشهاد أمير المؤمنين علي (ع) ، أي حوالي ١٤ عاماً . فانا أتذكر أنني قرأت في (ناسخ التواريخ) بأنه قد حضر عليه السلام معركة صفين . ولكنه لما كان بعد في سن الطفولة - ما قبل البلوغ - (لأن معركة صفين وقعت حوالي ثلاث سنين قبل استشهاد أمير المؤمنين علي (ع)) فإن أمير المؤمنين لم يسمح له بالمشاركة في الحرب .

ولكنني كما أتذكر أن صاحب (ناسخ التواريخ) كتب أنه عليه السلام رغم ذلك كان يركب فرساً أسوداً ولا يُعرف عنه أكثر من ذلك . لكن موضوعاً آخر

(١) أبصار العين في أنصار الحسين ص ٢٧ . بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٢٩٨ . نقلاً عن آمالي الصدوق مجلس ٧٠ رقم ١٠ .

يخص (أبا الفضل) كتبه كثير من الرواة وقد ذكرته المقاتل المعتبرة والمُسندة ومفاده أن أمير المؤمنين علي (ع) قد طلب ذات يومٍ من أخيه (عقيل) أن يختار له امرأةً كما ورد ولدتها الفحولة ، أي أن تكون من سلالة الشجعان . ولما كان (عقيل بن أبي طالب) من النسابة ومن أهل الخبرة الذين يعرفون بطون القبائل ، وعرق وعنصر كل عشيرة وقبيلة من قبائل العرب ، لذلك قال لأخيه فوراً: « غني لك بأم البنين بنت خالد » . وأم البنين تعني كما توضح التسمية نفسها بأنها أم الأولاد والبنين . ويبدو كما يذكر ذلك التاريخ أن إحدى جدّات هذه المرأة الصالحة كان اسمها أم البنين أيضاً ولهذا السبب كما يبدو سُميت (أم العباس) بأم البنين أيضاً . وهكذا كان فقد اختيرت أم البنين لعلي بن أبي طالب وقد ولدت له بالفعل أربعة أولاد ولم تَلِدْ له على الظاهر بتاً وبهذا تكون تسمية أم البنين قد انطبقت عليها بالفعل .

بالطبع فإن أمير المؤمنين علي (ع) كان له أولاد شجعان غير أبي الفضل . فهناك أولاً الحسان (الحسن والحسين) - سلام الله عليهما - وشجاعتهما محرزة في أكثر من موقع لا سيما الإمام الحسين عليه السلام الذي برزت شجاعته بوضوح في واقعة (كربلاء) إذ أبدى بطولة نادرة ورثها عن أبيه علي عليه السلام . بالإضافة إلى ذلك فهناك (محمد بن الحنفية) وهو أكبر بكثير من العباس وقد شارك في معركة (الجمل) حيث أبلى فيها بلاءً حسناً فكان قوياً وشجاعاً وجليلاً . ويبدو أن أمير المؤمنين (ع) كان يُبدي اهتماماً خاصاً به (بالطبع لم نعر على هذا في متن التواريخ فهو موضوع في حد الحُدس)

المشهور بين المقاتل المعتبرة أن أول من استشهد من أهل بيت النبوة في (عاشوراء) هو (علي الأكبر (ع)) وآخر من استشهد منهم هو (أبو الفضل العباس (ع)) . أي أنه بعد أن استشهد عليه السلام لم يكن قد بقي مع الحسين (ع) أي واحد من الأصحاب أو من أهل البيت من المقاتلين . قالوا فجاء إلى أخيه الحسين (ع) يستأذنه في القتال ويطلب الرخصة منه للخروج إلى الميدان ويقول له قد ضاق صدري وسئمت الحياة . فهو قد بعث بإخوته الثلاثة من أمه إلى ميدان القتال ليستشهدوا أمامه في سبيل الحسين (ع) وهو يقول لهم اذهبوا إلى

ميدان القتال فلاني أريد أن أحمل أجر مصيبة أخي أبي عبد الله . وعليه فقد أصبحت أم البنين أمّاً لشهداء أربعة استشهدوا جميعاً في كربلاء وهي لم تكن فيها فقد كانت في المدينة ولا تعرف ماذا سيحل بأهل بيت النبوة فيها .

لم يكن أحد في المدينة يعرف ماذا يجري لآل البيت في (كربلاء) . ولكن الاخبار وصلت أخيراً إلى المدينة وهي تحمل نبأ استشهاد الأولاد الأربعة لام البنين . تلك المرأة التي لم تكن تملك في الدنيا شيئاً سوى أولادها الأربعة هؤلاء . وبالطبع فإن هذه المرأة كانت امرأة شجاعة وكاملة لكنها تظل رغم ذلك امرأة وقد أصبحت أرملة بعد أن فقدت زوجها وكل أولادها مرة واحدة . ولذلك يُقال إنها كانت تجلس أحياناً في الطريق المؤدية إلى الكوفة من المدينة وتبدأ في رثاء أولادها وتنتحب وتبكي عليهم وتندبهم .

التاريخ يكتب أن هذه المرأة كانت قد أصبحت بحد ذاتها وسيلة من وسائل التبليغ ضد حكم بني أمية . فكل من كان يمر بتلك الطريق ويراهم تبكي أولادها وترثيهم كان يتوقف عندها ويبكي معها ، حتى أن (مروان بن الحكم) الذي كان حاكماً للمدينة وهو الذي يعتبر من الدّ أعداء آل البيت فإنه كلما كان يمر بها كان يجلس عندها بدون إرادة ويبكي معها . وكانت هذه المرأة الصالحة تجلس أحياناً وتبدأ برثاء أولادها بأبيات من الشعر ترثي أبناءها فيها وتقول :

لَا تَذْعُونِي وَنَيْكَ أُمُّ الْبَنِينَ تُذَكِّرُنِي بِلُيُوثِ الْعَرِينِ
كَانَ لِي بُسْنُونٌ أَدْعَى بِهِمْ وَالْيَوْمَ أَصْبَحْتُ وَلَا مِنْ بَنِينَ^(١)

نعم ، فقد كانت يوماً أم البنين وهي اليوم قد فقدتهم جميعاً ولا سيما رشيدهم وأشجعهم وأباهم أبو الفضل العباس وقد رثته بأبيات من الشعر شجيرة ومحرقة للقلوب . حيث تقول فيها :

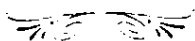
يَا مَنْ رَأَى الْعَبَّاسَ كَرَّ عَلَى جَـمَاهِرِ النَّقْدِ
وَوَرَاءَهُ مِنْ أَبْنَاءِ حَيْذَرٍ كُلِّ لَيْثٍ ذِي لَبَدِ

(١) منتهى الآمال ج ١ ص ٣٨٦ . إِبْصَارُ الْعَيْنِ فِي أَنْصَارِ الْحُسَيْنِ (ع) ص ٣١ .

أُثْبِتَ أَنَّ ابْنِي أُصِيبَ بِرَأْسِهِ مَقْطُوعٌ يَدٌ
وَيَلِي عَلَى شَبَلِي أَمَالَ بِرَأْسِهِ ضَرْبُ الْعَمَدِ
لَوْ كَانَ سَيْفُكَ فِي يَدِيكَ لَمَا دَنَا مِنْكَ أَحَدٌ^(١)

لَقَدْ سَأَلْتُ عَنِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا ابْنُهَا الْعَبَّاسُ . فَقَالُوا لَهَا لَقَدْ قَاتَلَ
قَتَالَ الْأَبْطَالَ ، وَكَانَ يَصُولُ وَيَجُولُ فِي أَوْسَاطِهِمْ ، أَوْسَاطُ مَعْسَكِرِ الْأَعْدَاءِ ،
وَيَضْرِبُ فِيهِمْ بِسَيْفِهِ عَنْ يَمِينٍ وَعَنْ شِمَالٍ ، لَكِنَّهُمْ وَبَعْدَ أَنْ قَطَعُوا يَمِينَهُ وَمِنْ ثُمَّ
شِمَالَهُ قَطَعُوا عَلَيْهِ الطَّرِيقَ تَمَامًا وَازْدَحَمُوا عَلَيْهِ وَأَتَتْهُ السَّهَامُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَالْمَطَرِ ،
فَأَصَابَ الْقُرْبَةَ سَهْمٌ فَارِيقٌ مَازَها ، وَجَاءَ سَهْمٌ فَأَصَابَ صَدْرَهُ الشَّرِيفَ ، وَسَهْمٌ
آخَرَ أَصَابَ إِحْدَى عَيْنَيْهِ ، إِلَى أَنْ ضَرَبَهُ لَعِينٌ آخَرٌ مِنَ الْقَوْمِ بِعَمُودٍ عَلَى أَمِّ رَأْسِهِ
فَانْقَلَبَ عَنْ ظَهْرِ فَرْسِهِ ، وَخَرَّ إِلَى الْأَرْضِ صَرِيحًا وَالْعَلَمُ إِلَى جَنْبِهِ ، وَجَعَلَ يَخْجُرُ
بِدَمِهِ ، فَقَطَّعَهُ الْقَوْمُ بِسَيَافِهِمْ . رُوحِي فِدَاكَ يَا أَبَا الْفَضْلِ الْعَبَّاسُ !!! « لَوْ كَانَ
سَيْفُكَ فِي يَدِيكَ لَمَا دَنَا مِنْكَ أَحَدٌ » .

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ
وَسَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ .



(١) المصدر السابق .

المحاضرة الرابعة

أساليب التبليغ في

النهضة الحسينية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين والمعصومين .

﴿الذين يُؤَلِّفُونَ رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً﴾^(١) .

لقد وعدتكم الليلة الماضية أن أعرض عليكم هذه الليلة ، وهي ليلة عاشوراء ، بمقدار ما أستطيع ، وبمقدار ما يُساعدني الحضور الذهني ، أساليب وطرق التبليغ (بمعنى الصحيح) التي اتبعها الحسين في نهضته ، ولكنني سأبتدىء معكم أولاً بتقديم بعض الملاحظات الهامة التي تُبَيِّنُ لكم القيمة البالغة لما يمكن أن نصطلح عليه بالتكتيك الدعائي (التبليغي) الذي اتبعه أبا عبد الله عليه السلام .

لقد وقعت في الخمسين سنة الفاصلة بين وفاة الرسول (ص) وبين شهادة

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .

الحسين بن علي (ع) أحداث وقضايا خطيرة وجرت تحولات بالغة الأهمية .

يلاحظ المحققون المعاصرون المطلعون على مبادئ علم الاجتماع وعلى الأخص الأستاذ (عبد الله العلايلي) ، بالرغم من كونه سنياً ، حيث يركز هو بالذات أكثر من غيره على هذه الناحية من البحث . فيقول : إن بني أمية وخلفاء لكل قبائل العرب (قريش وغير قريش) لا يُشكّلون مجعاً عرقياً فقط بل إنّ طريقة عملهم ونشاطهم أشبه ما تكون بطريقة الحزب ، أي إنهم كانوا يُعبرون عن تصور فكري اجتماعي خاص ، وإن وصفهم أشبه ما يكون باليهود في عصرنا الراهن بل وعلى طول التاريخ . فقد تصرفوا على الدوام على أنهم تجمع عرقي يحمل أفكاراً ومبادئ خاصة بهم لا يكتفون بالتنسيق والتكامل فيما بين نشاطاتهم للوصول إلى تحقيق تلك المبادئ ، بل إنهم يملكون المخطط والمشروع الخاص بهذه المبادئ ، ووصف المؤرخون القدامى بني أمية على أنهم تجمع عرقي يغلب عليه طابع الدهاء والمواصفات الشيطانية .

واليوم أيضاً تراهم يوصفون بنفس تلك المواصفات ولا يغرب عن بال أحد بأن بني أمية هم أول مجموعة بشرية أحسّت ، أكثر من أي تجمع بشري آخر ، بقدوم الخطر عليها بعد ظهور الإسلام في الجزيرة العربية . فقد اعتبرت الإسلام مصدر خطر شديد على مواقعها ، وقاتلته بكل ما أوتيت من قوة إلى أن جاء يوم فتح مكة بعد أن يشت من محاربه واطمأنت إلى الهدنة التي أعلنها الرسول (ص) فأعلنت عند ذلك إسلامها الظاهري فقال عنهم عمار بن ياسر : « ما أسلموا ولكن . . . » والرسول (ص) قد عاملهم بالفعل على أساس المؤلفة قلوبهم أي أولئك القسم من الناس ممن أسلم ظاهرياً ولمّا يدخل الإسلام في عمق روحه .

والنبي الأكرم لم يُوكّل بدوره إية مهمة أساسية لبني أمية ، لكنهم بعد رحيله استطاعوا التسلل إلى داخل أجهزة الدولة الإسلامية تدريجياً . وأكبر خطراً تاريخي وسياسي حصل في أيام عمر بن الخطاب هو تمكّن أحد أولاد أبي سفيان المسمى يزيد من الوصول إلى منصب والي الشام مما مهد الطريق فيما بعد لمعلن نفسه ليستلم تلك الولاية لمدة عشرين عاماً أي ما بعد عهد حكومة عثمان

كانت الشام تشمل آنذاك تحت لوائها إضافة إلى سورية الحالية قسماً من تركيا وقسماً من لبنان وقسماً من فلسطين .

وبهذا يكون بنو أمية قد ثبتوا لأنفسهم موطىء قدم هام جداً في دار الخلافة، وأي موطىء قدم !

عندما تولى عثمان الخلافة بدا عليه وكأنه يختلف عن سائر أفراد بني أمية من حيث السمات الروحية المتفاوتة (فقد كان إنساناً خاصاً يختلف عن أبي سفيان) لكنه كان أمورياً في النهاية . إذ سرعان ما توسعت مواقع نفوذ بني أمية في داخل أجهزة السلطة الإسلامية في عهده . فقد وقع كثير من المواقع الهامة الإسلامية في عهده كولايات الدولة الكبرى أمثال مصر والكوفة والبصرة بيد بني أمية . حتى بيت مال الخليفة ودار الخلافة نفسها وقعت بيد مروان بن الحكم . وقد شكل هذا الشرخ خطوة هامة ساعدت بني أمية على المضي في تحقيق أهدافهم قُدماً .

وقد كان معاوية في هذه الأثناء يُركّز موقعه ويُعزّز حكمه يوماً بعد يوم . ومع اقتراب عهد عثمان من نهايته كانت بنو أمية قد تمكنت من القبض على مركزين هامين فقط من مراكز القوة في الدولة الإسلامية هما مركز القوة السياسية أي السلطة السياسية ومركز السلطة الاقتصادية أي بيت المال . ولكن مع مقتل (عثمان) راح (معاوية) يستدرج قوة جديدة إلى جانبه وذلك من خلال تشبيه فجأة بقصة الخليفة المقتول والمظلوم وبالتالي محاولة كسب العواطف الدينية والعقائدية للناس (على الأقل أهل الشام منهم) وصار يقول بأن خليفة الإسلام والمسلمين قد قُتل ، وقد قُتل مظلوماً ، وأنه : ﴿ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلَاهُ سُلْطَاناً ﴾^(١) وأن المطالبة بدم الخليفة المظلوم أمر واجب لا بد من القيام به . وبهذا يكون قد كسب وضم إليه العواطف الدينية لمئات الآلاف وربما الملايين من الناس . والله يعلم فقط مقدار الدموع التي استطاع (معاوية) أن يسكبها من مآقي الناس بفعل التعزية والتدبة على (عثمان) .

(١) سورة الإسراء : الآية ٣٣ .

كان هذا عمل بني أمية قبل خلافة (عثمان) وفي عهد عثمان وهذا هو حالهم مع مقتل (عثمان) الذي كان مقارناً مع خلافة علي عليه السلام .

أما بعد استشهاد علي عليه السلام فقد صار معاوية الخليفة المطلق للمسلمين وبذلك تكون كل السلطات والإمكانات قد أصبحت تحت تصرفه . بل إنه استطاع كذلك مع غصبه للسلطة الدينية أن يستثمر قوة رابعة وذلك من خلال تحويل الشخصيات والوجوه الدينية والذين يُسمون اليوم برجال الدين ، إلى أجراء يعملون عنده . ومنذ ذلك اليوم بدأت فجأة موجة الوضع والجعل في الحديث سواء في مدح (عثمان) أو حتى مدح الشيخين أحياناً ذلك أن (معاوية) كان يرى كل ذلك في مصلحته وضرراً لعل عليه السلام . وما أكثر الأموال التي صُرِفَت في هذا المجال .

وقد أشار علي (ع) في خطبه وأحاديثه مراراً إلى الخطر العظيم الذي يتمثل في بني أمية . ففي إحدى خطبه التي تطرق فيها إلى الخوارج وهي من الخطب التي أوردها في أواخر عمره حيث يقول عليه السلام : « فَاَنَا فَقَاتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ »^(١) ثم يقفز فجأة فوق الموضوع ويعود لبني أمية فيقول : « إِلَّا وَإِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمِيَّةٍ فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمِيَاءُ مُظْلِمَةٌ »^(٢) .

لقد وردت الإشارة إلى فتنه بني أمية في خطب كثيرة للإمام علي (ع) . ومن النقاط التي يُشير إليها عليه السلام عندما يتطرق لذكر فتنهم هي ضربهم للمساواة الإسلامية بشكل كامل بالإضافة إلى محاولاتهم الحثيثة لمحو أي أثر لنظام التأخي الإسلامي الذي دعا إليه الدين الحنيف حيث يؤكد في أكثر من خطبة بأن بني أمية سيقسمون الناس إلى عبيد وأسياد وأنتم أيها الناس ستحولون عملياً إلى عبيد بين أيديهم كما جاء في إحدى خطبه : « حَتَّى لَا يَكُونَ انتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا كَانتِصَارِ الْعَبْدِ مِنَ رَبِّهِ »^(٣) إلى آخر ذلك من الإشارات الكثيرة بهذا الخصوص .

(١) نهج البلاغة فيض الإسلام الخطبة ٩٢ ص ٢٧٣ .

(٢) نهج البلاغة فيض الإسلام خطبة رقم ٩٢ ص ٢٧٤ .

المسألة الثانية التي تمت الإشارة إليها في خطب أمير المؤمنين (ع) وجاءت ضمن تصورات المستقبلية للعهد الأموي وهو ما حدث بالفعل بعد رحيله عليه السلام ، هي تنبؤه بالقضاء على ذوي العلم والبصيرة من بعده .

يقول عليه السلام في هذا الصدد : « عَمْتُ خَطْئَهَا وَخُصَّتْ بَلِيَّتُهَا »^(١) . وهو تعبير بالغ الدقة وحسن التصوير للغاية . ويضيف بعد ذلك : « وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا وَأَخْطَأَ الْبَلَاءُ مَنْ غَمِيَ عَنْهَا »^(٢) .

نعم لأنهم لا يُريدون رؤية الإنسان البصير بينهم . والتاريخ يشهد على أن بني أمية قد قاموا بالفعل بجمع المتورين وأهل البصر والبصيرة من أفراد الأمة كما تجمع الدجاجات حبوبها وأفنؤهم جميعاً . وما أكثر المجازر المفجعة التي ارتكبوها في هذا المجال .

المسألة الثالثة هي مسألة هتك الحرمات الإلهية . حيث يتنبأ عليه السلام بأنهم سوف لن يتركوا من المحرمات شيئاً إلا ويرتكبوه كما جاء في قوله عليه السلام : « لَا يَدْعُوا اللَّهَ مُحَرَّمًا إِلَّا اسْتَحْلَوْهُ وَلَا عَقْدًا إِلَّا حَلُّوهُ »^(٣) .

والمسألة الرابعة تصل إلى أبعد من ذلك عندما يصلون إلى حد قلب الإسلام رأساً على عقب وإغفال الناس عنه بهذه الطريقة النكراء حيث يقول عليه السلام : « وَلَيْسَ الْإِسْلَامُ لُبْسُ الْفُرِّ مَقْلُوباً »^(٤) . أرايتم كيف أن الفرو إنما يتميز بأثره في التدفئة واستخدامه كإداة جمالية وجذابة وهي المميزات التي سيفقدونها تماماً فيما لو لبس مقلوباً . وأنت إن لبست الفرو مقلوباً فستحول أثره إلى ذلك الشيء الموحش الذي يثير الاشمئزاز والسخرية لدى الناس ، إنه باستشهاده عليه السلام لم ينته كما كان يتنبأ معاوية بل إنه بموته تحول إلى نموذج حي في المجتمع وإن كان قد قُتل كفرد من أفراد المجتمع . أي إن فكر علي قد انتشر بعد

(٢٠١) المصدر السابق .

(٣) نهج البلاغة فيض الإسلام خطبة ٩٧ ص ٢٩٠ .

(٤) نهج البلاغة فيض الإسلام خطبة ١٠٧ ص ٣٢٤ .

مئاته أكثر من ذي قبل كما أن الشيعة قد اجتمع شملهم في مقابل الحزب الأموي ، وتجلّت حالة من وحدة الفكر بينهم ، بل إن شيعة علي لم يصبح لهم كيان وتجمع مستقل إلا بعد استشهاد علي (ع) .

لقد حارب معاوية فكر علي بشدة طوال فترة حكمه المتجبر فهو قد أمر بسب علي ولعنه من على المنابر وذلك بتعميم حكومي أرسله إلى كافة المحافظات طلب فيه لعن علي في صلوات الجمعة . وهذه علامة بارزة على أنّ علياً إنما كان قد أصبح في حينه قوةً ، ومثلاً أعلى ، وفكراً وعقيدة ، وإيماناً حياً ، في روح الناس .

لقد عمل (معاوية) الكثير من أجل محاربة فكر علي وروحه . فهو قد سمّم هذا وقطع رأس ذلك وكل هذا كان محتملاً حتى ذلك الوقت ، فمعاوية رغم كل الذي حصل كان يحافظ على الظواهر من أجل خداع الناس . ولكن ما أن حان عهد (يزيد) حتى كُسرت الجرة وافتضح الأمر تماماً . وفي الحقيقة يمكن القول بأن مجيء يزيد إلى السلطة شكّل غلطة في السياسة الأموية فهو لم يتمكن من إجراء وتنفيذ السياسة الأموية . بل إنه فوق ذلك قام بعمل مزق من خلاله الستار الذي كان يستتره بنو أمية وقصّح أمرهم .

في مثل هذه الظروف بالذات يبدأ أبو عبد الله الحسين (ع) نهضته وتحركه . والآن سأحدث إليكم قليلاً عن هذه النهضة . سأقول لكم شيئاً أرجو أن تتأملوا فيه وتلاحظوا هل هو كذلك فعلاً أم لا ؟ فكما أنّ كلمات وآيات القرآن الكريم قابلة لاستيعاب نوع خاص من الألفاظ بسهولة بلحاظ لفظها وفصاحتها وبلاغتها وسلاستها وهو ما يشكّل بدوره آية كبيرة جداً من آيات الحكمة الربّانية ينفذ من خلالها القرآن إلى القلوب ، فإن المرء عندما يطالع تاريخ واقعة عاشوراء يلاحظ فيه استعداد وقابلية تحول هذه الواقعة إلى مسرح وتمثيلية تاريخية . وكما أنّ القرآن الكريم لم يأت بهدف استيعاب الألفاظ لكنه يحمل في طياته هذه القابلية كذلك حادثة كربلاء لم تُصنع بهدف أن تصبح مسرحية أو تمثيلية لكنها تحمل هذه القابلية .

لا أدري بالضبط مدى دقة انطباق هذا الكلام مع الواقع لكنني أعتقد أنّ

أبا عبد الله كان يقصد أن يخلق شيئاً من هذا القبيل . صحيح أنني لا أستطيع إثبات هذا الشيء لكنني لا أنفيه أيضاً . لقد دُوِّنت قصة كربلاء قبل حوالي ألف ومائتي عام على الورق وقد دونت في وقت لم يكن أحد يتصور أنها ستأخذ كل هذه الأبعاد . إن المتن الذي أعِدَّ بهدف عرض وقائع الحادثة ورد أساساً بطابع أدبي مسرحي كما لو أنهم كانوا يهدفون من وراء ذلك عرضه على المسرح . يوجد لدينا في التاريخ العديد من حوادث الاستشهاد الفجيع لكن هل يمكن القول بأن هذه القصة قد حصلت صدفةً بهذا الشكل المأساوي الخاص وإنه لم يكن فيها أي دور تعمدني وهادف من قبل أبي عبد الله الحسين نفسه ؟ لا أعرف ذلك بالضبط . لكن القضية بالنتيجة قد حصلت هكذا وأنا بدوري لا يمكنني التصديق بأن الأمر قد حصل على سبيل المصادفة المحضة .

الإمام يُطالب بالبيعة فيخرج مهاجراً بعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ تاركاً مدينة الرسول وراءه متوجهاً إلى (مكة) حيث حرم الله الأمن . وهناك يقصد الإقامة ويبدأ بالنشاط والحركة . فلماذا تراه اختار مكة ؟ لأن مكة موطن حرم الله الأمن وأنه اختارها لتصوره أن بني أمية سيحترمون هذا المكان ؟ فهل تراه كان يعتقد أن سياسة بني أمية إذا ما اقتضت مصلحتها العامة قتله فسوف لن يقتلوه في مكة ؟ أو لا ، فهو قد ذهب إلى مكة حتى يُعلن عن مخالفته للحاكم الجديد من خلال هذه الهجرة لأنه لو بقي في المدينة لم يكن باستطاعته إسماع صوته إلى العالم الإسلامي . وبهذه الطريقة يكون قد أعلن عن رفضه للبيعة وخرج بأهل بيته إلى مكة ، الأمر الذي أدى إلى أن ينعكس صدى عمله هذا في الأطراف والأكناف وإن العالم قد فهم بأن الحسين بن علي عليه السلام لم يوافق على البيعة مما حدا به لمغادرة المدينة والتوجه إلى (مكة) ، وهذا بحد ذاته (إذا ما صح التعبير) نوع من أنواع العمل الدعائي الهادف إلى إيصال هدف الإمام ورسالته إلى الناس .

إن الشيء الأكثر إثارة للعجب والإثارة هو أنه عليه السلام وبعد أن يرد (مكة) في الثالث من شعبان يقضي أشهر ، رمضان ، وشوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة (حتى يوم الثامن منه) وهي الأيام التي يُستحب فيها أداء مناسك العمرة حيث يرد الناس من الأطراف والأكناف إلى (مكة) لأداء هذه الوظيفة .

وبعد أن يمضي كل هذه الفترة إلى جانب حرم الله الأمن يبدأ فصل الحج بالاقتراب شيئاً فشيئاً ، وبعد أن يبدأ الناس بالتجمع والقُدوم بأعداد هائلة من أقصى بلاد خراسان إلى ما شاء الله من المناطق لأداء فريضة الحج الكبرى ، وبالضبط عندما يستعد الناس في يوم التروية للتوجه إلى (منى) و (عرفات) في يوم الثامن من ذي الحجة لأداء المناسك يُعلن الإمام الحسين (ع) وبشكل مفاجيء أنه يُريد مغادرة (مكة) متوجهاً نحو (العراق) ، إلى الكوفة .

أي إنه وفي مثل هذه الظروف بالذات يُدير ظهره للكعبة وللحج ، أي إنه يحتج .

إنه بذلك يُبين احتجاجه ونقده وعدم رضاه بهذه الوسيلة وبهذا الشكل .

أي إنه يُريد القول بأن (الكعبة) التي صارت مسخرةً لبني أمية ، وإن الحج الذي يُديره ويُشرف عليه (يزيد) لم يُعد فيه فائدة للمسلمين . إن هذا الإعراض عن الكعبة وعن أعمال الحج في مثل تلك المناسبة والقول فيما بعد بأنه إنما أعرض عن الحج لأنه ذاهبٌ إلى الجهاد وفي سبيل رضا الله وإنه أعرض عن الحج لأنه أراد التوجه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هو عمل بالغ الأهمية وليس بعمل بسيط أبداً .

إن القيمة التبليغية وأسلوب وطريقة ومنهج العمل الدعائي قد وصل هنا إلى أوجه . فهو قد اتخذ قراراً بالسفر في رحلةٍ كان رأي كافة العقلاء فيها (بالطبع العقلاء الذين يقوم حكمهم على معايير المصلحة) أنها لن تكون رحلةً موفقة وليست لصالح شخص الإمام الحسين (ع) . أي إنهم كانوا يتباؤن بمقتله في هذه الرحلة . والإمام الحسين يؤيد صحة تنبؤاتهم في أكثر من مورد بقوله : وأنا أعرف ذلك أيضاً .

وعندما يسألونه فما بالك إذن تأخذ معك الأطفال والعيال ؟ يقول : عليّ أنْ أخذ هؤلاء معي أيضاً . فوجود أهل بيت الإمام الحسين (ع) جعل من مسرح كربلاء أكثر حرارةً ولهيئاً ، وفي الواقع يمكن القول بأن الإمام الحسين (ع) قد

استخدم عدداً من المبلّغين الذين أخذهم العدو ويده وبارادته ، لينفذوا إلى قلب حكومة العدو في الشام . وهذا بعد ذاته تكتيك عجيب يفوق التصور الاعتيادي . كل ذلك كان من أجل أن يصل هذا الصوت بأكبر حجم ممكن إلى العالم كله وبأوسع شكل ممكن إلى العالم الإسلامي آنذاك ويشق أبعاد التاريخ وأبعاد الأزمان ، حتى لا يبقى أي مانع في طريقه .

في الطريق إلى (الكوفة) أيضاً نطالع أعمال الحسين (ع) فنراها عبارة عن تعبير تمثيلي وتصوري عن حقيقة الإسلام والمروءة والإنسانية والروح وحقانية الإسلام .

دعونا الآن عن كل هذا وانظروا لما يحصل فيها بعد ! أنه أمرٌ ليس بالبسيط ! ففي إحدى المنازل التي يترها الحسين في الطريق إلى (الكوفة) يأمر عليه السلام أصحابه بحمل الكثير من الماء ويقول لهم املاؤا كل ما عندكم من القرب بالماء ولا تدعوا واحدة منها تنقص نقطة ماء .

«وحملوا كل الدواب والجمال التي عندكم بالماء ما استطعتم» (إنه تنبؤ لذلك اليوم) . وبينما هم في الطريق إذا بأحد أصحابه يُنادي لا حول ولا قوة إلا بالله أو يكبر أو يقول لا إله إلا الله . أو إنا لله وإنا إليه راجعون . فيقولون له : ما الخبر ؟ فيقول لهم . إنني أعرف هذه الأرض جيداً ما بهذه الأرض نخلة قط . ولكنني أرى شيئاً يشبه النخيل من بعيد فيطلب الحسين من أصحابه التدقيق أكثر فيقول أصحاب النظر الحاد منهم : لا يا مولاي إنها ليست نخيلاً ، إنها رايات ورجال وخيول ، « لا نراه إلا هوائي الخيل » .

وبينما هم بين هذا القول وذاك بنظر الحسين بنفسه فيقول وأنا أراها كذلك أيضاً ، إنها الخيول . انظروا إلى ذلك الجبل على يساركم فضعوا الجبل في ظهوركم واتجهوا لتتزل تلك الأرض وتستقبل القوم من وجه واحد . إنه (الحرّين يزيد الرياحي) ومعه ألف فارس . والحسين (ع) كآبيه علي (ع) في معركة (صفين) لا يستغل ظروف المعركة للقيام بأي عمل غير إنساني . بل إنه يرى في

مثل هذه الظروف أن المطلوب إظهار أعلى درجات المروءة والفروسية الإسلامية فيقول لأصحابه وفتيانه : اسقوا القوم ورشّفوا الخيل ترشيفاً . ويُشرف هو بنفسه على ترشيف الخيل . يقول أحدهم (وهو من عسكر العدو) إنه قد أعطاني قربة في البداية لم استطع فتحها فجاء هو بنفسه وفتحها لي . حتى الخيول فإنه عليه السلام لم يكتف بسقيها مرة واحدة بل كان يطلب من أصحابه أن يسقوها حتى يُشبعوها تماماً . تماماً كما فعل بكريلاء فيما بعد فإنه لم يُرد أن يكون هو البادىء بالحرب .

وهنا لا بد لي من التوضيح بأنني لست مع وجهة نظر صاحب كتاب « الشهيد الخالد » وهو من أصدقائنا القدامى (المعروف أن صاحب هذا الكتاب الذي أحدث ضجة كبيرة في ذلك الزمان لا يرى أن الإمام الحسين (ع) كان متيقناً تماماً بأنه إن غما سيلاقى حتفه حتماً في معركة كربلاء بل إنه كان يحتمل عليه السلام النصر أيضاً مع كون هذا الاحتمال بسيطاً) . وقد سأله كيف يُفسّر خطب الإمام الحسين (ع) التي أصبحت أكثر لهيباً وحرارة بعدما يش عليه السلام من نصرة أهل (الكوفة) له ، ووصول خبر مقتل (مسلم) إليه ، ووقوع (الكوفة) بيد ابن زياد ؟ قد يأتي أحد ويقول ولكن الحسين نفسه كان فقد طريق العودة . عظيم جداً ولنفرض أنه كذلك فعلاً ، ولكن لماذا لم يقل لأصحابه في ليلة عاشوراء بأن بقاءكم معي هنا حرام بعد أن قال لهم أنتم في حل من بيعتي وأصرّوا هم على البقاء معه . لا سيما وأنه كان يعرف أنهم يُريدون قتله هو ، ولا يُريدونهم بضّرٍ ، ويقاؤهم معه في هذه الحال كان يعني إهراق دمائهم هدراً وهو من عمل الحرام ؟ فلماذا لم يقل الحسين لهم بأن الواجب يُبلي عليهم تركه ؟ بل إنه بعد أن تأكد من صمودهم أيدهم وشجعهم كثيراً على موقفهم وحينها فقط باح لهم بأسرار المواجهة التي لم يكونوا قد عرفوها بعد .

في ليلة عاشوراء وبعد أن يصبح الأمر حتمياً يبعث عليه السلام (بـ حبيب بن مظاهر) إلى بني أسد ليأتي إليه إن أمكن بعددٍ من الانصار . مما يعني أنه كان يُريد زيادة عدد القتل ذلك أنه كلما كانت كمية الدماء المُراقاة على طريق الاستشهاد أكثر كلما كثر عدد السامعين لهذا النداء في الدنيا واتسع مدى الثورة .

في يوم عاشوراء ينتقل الحر من معسكر (عمر بن سعد) ويلتحق بمعسكر الحسين ويأتي ليطلب التوبة من أبي عبد الله فيقول له أبو عبد الله أن انزل عن فرسك يا حر فيقول الحر هل تأذن لي أن أفديك بدمي يا مولاي . ما معنى أن تُريق دمك في طريقنا ؟ هل يعني أنك لو قُتلت فلاني سأنجو من الموت ؟ فأننا لسنا بـناج . ولم يحصل أن سجّل التاريخ أنه كان يطلب النجاة بنفسه أو أنه أراد المحافظة على دمه وروحه .

إنها أمور تدل على أنه عليه السلام كان يريد هذا المسرح الدموي ، بل إنه كان يلون ذلك المسرح بنفسه ، ولذا ترى هنا ، وأنت تُطالع حوادث ما قبل عاشوراء ، صوراً عجيبة كما لو أنها وجدت تعمداً حتى يتبين الموضوع ويتمثل جيداً . وهنا بالذات ترى هذا الجانب التمثيلي والمسرحي بحدة وبقوة كبيرة . رَجَمَ الله السيد (آيتي) [صديقنا العزيز تذكرناه هذه الليلة] حيث يؤكد على هذه النقطة كثيراً في كتابه (تحليل واقعة عاشوراء) . وتعبيره في هذا المجال هو كما يلي :

إن لون الدم أكثر الألوان ثباتاً من الناحية التاريخية . ففي التاريخ والمسائل التاريخية يكون اللون الذي لا يمحو أبداً هو اللون الأحمر ، لون الدم ، والحسين بن علي (ع) إنما أراد بوعي وسابق إصرار أن يكتب تاريخه بهذا اللون الثابت الذي لا يزول فكتب بذلك رسالته بدمه .

يُقال إن هناك من الناس مَنْ يكتب وصيته بدمه . وهذا بحد ذاته دليل على أن من يكتب رسالته ووصيته بدمه له معنى آخر غير المعنى العادي ، كما أن هناك تقليداً كان يتبعه العرب أيام الجاهلية يقضي بأن تأتي القبائل التي تريد أن تعقد تحالفاً مقدساً فيما بينها بإثارة من الدم (ليس دمها طبعاً) وتغمس أيديها به وتقول : إنها تعقد اتفاقاً مقدساً فيما بينها وهو اتفاق غير قابل للنقض أبداً ، فهو تحالف الدم وتحالف الدم غير قابل للنقض ، والحسين بن علي (ع) يبدو أنه كان يلون الواقعة تلويحاً في يوم عاشوراء لكنه تلوين بالدم . ذلك لأن اللون الأكثر ثباتاً في التاريخ هو لون الدم . إنه يكتب تاريخه بدمه .

نسمع أحياناً، وأحياناً أخرى نقرأ في الكتب ، أن كثيراً من السلاطين ، أو الملوك ، أو الشخصيات ، التي كانت تريد أن تُخلَّد اسمها في التاريخ قبل مئات السنين ، كانت تتوسل بكتابة اسمها واسم سلالتها وكل ما يهمها كتابته من ركوع الجماهير بين يديها والصلاة لها أو انتسابها إلى الآلهة وغير ذلك من الأمور ، فوق لوح فلزيّ كبير ، أو بواسطة الحك والحفر على الحجر .

والسؤال الآن هو لماذا كانت تكتب ذلك على لوح من الفلز أو الحجر ؟ والجواب هو أن تبقى خالدة ولا تفتى . وكما نرى ونعرف جميعاً فإن التاريخ قد دفنها جميعاً تحت أطنان من الانقراض والتراب ولم يطلع عليها أحد لآلاف من السنين ثم جاء الحفاريون الأوروبيون وأخرجوها من بين الانقراض ، ثم ماذا ؟ صحيح أنهم أخرجوها من بين الانقراض ، وأنها قد كتبت على الأحجار لكنها لم تكتب في القلوب .

الإمام الحسين (ع) لم يكتب رسالته على لوح حجري ، ولا هو حضرها في أي لوح كان ، وما قاله لم يقله إلاّ وسط أزيز الرياح ، أو نفخه في أذان أصحابه لكنه ثبت وطُبع في القلوب حتى صار لا يمكن محوه منها على الإطلاق . وقد كان واعياً تماماً لهذه الحقيقة . فقد كان يرى المستقبل جيداً ويعرف بأنّ الحسين بعد ذلك غير قابل للقتل ولا يمكن قتله أبداً . فهل هذا الذي جرى كله كان مجرد صدفة ؟ أبداً فأبو عبد الله الحسين قد ظل يطلب النصرة ويستغيث هل من ناصر ينصرني ، حتى الساعات الأخيرة من يوم عاشوراء أي إنه كان يطلب أنصاراً يُقتلون معه وليس أنصاراً يُنقذونه من الموت . فالإمام الحسين وبعد أن قُتل أصحابه وإخوته وأبنائه لم يكن بالتأكيد يُريد الحياة ، ولكنه كان يبحث عن ناصرٍ ومعينٍ ليأتي ويُقتل معه ، ولهذا تراه ظلّ ينادي « هل من ناصرٍ ينصرني » . لقد وصل صوته إلى خيم النساء فبكين وتدنبن وعلت أصواتهن بالنحيب . مما دفع أبا عبد الله الحسين (ع) أن يرسل أخاه أبا الفضل العباس وشخصاً آخر من أهل بيته طالباً منها إسكات النساء وقد فعلا ذلك . ثم أتى هو بنفسه إلى خيمة الحرم وهنا أعطينه طفله الرضيع . لقد كان في حضن عمته (زينب) فأخذته منها أبو عبد الله وضمه إلى صدره ، ولم يقل أبو عبد الله لاخته زينب : أختي لم جئت بهذا الطفل

الرضيع وسط هذه المعمة والرماح تنطلق من كل جانب والأمن مفقود تماماً والعدو كامن لنا ولا يُريد بنا إلاّ السوء بأي شكل كان . بل إنه أخذه منها وأجلسه في حجره وبينما هو في هذه الحال إذ أصاب سهم قادمٌ من طرف العدورقة الطفل الرضيع . فماذا يفعل أبو عبد الله في هذه الحال ؟ لاحظوا التلويح كيف يحدث ؟ فما أن يستشهد الطفل بهذه الصورة حتى يتلقّى الحسين الدم بكفه ويرمي به إلى السماء لينتشر في الفضاء ولتشهد السماء على الواقعة !

إنها اللحظات التاريخية الأخيرة من عمره الشريف وقد أصابته جراحات كثيرة وسقط إلى الأرض واشتد ضرب السهام على بدنه الشريف حتى صار يزحف على ركبتيه ، كان كلّما حاول القيام رماه أحدهم بسهم جديد حتى أصاب واحد منها نحره الشريف ، وكما يقول الراوي فقد وضع يده تحت الجرح ، فلما امتلأت دماً لطح به رأسه ووجهه وقال : « هكذا أكون حتى ألقى الله وجدي رسول الله وأنا مخضوب بدمي » .

إنها مشاهدٌ تهتز لها الأبدان وفصولٌ مُشيرة للغاية من واقعة كربلاء . إنها أمور وقضايا تجعل من رسالة الإمام الحسين عليه السلام رسالة خالدة إلى الأبد وثابتة لا تتزحزح في لوح التاريخ الأبدي . العدو يهجم على معسكر الحسين في عصر التاسع من محرم ، لكن أبا عبد الله يُرسل أخاه أبا الفضل ويقول له : إني أريد أن أقضي هذه الليلة في الدُعاء والذكر والمناجاة مع ربي ، والصلاة والاستغفار ، فاذهب إليهم واجعلهم بأية وسيلة كانت يؤخرون المعركة إلى الغد . بالطبع فإننا سنقاتلهم غداً . ويذهب الأعداء بالفعل . وهكذا تمكّن أبو عبد الله الحسين من القيام بعدة أعمال في ليلة العاشر من محرم يُسجلها لنا التاريخ .

واحدة من هذه الأعمال كانت تتمثل في دعوته أصحابه (لا سيما أهل الخبرة في هذا الفن من العمل) لشحذ سيوفهم وصقل حراهم وأسلحتهم وإعدادها للمعركة القادمة، وقد كان يراقب بنفسه هذه العملية . فقد كان أحدهم متخصصاً واسمه - جون - حيث جعله مُشرفاً ثم راقب هو بنفسه دقة تنفيذ المهام .

العمل الآخر الذي قام به أبو عبد الله في تلك الليلة هو إصداره التعليمات بتقريب الخيم التي كانت متناثرة حتى صارَتْ حبالها متداخلة مع بعضها البعض بحيث صار من الصعب على الإنسان أن يمر بين الخيمة والأخرى . ثم أمر بنصب الخيم بشكل هلالى .

وأصدر تعليماته بحفر خندق على امتداد الهلال من الخلف ليكون مانعاً لعبور الخيل وبالتالي منع الأعداء من مهاجمة مخيم الحسين من الخلف .

كذلك أمر أصحابه بجمع الحطب والقصب الكثير الذي كان متناثراً هناك وإعداده في تلك الليلة لاستخدامه في الصباح وذلك بإضرام النار فيه بعد أن وضع في منخفض ليكون مانعاً آخر يمنع العدو من الاقتراب من المخيم .

وبذلك يكونون قد تهيأوا لقتال العدو من جهة القلب واليمين واليسار فقط وهم مطمئنون من جهة الخلف تماماً .

العمل الآخر الذي قام به عليه السلام في تلك الليلة هو جمعه لأصحابه جميعاً في خيمة واحدة وإتمام الحجة عليهم . فبعد أن شكرهم بشكل بليغ وعميق سواء الأهل منهم أو الأصحاب قائلاً لهم : أما بعدُ فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيتٍ أبر ولا أوصل من أهل بيتي

أضاف بعد ذلك : « ألا وإنى لأظنُّ يوماً لنا من هؤلاء ، ألا وإنى قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم مني ذمام . هذا الليل قد غشاكم فانخذوه جملاً ، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجلٍ من أهل بيتي ، فجزاكم الله جميعاً ثم تفرقوا في البلاد . . . فلإن القوم يطلبونني ولو أصابوني لهواً عن طلب غيري » . ولكن ما أن أتم حديثه عليه السلام حتى تصاعدت صيحات أصحابه وأهل بيته واحداً واحداً وكيف نفعل هذا يا أبا عبد الله ! لا أرانا الله ذلك أبداً . وكما يذكر الرواة فقد بدأهم بهذا القول العباس بن علي (ع) (١) .

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٩٢ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣١ . أعلام الورى ص ٢٣٥ .

وهنا ترانا مرة أخرى أمام مسرح تاريخي في الحديث والخطابة . حيث عبّر كل واحد منهم عن مشاعره بطريقة الخاصة .

فهذا أحدهم يقول : « أما والله لو علمتُ أني أقتل ثم أحيى ، ثم أحرق ثم أحيى ، ثم أذرى يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارتكتك حتى ألقى حمائي دونك . . . » .

وأخر يقول : « حتى أقتل هكذا ألف مرة وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك . . . » وهكذا يكون الحسين قد فعل كل ما هو مطلوب منه ، وبقي الأصحاب معه يُقاتلون إلى جانبه ، خالصين مُخلصين .

وكما يذكر الرواة أيضاً أنه وفي أيام (محرم) تلك قيل لـ (محمد بن بشير الحضرمي) الذي كان حاضراً مع أبي عبد الله الحسين (ع) إن الأخبار تفيد بأن ابنك قد أُسِرَ بشعر (الري) فقال : عند الله أحسبه ونفسي ما كُنتُ أحبُّ أن يُؤسر وأنا أبقي بعده حياً . فلما سمع الحسين قوله قال له : « رحمك الله ، أنت في حلٍّ من بيعتي ، فاعمل في فكاك ولدك وخُذْ هذه الأثواب والبرود ليستعين بها ابنك الآخر في فكاك أخيه . » وقيل إن هذه الأثواب كان يمكن استبدالها بتقود تبلغ قيمتها آنذاك ألف دينار يستطيع فيها والد الأسير أن يستبدل بها ابنه مقابل ذلك المال . لكن الحضرمي قال : « أكلتني السباع حياً إن فارتكتك »^(١) . صحيح أن ابني قد أُسِرَ لكن روحه ليست عليّ أغلٍ من روحك !!

في تلك الليلة وبعد أن أتمّ عليه السلام الحجة على أصحابه واطمأن إلى موقفهم الصلب جميعاً وبعد أن سمع منهم ذلك الموقف الصامد بكل صراحة وبعد أن أعلنوا عن وفائهم المطلق للمسيرة وعدم استعدادهم للانفصال عنه تغير المسرح فجأة . وإذا بالإمام يخاطبهم قائلاً : فما دام الأمر كذلك « فلإني غداً أقتل وتقتلون كلكم معي » . فقالوا بأجمعهم : الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك وشرّفنا بالقتل معك أولاً نرضى أن نكون معك في درجتك ؟

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٩٤ .

(القاسم بن الحسن) وهو ذلك الصبي الذي لم يكن يتجاوز الثالثة عشرة من عمره وهو ممن كان حاضراً المجلس كذلك لما سمع عمه الحسين يقول بأن الجميع سيقتل أراد هو الآخر أن يرفع الشك من أمر مقتله بسبب صغر سنه ويتيقن من كلام عمه فقال له : وأنا فيمن يُقتل - يا عم - ؟ يقول الرواة فاشفق عليه الحسين وقال : يا بن أخي كيف تجدُ طعم الموت عندك ؟ قال : « يا عمّاه ، أحلّ من العسل » نعم فانت عندما تُخبرني بموتى معك غداً فإنك تُبشّرني بِبُشرى عظيمة . هذا هو لسان حال القاسم (ع) فقال له الحسين : أي - والله - فداك عمك : إنك لأحد من يُقتل معي بعد أن تبلّو بِلَاءٍ عظيم .

والآن لاحظوا المسرح العظيم الذي سيحصل غداً ذلك المسرح الطبيعي الذي ستلاحظ فصوله على واقع الحياة :

قالوا وما زال آل أبي طالب يتسابقون إلى القتال حتى انتهى الدور إلى القاسم وديعة الحسن بن علي عند أخيه الحسين (ع) وهو غلام لم يبلغ الحلم . نعم فبعد استشهاد علي الأكبر (ع) يأتي هذا الغلام الذي لم يبلغ الحلم ويستأذن عمه الحسين بالبراز . قال الراوي :

« خرج علينا غلام كأن وجهه شقّة قمر طالع وبيده سيف ، وعليه قميص وإزار ، وفي رجله نعلان انقطع شمع أحدهما ، ما أنسى أنها كانت اليسرى . . » إلى آخر الرواية التي تظهر أنه عليه السلام لم يجد اللباس المناسب له للقتال لصغر سنه .

ففي يوم عاشوراء لم يكن أحد يبرز إلى القتال دون إذن الإمام الحسين (ع) وكل من كان يُريد البراز ، كان يأتي إلى الحسين ويُسلم عليه أولاً ويقول : السلام عليك يا أبا عبد الله ، أتأذن لي بالقتال ؟

يقول الراوي لم يأذن أبو عبد الله للقاسم بتلك السهولة ويقول الرواة أيضاً : فلم يزل يتوسل إليه ويُقبل يديه ورجليه حتى أذن له . فهل كان ذلك صدفة أم إنها إرادة الحسين التي أرادت للتاريخ أن يحكم على كل صغيرة وكبيرة . فالقاسم بلغ على عمه والحسين ينكر عليه أولاً الخروج ثم يأذن له ولكن ليس

باللفظ فهو عليه السلام يريد أن يقول له وللتاريخ قولاً واحداً فلذلك تراه يُعائقُ ابن أخيه وابن أخيه يُعائقه وكما ينقل الرواة :

« ونظر إليه الحسين لم يملك نفسه دون أن تقدّم إليه واعتنقه وجعلاً يكيان حتى غُشي عليهما » . [وكان الأصحاب وأهل بيت الحسين (ع) يُراقبان هذا المنظر المهيب عن كتب] وركب هذا الغلام فرسه وانطلق إلى الميدان .

يقول الراوي وهو من معسكر (عمر بن سعد) لقد خرج علينا غلام لا يلبس خوذة الميدان بل يلبس العمة ولا يلبس الحذاء ، بل يلبس نعلأ عادياً وقد كانت اليسرى منها أكبر من اليمنى وعن وجهه عليه السلام يقول الراوي : بتعبيره : « كأنه فلقة القمر »^(١) . ويضيف الراوي لقد قدم إلينا وعيناه لا زالتا مغرورتين بالدموع .

كانت العادة أن يُعرّف الفارس الذي يبرز إلى الميدان عن نفسه فمن هو هذا الغلام الذي يبرز إلى القوم .

يقول الراوي : فبرز إلى الميدان باكياً وهو يقول :

إنْ تنكروني فأنَا ابنُ الحسن سبطُ النبي المصطفى والمؤمن
هذا الحسين كالأسير المُرتَهَن بين أناسٍ لا سُقوا صَوَّبَ المَزَنُ^(٢)
في هذه الأثناء كان أبو عبد الله الحسين قد أحضر فرسه وأعدّ عدته وكان رهن إشارة ابن أخيه ، وكأنه ينتظر الفرصة التي سيطلبه فيها ليؤدي واجبه نحو ابن أخيه . لا أدري كيف كان حال أبي عبد الله في تلك اللحظات .

وبينما هو كذلك ينتظر صوت القاسم وإذا بالقاسم يصيح : يا عمّاه ؟ يقول الراوي فأتاه الحسين مُسرِعاً وانقض كالصقر ، وتحلل الصفوف ثم شدّ بشدة الليث إذا غضب .

(١) مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١٠٦ . كما ورد ما يشبه هذه العبارات في أعلام الوري ص ٢٤٢ واللمهوف ص ٤٨ . وبحار الأنوار ج ٤٥ ص ٣٥ . وإرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٩ ومقتل الحسين للمقرم ص ٣٣١ وتاريخ الطبري ص ٢٥٦ .

(٢) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٣٤ .

يقول الراوي : حتى إذا وصل إلى (عمرو بن سعد الأزدي) ضربه بالسيف فاتقاه (عمرو) بساعده فأطعنها من المرفق ثم عُثِي عليه فصاح صيحة عظيمة سمعها العسكر ، فحملت خيلُ أهل الكوفة ليستنقذوه من الحسين فاستقبلته بصدورها ، ووطئته بحوافرها ، فهات - لعنه الله - .

نعم مات بحوافر خيل أصحابه وجماعته اللعينة لشدة ما كانوا فيه من فوضى واضطراب ، ولا أحد يعرف بالضبط ماذا كان الموقف في تلك اللحظة . ويقول الراوي : « فانجلت الغبرة »^(١) فإذا بالحسين قائمٌ على رأس القاسم (لا أنسى هذا الموقف أبداً : يقول الواقظ القمي الشهير المرحوم (الإشراقي) إنه قرأ ذات مرة هذا المقطع من التعزية بحضور المرحوم آية الله (الحائري) وهي تعزية قرأتها من متن المقاتل الحسينية دون زيادة أو نقصانٍ فما كان من المرحوم (الحائري) إلا أن بكى بكاءً شديداً وفقد معها القدرة على الاستمرار في المجلس مما دعاه إلى أن يطلب مني فيما بعد عدم قراءة هذا المقطع كلياً رأيته حاضراً لمجلس العزاء الذي أقرأ فيه . ذلك أنه لا يحتمل سماع هذا المقطع الفجيع) . « والغلام يفحص برجليه »^(٢) . وأبو عبد الله يقول : « يعزُ والله على عمك أن تدعوه فلا يُجيبك : وإن أجابك فلا ينفَعك صوته »^(٣) .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٣٥ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٩ . مقتل الحسين للمقرم ص ٣٣٢ .

أعلام الوري ص ٢٤٣ . اللهوف ص ٤٨ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) مقتل الحسين للمقرم ص ٢٣٢ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٣٥ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٢٨ . اللهوف ص ٤٨ . أعلام الوري ص ٢٤٣ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٩ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١٠٨ .

(٣) مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١٠٧ . اللهوف ص ٤٨ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٣٥ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٩ . أعلام الوري ص ٢٤٣ . مقتل الحسين للمقرم ص ٣٣٢ . تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٥٧ .

المحاضرة الخامسة

واقعة كربلاء تجسيم عملي للإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله
ورَسُولِهِ وحبيبه وصفيّه ، سيدنا ونبيّنا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله
وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَاسِبًا ﴾^(١) .

تكلمنا في الجلسات السابقة أنّه يمكن للجملة الواحدة أن تُفسّر عدة
تفسيرات ، وتكون كلها تفسيرات صحيحة ، وأنّ الحوادث كذلك يمكن أن تأخذ
نفس الطابع ، وقلنا إنّ واقعة كربلاء من هذا النوع من الحوادث .

والحقيقة هي أنني عندما أتأمل بهذه الواقعة ، من زاوية الفكر والحقيقة ،
أراها كذلك بالفعل ، وكلما يتأمل الإنسان أكثر ، ويتعمق أكثر ، يكتسب دروساً
جديدة من هذه الواقعة .

بالأمس قلتُ لكم إنّ هذه الحادثة تحمل في طياتها قابلية التمثيل ، وإمكانية

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .

العرض المسرحي ، وإنما تحمل موضوعات كثيرة في سياقها العام ، كما لو أنها أُعدت للعرض والتمثيل . والآن أقول لكم بأن هذه الناحية من حادثة كربلاء فيها سر آخر (وإني عندما أستخدم تعبير - حادثة - وليس نهضة أو ثورة ، فلماذا لاعتقادي بأن هاتين الكلمتين لا تعبران تماماً عن عظمة هذه القضية ، ولما كنت لم أعر على كلمة مناسبة تُبين هذه العظمة ، لذلك أرتأيت استخدام هذا التعبير الكلي ، وأقول حادثة كربلاء ولا أقول ثورة لأنها أكثر من ثورة ولا أقول نهضة لأنها أكثر من نهضة) .

وهذا السر هو كون هذه الحادثة ، الحادثة بتمامها وكما لها ، تُجسّم الإسلام في كافة أبعاده ونواحيه ، ومعنى ذلك أن سر كون هذه الحادثة قابلة للتمثيل والعرض المسرحي ، يكمن في كونها تجسّماً لفكر الإسلام المتعدد الأبعاد والجوانب فكل المبادئ الإسلامية ، وجوانب العقيدة كافة ، قد تجسّمت عملياً في هذه الحادثة . إنك تجد الإسلام في السياق الفكري وفي العمل وفي مرحلة التحقق والتطبيق .

كلنا يعرف أن التماثيل أو اللوحات الفنية ، هي ، في بعض الأحيان ، تعبير عن فكرة معينة ، وقد تكون أحياناً لا تُعبّر عن أية فكرة ، بل نوع من الفن من أجل الفن والجمال . لكنها كما قلنا قد تكون تعبيراً عن فكرة خاصة : فمثلاً ينقل أحد الأشخاص العائدين حديثاً من الخارج أنه رأى في أحد المتاحف مؤخراً تمثال فتاة جميلة جداً نائمة على السرير وإلى جانبها شاب لكنه في حالة نهوض من السرير ، وإعراض عن الفتاة ، وقد مد إحدى رجليه إلى الأرض ، كما لو كان يريد الابتعاد السريع عن تلك الفتاة ، وكان واضحاً أنه كان لتوه إلى جانبها . يقول صاحبنا : فلم أفهم الفكرة ومعناها ؟ فهل هي تعبير وشرح لقصة معينة ؟ ولما سألت الدليل ، قال :

هذا تجسيم لفكر (أفلاطون) ، وهو الفكر الذي يحمله الفلاسفة حول الإنسان ، والقاضي بأن الوصال مقبرة للعشق ذلك أن العشق ، الذي يؤدي إلى الوصال الكامل ، يتحول في النهاية إلى شيء سخيّف كما يتبدل المعشوق إلى شيء

منفراً أيضاً . وهذا القول من الأسس التي يبنى عليها الحكماء والعرفاء فلسفتهم حيث يقولون إنَّ الإنسان يعشق الأشياء التي لا يملكها وطالما هو لم يحصل عليها فإنه سيظل يعشقها ، لكنه إذا ما حصل عليها مائة في المائة فإن حرارة العشق سرعان ما تبدأ بالبرود شيئاً فشيئاً . ويبدأ العاشق في البحث عن معشوق جديد .

ونرى هنا كيف أنَّ هذا العمل تجسيم لفكر محدّد لكنه تجسيم فاقده للروح ، فقد تم تمثيل الفكرة بالحجر ، لكن الحجر فاقده للروح .

وهذه ليست حقيقة ولا هي جزء من الواقع ، وقد يتم تصوير هذا الشيء في الرسوم أيضاً ولكن ما أكبر الفرق بين التجسيم الميت الفاقده للروح والتجسيم الحي للفكرة . فالكائن الحي عندما يُجسّم الفكرة تصبح الفكرة حقيقة ، بالطبع ليس كل تمثيل ، وأي مسرح كان لا سيما تلك المسرحيات التي تقام اليوم هنا وهناك فهذه مسرحيات وتمثيلات عارية عن الحقيقة .

إنَّ التمثيل الحقيقي هو ليس ذلك التمثيل الذي يتجاوز دور التمثيل فقط بل الذي يتعداه إلى الرسم الواقعي للحقيقة . أي عملية تفريغ واقعي للحدث .

إنَّ حادثة كربلاء عبارة عن تمثيل وتصوير واقعي لجنود الإسلام ، ولكن ليس محض تمثيل أو تصوير خارجي لا يتعدى صناعة الشخصيات الخيالية والعرائس والألعاب التمثيلية التي لا تمتُّ إلى الواقع بصلة فأنت ترى مثلاً الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَهَا كَرِيمَةٌ ﴾ (١) . قد طُبِّقت بشكل عملي في واقعة كربلاء وكذلك الآيات الأخرى من القرآن الكريم التي سنأتي على ذكرها لاحقاً إن شاء الله .

نحن نرى أنَّ التحليلات والانطباعات عن واقعة كربلاء متفاوتة على طول التاريخ . فكما سبق وأشرتُ مثلاً فإن انطباع (دعبِلُ الخزاعي) وهو من الشعراء المعاصرين للإمام الرضا (ع) يختلف عن انطباع ورؤية (الكُميت الأسدي) وهو

(١) سورة التوبة : الآية ١١١ .

من الشعراء المعاصرين للإمامين (السجاد) و (الباقر) عليهما السلام وهذان بدورهما يختلفان عن رؤية (المحتشم الكاشاني) أو (الساماني) أو (صفي عليشاه) مثلاً . فهذان الشاعران الأولان حلّلا الحادثة بشكل يختلف عن رؤية (الكاشاني) لها أو (الساماني) أو (صفي عليشاه) و (إقبال اللاهوري) مثلاً والذي بدوره له رؤيته الخاصة عن واقعة كربلاء . فكيف يكون ذلك ؟

برأيي إنّ هذه الرؤى جميعاً صحيحة في الأساس (بالطبع هناك تحليلات خاطئة للحادثة . ولكنني الآن لست بصدد الحديث عنها) لكنها ناقصة . نعم صحيحة ولكنها ليست كاملة . صحيحة أي ليست خاطئة ولا كاذبة لكنها تبحث أو ترى جانباً واحداً من جوانب الحادثة .

تماماً مثل قضية الفيل التي نقلها إلينا في التاريخ (الملاء الرومي) وذلك عندما أراد البعض أن يُميّز الشكل الذي عثر عليه في الظلام من خلال حاسة اللمس . فالذين لمسوا القسم الخلفي من الفيل فقط قالوا عنه شيئاً بينما الذين لمسوه من أذنيه تصوره شيئاً آخر . فالتصورات تلك كانت صحيحة كما كانت خاطئة في الوقت ذاته . فهي كانت خاطئة لأن الفيل ككيان متكامل لم يكن ذلك الشكل الذي تصوره . وصحيحة نسبةً إلى ذلك الجزء الذي لمسته أيديهم من الفيل . فالذي لمست يده أذن الفيل قال إنها تشبه شكل (المروحة) وهو أمر صحيح فالشيء الذي لمسه يشبه في شكله شكل (المروحة) لكن شكل الفيل ليس كشكل (المروحة) . أما ذلك الذي لمست يده خرطوم الفيل فقد قال إنّ شكله يشبه الميزاب ، وهو أمر صحيح كما أنه خطأ صحيح من حيث أنّ الشيء الذي لمسه كان بشكل الميزاب ، وخطأً بلحاظ أنّ الفيل ليس بشكل الميزاب . فالفيل عبارة عن مجموعة أحد أعضائها يشبه سطح البيت وهو ظهر الفيل وأحد أعضائها يشبه الأسطوانة وهو رجل الفيل وعضوها الآخر يشبه الميزاب وهو خرطوم الفيل . لكن الفيل في مجموعه فيل . ولهذا فإن التصورات صحيحة كما أنها خاطئة في الوقت نفسه .

فالانطباع الذي خرج به أمثال (دعبل الخزاعي) من نهضة أبي عبد الله

عليه السلام حسب ذلك الزمان هو الانطباع الذي رأى جوانب التمرد والرفض في القضية . في حين أن (محشم الكاشاني) قدر رأى الجوانب المحزنة ، والمؤثرة ، والرثائية ، في القضية . بينما كانت تصورات وانطباعات (عبّان الساماني) أو (صفي عليشاه) من النهضة انطباعات عرفانية ، وتدور حول مفاهيم العشق الإلهي ، والمحبة الربّانية ، والظهر الروحاني الخالص السائد على طريق الحق ، وهذا البعد بعد الخلوّص الصادق الطاهر ، في سبيل الحق ، يُمثّل البعد الأكثر عمقاً وأصالة في النهضة الحسينية .

كل هذه الانطباعات انطباعات صحيحة ولكن كل واحدة منها لا تمثّل إلّا بعداً واحداً . فهذا رأى فيها الجانب الأخلاقي ، وذاك تحدّث عن الجانب الحماسي فيها ، وآخر تطرّق إلى جانب الوعظ والإرشاد فيها ، وكلهم قد قالوا حقاً بشأن القضية ، ولكن كل واحد منهم إنّما تحدّث عن جانب واحد ، وعضو واحد من الكيان ، وليس عن تمام الكيان ، فعندما نريد البحث في جامعية الإسلام وكيّنته لا بد لنا من مراجعة ومطالعة النهضة الحسينية ، حيث نرى أنّ الإمام الحسين (ع) قد طبّق كليات الإسلام عملياً في واقعة كربلاء ، وجسّمها تجسّماً حياً حقيقياً وواقعياً ، وليس تجسّماً لا روح فيه .

فالإنسان عندما يتأمل بعمق في حادثة كربلاء يرى أموراً محيرة ولا يقدر أن يتصور أنها أمور حصلت بمجرد صدفة ، ولذلك فإنّ السر وراء الإصرار المتزايد للآئمة الأطهار وتوصياتهم المحققة بضرورة إحياء وتخليد هذه الذكرى يعود في الواقع إلى رغبتهم وإرادتهم القاضية بضرورة إحياء وتخليد هذا الإسلام المجسّم المتمثّل بهذه الحادثة ، فلا تدعوا هذا الإسلام المجسّم يُنسَى أبداً .

ترى ماذا نواجه نحن في مطالعتنا لحادثة كربلاء ؟ إنّنا نرى اتّجاه حركة عجيبة في هذه الواقعة التاريخية . فالرجل له دور في هذه الواقعة ، والمرأة لها دور ، والشيخ ، والشاب ، والطفل ، كلّ له دور . . . الأبيض له دور ، والأسود له دور كذلك ، العرب وغير العرب لهم أدوارهم أيضاً ، الطبقات الاجتماعية المختلفة لعبت أدوارها أيضاً ، كما لو أنّ القضاء والقدر الإلهيين قد شاءا

أن تمثل الطبقات الاجتماعية المختلفة دورها في هذه الواقعة . أي أن يُمثل الإسلام فيها ، وعندما أقول إن للمرأة دورها ، ليس مقصودي الدور الخاص الذي لعبته (زينب) فقط . ففي هذا الجانب من القضية لدينا قصص وحكايات كثيرة قابلة للعرض ، لكن لا بد من القول إنه قد سقط في حادثة كربلاء امرأة شهيدة وهي زوجة الشهيد (عبد الله بن عمير الكلبي) . كما أن امرأتين نزلتا إلى ميدان المبارزة بشكل علني إلا أن أبا عبد الله قد منعهما من ذلك وأمرهما بالرجوع فرجعتا . وهناك من الأمهات ممن شهدن استشهاد أبنائهن وهذا ما اعتبر أيضاً من الأعمال الخالصة في سبيل الله . هذا من جانب ومن جانب آخر نرى أن هناك خمسة عشر من الموالى^(١) قد شاركوا في حادثة كربلاء .

وبالأخص ذلك الذي كان يُسمى بالمولى هو : (المولى شاذب مولى عابس بن عبيد)^(٢) والعلماء الكبار أمثال المرحوم الحاج (نوري) والرحوم الحاج (الشيخ عباس القمي) قد أيدوا هذا الموضوع . وهنا ينبغي عدم الوقوع في الخطأ فـ (مولى عابس) هنا لم تأت بمعنى غلام عابس أو المحرر من رق عابس بل بمعنى أنه المتحالف مع (عابس) . ويقال في هذا المجال إنه كان أكبر قادراً وشخصية اجتماعية من (عابس) .

سأشرح لكم الليلة بعض جوانب قضية كربلاء ، بالمقدار الذي أتمكن منه ، من أجل تبيان الجوانب التوحيدية والعرفانية والخلوص الصادق النقي في سبيل الله والاعتقاد بأننا نحن خلق الله ليس لنا سوى الله من ملاذ .

(١) كلمة مولى من الكلمات التي لها معاني متعددة في اللغة العربية . فأحياناً تأتي بمعنى العبد الذي حُرر من قيد الرق ، وفي أحيان كثيرة تأتي بمعنى الشخص الذي يربطه عقد ولاء مع شخص أو قوم آخرين . أي إنه تحالف مع ذلك الشخص أو أولئك القوم أن يتجاوزوا أو أن يدافعوا عن بعضهما البعض . فإذا قيل إن الشخص الفلاني من الموالى ، يعني ذلك أنه من المتحالفين . وإذا ما قيل بأن مولى تعني العبد ، فإن ذلك ليس صحيحاً . فعندما يُقال إن العرب كانوا يدعون الإيرانيين بالموالي فإنه من المؤكد لم يكونوا يقصدون بذلك التعبير بالمبيد . فالعرب لم يُسموا الإيرانيين يوماً بالعبيد .

(٢) في زيارة الناحية المقدسة ورد الاسم بشكل شاذب مولى شاكِر .

ربما كانت عبارة أبي عبد الله (ع) التي وردت في خطبته التي ألقاها في مكة) وهي من أوائل الخطب التي ألقاها عليه السلام ، ربما كانت هذه العبارة وحدها كافية . فقد ورد في خطبته عليه السلام : « رضئ الله رضانا أهل البيت »^(١) أي إن الطريق الذي يختاره الله لنا هو الطريق الذي نحب ونرغبه .

الإمام الباقر (ع) يذهب لعبادة (جابر الأنصاري) ويسأله عن أحواله . والإمام الباقر (ع) شاب و(جابر) من أصحاب النبي وشيخ كبير في السن ، فيقول له جابر : « يا بن رسول الله ! إنني في حالة أرجح فيها الفقر على الغنى ، والمرض على السلامة ، والموت على الحياة » فيقول له الباقر (ع) : « نحن أهل البيت لسنا كذلك . نحن لا نحب شيئاً من عندنا . ما يراه الله لنا نرضاه » - رضئ الله رضانا أهل البيت - .

فلنقرأ الجمل الأخيرة التي نطق بها أبو عبد الله قبل موته سنرى بروز هذه المفاهيم بالذات مجدداً . وكما جاء في تعبير المرحوم (آيتي) (وهو استنتاج ظريف جداً) فإن هذه الحرب قد بدأت بهم وانتهت بهم .

ففي يوم عاشوراء كان (عمر بن سعد) أول من أطلق سهماً في المعركة حيث قال بعدها أخبروا الأمير - ابن زياد - بأنني أول من رمى الحسين بالسهم . وبعد ذلك السهم كانت الحرب قد بدأت بالفعل (كان الحسين (ع) قد منع أصحابه من أن يكونوا البادئين بالحرب) .

نعم وانتهت بهم . لقد كان أبو عبد الله بعدد ركباً على فرسه . ومنهك القوى وقد أصابته جراحات كثيرة وقواه الجسمية كانت قد أشرفت على النهاية وإذا بالسهم الأخير يأتي من طرف العدو فيقع في صدره الشريف ويقع أبو عبد الله عن فرسه إلى الأرض . وفي تلك اللحظة يقول : « رضا بقضائك وتسلياً لأمرك ، لا معبود سواك ، يا غياث المستغيثين »^(٢) .

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٦٧ . مقتل الحسين للمقرم ص ١٩٣ . اللهوف ص ٢٥ . كشف الغمة ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) لقد جاء ما يشبه هذه العبارة في مقتل المقرم ص ٣٥٧ والقيام للزخار ص ٢٦٢ .

قال الإمام الصادق (ع) : اقرأوا سورة « والفجر » في نوافلكم وفرائضكم فلإنها سورة جدّي الحسين بن علي (ع) . ولما سألوه بأية مناسبة صارت سورة جدّك ؟ قال : إن تلك الآيات الأخيرة من سورة (والفجر) مصداقها الحسين لا سيما هناك حيث يقول تعالى : ﴿ يا أيها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي ﴾ (١) .

لاحظوا معي كيف يُمضي أبو عبد الله الحسين ليلة العاشر من محرم ، وكيف أنه عليه السلام قد أرادها للاستغفار والدُّعاء ، والمناجاة ، والصلاة ، والتحدث إلى الباري جلّ وعلا .

انظروا إلى صلاة يوم العاشر من محرم ولاحظوا كيف أنّ جوانب القضية التوحيدية والعبودية والربوبية والعرفانية ، تصل إلى أوجها .

لقد سبق لي وأنّ أشرتُ مراراً إلى أنّ بعض أصحابه وكل أهل بيته وأبا عبد الله بالذات قد استشهدوا بعد ظهر يوم العاشر . يأتي رجلٍ باسم (أبو الصائدي) إلى الإمام الحسين (ع) ويقول له : يا بن رسول الله ! لقد حان وقت الصلاة ، وإننا نريد أنّ نُصلي صلاتنا الأخيرة جماعةً بإمامتك . فانظروا أية صلاةٍ كانت ! كانت السهام تنزل من حولهم كالمنظر ، لكن الحسين وأصحابه كانوا يفرقون في الذكر والخشوع الله أكبر ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين . يقول أحد الغربيين :

ما أعظمها من صلاةٍ تلك التي صلاها الحسين بن علي ، صلاةٍ لن نجد لها نظيراً في الدنيا كلها ، كان يضع وجهه الشريف فوق التراب المحارق ويقول : بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله (٢) .

وكَلِّمّا اتجهنا بعد ذلك كانت أبعاد النهضة الحسينية قد أصبحت عرفانية خالصة لله والله فقط ، لا يوجد فيها غير الحسين ورب الحسين . كما لو أنّ شيئاً

(١) سورة الفجر : الآيات ٢٧-٣٠ .

(٢) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٣ .

آخر لا يوجد أبداً . ولكننا عندما نُظَلُّ على الواقعة من زاوية أخرى (من الزاوية التي نظر إليها كل من (دعبيل الخزاعي) و(كُميت الأسدي) ، نرى رجلاً متمرداً يقف مقابل سلطات الجبارين لا يمكن لأية قوة دنيوية أن تُخضعه . كما لو أن النار تخرج من فمه كالطر . فحديثه كله يدور حول العزة والشرف والحرية : « لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفرُّ فرار العبيد »^(١) . « وهيهات منا الذلة »^(٢) وه الموت أولى من ركوب العار »^(٣) وه لا أرى الموت إلا سعادةً والحياة مع الظالمين إلا برماً »^(٤) .

فكل واحدة منها قالها في مناسبة معينة . وعندما يطالعها الإنسان جيداً يرى فيها الحماسة والشجاعة . وبتعبير العرب - الإباء - أي العصيان والامتناع وعدم التسليم والخضوع . والعرب يدعون القوم الذين لا يقبلون بالخضوع والتسليم للظلم والقمع بالقوم (الأباة) ، أي القوم الذين لا يخضعون للقوة والقمع بأي شكل من الأشكال .

يقول ابن أبي الحديد وهو من علماء السُّنة وهو يصف الحسين (ع) :

« الحسين بن علي (ع) سيد الأباة » .

ونحن عندما نلقي النظر عليه من هذه الزاوية نرى صورةً كلها حماسٌ وتمردٌ وعصيان ورفض واعتراض . وإذا ألقينا النظر على القضية من زاوية أخرى فإننا سنرى وجهاً آخر من مآثر الحسين (ع) نراه ذلك الرجل الخبير الواعظ الحكيم الذي لا يرضى حتى لعدوه أن يُصاب بذلك المصير المشؤوم الذي يؤدي به إلى النار حيث لسان حاله يقول وهو يتصور أعداءه فلماذا هم بائسون إلى هذا الحد الذي يُلقون فيه بأنفسهم إلى النار ؟ .

وفي هذه الحالة ترى حركة الحماسة تُعطي موقعها إلى سكون الحكمة . فكم هي المواعظ التي أعطاهما للناس في يوم عاشوراء وقبل عاشوراء . وكم من

(١) إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٥ . مقتل الحسين للمقرم ص ٢٨٠ .

(٢) (٤، ٣، ٢) راجع مصادر الكتاب التي وردت في صفحات الكتاب ٣٦ ، ١٠٥ .

المواعظ التي أعطاهما أصحابه للناس . المواعظ التي أعطاهما (حنظلة بن أسعد الشامي) و (زهير بن القين) و (حبيب بن مظاهر) ! إِنَّ وجوده المبارك كان يتأثر كثيراً عندما كان يرى عذاب أعدائه . فهو لم يكن يُريد لأي منهم أن يصبح بتلك الحال .

كان حريصاً على الناس ، وكان يحاول بكل الطرق أن يتجنب - ولو واحد منهم - . لقد كان نموذجاً عن جده : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عثتم ، حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم ﴾ (١) .

فهل تعرفون ما معنى (عزيزٌ عليه ما عثتم) ؟

معناها أن يؤسركم قاس عليه وشديد ، فبؤس وتعاسة أعداء النبي كانت كبيرة على النبي . لكن الطرف المقابل لم يكن ليُدري ما الخبر ؟ فجأةً يركب الجمل وينطلق ثم يرجع مرة أخرى يضع عمامة النبي على رأسه ويلبس لباسه ويركب الفرس ويتجه نحو القوم علّه يستطيع أن يُقلل من شقاوة القوم قدر المستطاع .

وهنا نرى الحسين وقد تحوّل إلى قطعة محبة وصداقة بحيث إنه يصبح على درجة من المحبة والوداد حتى تجاه عدوه .

نأتي الآن إلى ما يُسمى بالأخلاق (الأخلاق الإسلامية بالطبع) فعندما ننظر إلى حادثة كربلاء من هذه الزاوية نراها تمثيلاً حقيقياً للأخلاق الإسلامية . باختصار يمكن الحديث عن قيم ثلاث كانت بارزة في هذا المقطع الحسيني - المروءة والإيثار والوفاء - وسأوضح لكم :

فالمروءة لها معنى آخر غير الشجاعة ، وكما يبدو فإنها تعني الرجولة ولكن لها معنى خاصاً أيضاً . ولقد بلور معنى المروءة أكثر من غيره ذلك الرجل العارف الشهيد الملاً (جلال الدين الرومي) وهو ينقل لنا قصة مبارزة علي (ع) مع

(١) سورة التوبة : الآية ١٢٨ .

(عمرو بن ود العامري) ففي الوقت الذي كان فيه علي جالساً فوق صدر (عمرو بن ود) وقد همّ بالقضاء عليه إذا به يقوم عن صدره لما رآه قد بصق بوجهه ولكن سرعان ما يعود إلى صدره بعد أن نزع عن نفسه الغضب الشخصي وذلك حتى يقتله في سبيل الله خالصاً . وهنا بالذات ينظم (الرومي) مدحه الشهير بحق علي (ع) والذي يأتي في مضمونه ما معناه : إنك يا عليّ أسد الله في الشجاعة وأما في المروءة فلا من يستطيع وصفك يا علي ! نعم فالمرءة هي أن يحب المرء عدوه أيضاً .

إنّ الإسلام يصل في مفهوم المروءة إلى أعلى درجات المحبة والإنسانية إذ يأمرنا ديننا أن نعامل الصديق بالمروءة كما نعامل العدو بالمروءة أيضاً . فما معنى أن يُعطي أبو عبد الله الحسين الماء لعدوه الذي يُعاني من العطش . إنها المروءة بعينها . إنها أعلى مرتبة من الشجاعة وهذا ما فعله عليه (ع) أيضاً .

الزمان هو صبح يوم العاشر من محرم وأول من جرى باتجاه خيام الحسين بن علي (ع) حتى يستطلع الوضع هناك هو (شمر ذي الجوشن) . ولما كان قد أتى المخيم من الخلف ورأى كيف أنّ الخيام قد اقتربت من بعضها البعض وأحيط المخيم بخندق يمنع عنه اقتحام العدو بالإضافة إلى إشعال النار في الحطب والقصب الذي جمع لهذا الغرض انزعج كثيراً لعدم قدرته على الغدر وصار يلعن ويسب ويشتم فانبرى أحد أصحاب الحسين هنا وقال « يا مولاي ! أسمع لي بأن أرميه بسهم وبذلك تتخلص منه ؟ » فقال له الحسين : « كلا » . فقال : « أنا أعرفه يا مولاي وأعرف طبيئته الخبيثة فهو فاسق وفاجر » . فقال الحسين : « أعرف ذلك ولكننا آلينا آلاً نبذاهم الحرب أبداً ، حتى وإن كانت لمصلحتنا » .

فهذه هي تعاليم الإسلام . ولدينا أمثلة كثيرة في هذا المجال . وقصص أمير المؤمنين علي (ع) في حرب (صفين) في هذا المجال كثيرة وسأذكر لكم هنا واحدة منها . فقد برز رجلٌ باسم (كُريب بن صَبَّاح) من معسكر (معاوية) يطلب البراز فبرز إليه أحد شجعان معسكر علي (ع) من الذين كانوا في المقدمة وما هي إلا لحظات حتى صرعه (كُريب) وألقى به جانباً وطلب مبارزاً جديداً . فبرز

إليه آخر فقتله أيضاً وما أن قتل هذا الأخير حتى نزل عن فرسه ورمى بجثته فوق جثة القتيل الأول وطلب مبارزاً جديداً فقتل على هذا المنوال أربعة مبارزين من أصحاب الإمام علي (ع) ، وينقل المؤرخون أن ساعد هذا الرجل وأصابعه كانت من القوة بمكان بحيث إنه كان يمسك بقطعة النقد ويفرّكها حتى يمحو آثار الرسوم عليها . لقد كتبوا عنه كذلك أنه لشدة ما ظهر من الرجل من سرعة الحركة والمهارة والقدر الكبير من الشجاعة والافتدّار صار أصحاب علي (ع) المتقدمون في طليعة المعسكر يتراجعون إلى الخلف حتى لا يُخرجوا في النزال والمبارزة مع هذا الرجل القوي . فما كان من علي (ع) في هذه الحالة إلا أن تقدّم بنفسه إلى الميدان وبارزه بالفعل وما هي إلا لحظة حتى قضى عليه وألقى بجثته جانباً . ثم نادى في معسكر معاوية : ألا رجلُ فبرز إليه الثاني ففعل به كما فعل بالأول وألقى بجثته فوقه وهكذا حتى النفر الرابع فلم يجرؤ بعد ذلك أحد منهم على التقدم وعندها قرأ علي (ع) الآية الكريمة : ﴿ فمن اعتدّى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدّى عليكم واتقوا الله ﴾ (١) ، ثم قال لهم يا أهل الشام لولم تشرعوا لما شرعنا ولكن ما دمتم قد شرعتم فقد شرعنا بدورنا (٢) .

وأبو عبد الله الحسين (ع) كان كذلك أيضاً . فقد ظل ينتظرهم طوال الوقت حتى يشرعوا هم . فالعدو مسلم في الظاهر وهو ينطق بالشهادتين فلذلك تراه عليه السلام يقول لن نكون البادئين بحربهم أبداً .

ونأتي الآن للحديث عن الإيثار . وهو المظهر الأخلاقي الآخر الذي يتبلور في هذه الواقعة . وهل هناك مشهد للإيثار أبرز وأوضح من مشهد كربلاء ؟! ثم هل يمكن العثور على تجسيد لهذا المظهر أفضل من تجسيد أبي الفضل العباس له؟ سأعرض عليكم نموذجاً من إيثار صدر الإسلام كان فيه البطل عبارة عن عددٍ من الأشخاص . ينقل أحد الأشخاص أنه وفي إحدى المعارك الإسلامية صادف أن مرّ على أحد الجرحى وكان الجريح في حالة من العطش الشديد باعتبار أن من

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٤ .

(٢) وقعة صفين تأليف نصر بن مزاحم النخعي ص ٣١٥ .

ينزف دمه يتسارع مقدار عطشه أكثر فأكثر . يقول : فما كان مني إلا أن أحسستُ بحاجته الشديدة إلى الماء فانطلقتُ مُسرِعاً وأتيتُ له بالماء فما كان من الجريح إلا أن أشار إلى جريح آخر طالباً مني أن أقدم الماء إليه أولاً (يقول البعض إنهم كانوا ثلاثة والبعض الآخر قال إنهم كانوا عشرة أشخاص) فذهبتُ نحو الثاني فقال لي ما قاله الأول فلما وصلتُ إلى الجريح الأخير وجدته قد فارق الحياة فعرجتُ على البقية من الجرحى فلقيتهم قد أصيبوا بمثل ما أصيب به الأخير ولما وصلتُ إلى الجريح الأول وجدته هو الآخر قد فارق الحياة . وبالتالي فلإنني لم أوفق بإعطاء الماء لأي أحدٍ منهم لأن كل واحدٍ منهم كان يبعثني عند أخيه الآخر . وهذا العمل يُطلق عليه الإيثار ، وهو من أرفع ظواهر تجليات العاطفة لدى الروح الإنسانية .

لماذا نزل الله سورة (هل أن) التي يقول فيها سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ * إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿^(١) . لتبيان قدر الإيثار ؟ .

وتجلى هذه العاطفة الإنسانية والإسلامية كانت إحدى وظائف حادثة كربلاء . ويبدو أن الدور فيها كان قد عُهد به إلى أبي الفضل العباس . يقول الراوي :

بعد أن فرّق أبو الفضل العباس أربعة آلاف فارس ، ممن كانوا موكلين بشريعة الفرات ، وخاض بفرسه في ماء النهر داخل الماء حتى وصل الماء إلى بطن الفرس ، وصار باستطاعته أن يملأ قربه دون أن ينزل عن الفرس ، وبعد أن ملأ القربة اغترف من الماء غرفةً وأدناها من فمه ليشرب ، ورآه بعضهم من بعيد وهو يرمي ما اغترفه من الماء في الفرات ، ولم يشرب ! لم يفهم أحد في البداية لماذا فعل (العباس) هذا ؟ لكن التاريخ يقول :

«تذكر عطش أخيه الحسين»^(٢) . نعم فهو قد تذكر عطش أخيه في المخيم

(١) سورة الدهر : الأيتان ٩ و ٨ .

(٢) ينابيع المودة ج ٢ ص ١٦٥ .

فكيف يشرب هو وأخوه ينتظر الماء . ولكن كيف عرف التاريخ هذا ؟ فذلك لأن (أبا الفضل) خرج من الشريعة بعد أن رمى بغرفة الماء وهو يرتجز على الفور :

يا نفس من بعد الحسين هوني وبعد لا كنت أن تكوني
هذا الحسين وارء المنون وتشربين بارء المعين^(١)

إنه الوفاء بأعلى درجاته وأوضح تجلياته . رجل باسم (عمرو بن قرصة بن كعب الأنصاري) وهو من أولاد الأنصار في المدينة ، وكما يبدو فإنه كان من حرس أبي عبد الله وقت الصلاة . لقد جعل من بدنه درعاً ومتراًساً لأبي عبد الله الحسين (ع) . يقول الراوي :

إنه قد أنه السهام من كمل جانب حتى أوقعت صريع الموت ، وهو يعيش لحظاته الأخيرة يصل إليه أبو عبد الله الحسين ليناجيه وإذا به يشك نفسه إذا ما كان قد أدى واجبه وأوفى بالمهدد أو لا ! فيقول كلماته الأخيرة : « أَوْفَيْتُ يَا أبا عبد الله ؟ » .

ونأتي الآن للحديث عن المساواة الإسلامية والتأخي العقيدي . نقول :

إن الذين احتضنهم الحسين (ع) في آخر لحظات حياتهم كانوا أفراداً معدودين ، اثنان منهم بالتأكيد كانا من الموالي - أي العبيد المحررين - كان أحدهما يدعى - جون - وكما يذكر التاريخ فإنه كان مولى (أبي ذر الغفاري) وهو من العبيد السود ويبدو أنه يُلازم أهل بيته أبي عبد الله الحسين (ع) من بعد تحريره حتى يوم استشهاده . أي إنه كان أشبه بخادم بيت الحسين (ع) . وفي يوم عاشوراء يأتي هذا العبد الأسود ويقف أمام الحسين (ع) ويستأذنه في البراز فيقول له الحسين (ع) :

« يا جون ، أنت في إذن مني ، إنما تبعنا طلباً للعافية ، فلا تبسل بطريقتنا » .

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٤١ .

يقول الراوي :

فوقع جون على قدمي أبي عبد الله الحسين يُقبلهما ويكي وهو يقول : « يا ابن رسول الله ، أنا في الرخاء الحسّ قصاعكم وفي الشدة أخذلكم ؟ والله إنّ ربحي لثبتن ، وإنّ حسي للثيم ، وإنّ لوني لأسود فتنفّس عليّ بالجنة لطيب ربحي ، ويشرف حسي ، ويبيض لوني ، لا والله لا أفارقكم حتّى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم » .

فما كان من أبي عبد الله الحسين إلّا أن أذن له بعد ما رأى منه نوعاً من الشعور بعدم المساواة في المقام . فبرز جون بالفعل إلى القتال وظلّ يقاتل حتّى استشهد . ولما سقط ذهب الحسين واحتضنه وقال : « اللهم بيّض وجهه ، وطيب ربحه ، واحشره مع الأبرار ، وعرف بينه وبين محمد وآل محمد » . (الأبرار هم أولئك النفر من يفوقون في مقامهم مقام المتقين) ﴿ إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ (١) .

وأما ذلك الغلام الرومي (قيل إنه تركي أيضاً) فإنّ ما ينقله التاريخ عنه لمشهد عجيب حقاً . يقول الرواة :

إنه وبعد أن سقط الغلام صريعاً واستغاث بالحسين وهو مغشي عليه والدم قد غطى عينيه فإنّ أبا عبد الله أتاه واعتنقه ووضع رأسه على حضنه وصار يمسح عنه الدم ففتح الغلام عينيه فرأى الحسين فتبسّم . وكان به رمقٌ ، فأخذ يفتخر ويقول : « من مثلي وابن رسول الله واضعّ خده على خدي » . نعم فأبى عبد الله قد وضع خده على خد هذا الغلام وهذا لم يحصل إلّا مع هذا الغلام ومع علي الأكبر بن الحسين فقط إذ إنّ التاريخ لم يكتب عن سواهما في مثل هذه الحالة . « ووضع خده على خده » (٢) ومن ثم يقول الراوي : فتبسّم ثم صار إلى ربه (رضي الله عنه) (٣) .

(١) سورة المطففين : الآية ١٨ .

(٢) (٣) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٣٠ .

رسول الله ! ثم أخذ يرجو أبا عبد الله الحسين ليأذن له بالخروج فأذن له . ولم يعرف التاريخ بالضبط إذا ما كان هذا الشاب ابن (مسلم بن عوسجة) أو (الحارث بن جنادة) لأن الاثنين قد أتيا إلى المعركة مع أهلها ، بالطبع فإن (عبد الله بن عمير الكلبي) هو الآخر كان قد أتى بعياله معه إلى المعركة . لكن هذا الشاب لم يكن بالتأكيد ابن (عبد الله بن عمير الكلبي) . على كل حال فعندما خرج هذا الشاب إلى ميدان الجهاد عمل خلافاً لما كان يعمل سائر الفرسان والأصحاب وبذلك يكون قد سبقهم جميعاً في هذه البادرة الرفيعة فلم ينتسب بحسبه ونسبه كما هي العادة بل عرّف عن نفسه بأمره الحسين (ع) حيث خرج يقول :

أميري حسينٌ ونعم الأمير سرورٌ فؤادٍ البشير النذير
عليّ وفاطمةٌ والداه فهل تعلمون له من نظير؟
له طلعةٌ مثل شمس الضحى له غرةٌ مثل بدرٍ مُنير^(١)

فهل ترون معي الآن الأدوار العجيبة والفريدة التي لعبها الجميع في حادثة كربلاء . فكل فئة لعبت دورها وشاركت في المعركة حسب الأصول من الطفل الرضيع حتى الشاب والشيخ والعجوز . بالطبع فإن رسالة أهل بيت النبي ومقامهم الخطير الذي كانوا يحملونه أرفع وأبلغ من الجميع (وهذا أمرٌ أكيد لا سيما مقام أهل بيت أبي عبد الله الحسين (ع) .

وفي الختام اقرأ عليكم مراثية أحد أبناء الإمام الحسين (ع) ، فالقاسم بن الحسن (ع) كان له أخ أصغر منه يدعى عبد الله (وشهادة الإمام الحسن سبقت شهادة الحسين بعشر سنوات . وهذا الطفل عبد الله ولد قبل عشر سنوات أيضاً . أي إن هذا الطفل قد أتى إلى الدنيا ولم ير أباه وبالتالي فإنه لم يعرف شيئاً عن أبيه ولأنه قد كبر في بيت أبي عبد الله الحسين ومعنى ذلك أن أبا عبد الله كان بمثابة العم والاب معاً بالنسبة لهذا الطفل) وكان أبو عبد الله قد كلّف أخته (زينب) لترعى

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٢٧ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١٠٤ . مقتل الحسين للخوارزمي

وهكذا ترانا نعيش في حادثة عاشوراء كل جوانب الإسلام الأخلاقية والاجتماعية بالإضافة إلى جوانب الموعظة والحكمة والتمرد والتوحيد والعرفان والعقيدة مجسمة ومبلورة في الحسين وأصحاب الحسين وأهل بيته حيث ترى أن كل واحد من أفراد المجتمع قد أخذ دوره من الطفل الرضيع حتى الشيخ الجليل الذي يناهز عمره الثمانين عاماً ، أو المرأة المعجزة ، كزوجة (عبد الله بن عمير الكلبي) ، وقد كانوا ثلاثة هم الذين أتوا مع زوجاتهم وأولادهم ليقاتلوا إلى جانب الحسين (ع) حيث التحقت نساؤهم بحرم أبي عبد الله . أما الآخرون من أصحاب الإمام الحسين فإنهم لم يأتوا بأهلهم معهم . والثلاثة هم (مسلم بن عوسجة) و(عبد الله بن عمير الكلبي) وآخر باسم (جنادة بن حارث الأنصاري) .

لقد كتب التاريخ عن الكلبي أنه كان خارج الكوفة عندما سمع بحوادث الكوفة وأخبار تجهيز الجيش لمقاتلة أبي عبد الله الحسين ولما كان هو من مجاهدي الإسلام الأوائل فإنه صار يفكر بينه وبين نفسه ويقول والله لقد قاتلت الكفار لسنوات من أجل الإسلام ولكن ذلك الجهاد لا يمكن أن يصل الآن إلى مستوى هذا الجهاد جهاد الدفاع عن آل بيت الرسول . فاتجه فوراً إلى البيت وأخبر زوجته بالأفكار التي تدور في خَلْده فقالت له : بارك الله فيك ، إنها لفكرة حسنة بالفعل ولكن بشرط . فقال لها وما هو الشرط ؟ قالت ؛ أن تأخذني معك . فلم يكتف الرجل بأخذ زوجته معه بل أخذ أمه أيضاً . وما أعظمهن من نساء ! وهذا الرجل كان معروفاً بالشجاعة وقد نازل بالفعل اثنين من الرجال الأقوياء اللذين تطوعا لقتاله هما مولى (عمر بن سعد) ومولى (ابن زياد) وقد صرعهما . وهو الذي قد قال عنه أبو عبد الله الحسين (ع) : إنه لفارس الميدان الذي يناسب هذين الرجلين ، وبالفعل كان كذلك .

فبعد أن كان قد قضى على - يسار - وهو مولى عمر بن سعد ، غدره في هذه الأثناء الرجل الآخر الذي أتاه من الخلف واستطاع قطع يده اليمنى ولكنه استطاع أي الكلبي رغم ذلك من مقاتلته بيد واحدة والقضاء عليه أيضاً . وبينما

هو في هذه الحال عاد نحو أبي عبد الله وهو يرتجز وكانت أمه حاضرة فقال لها :

يا أماه : أرضيت عني أم لا ؟ فقالت أمه : ما رضىت حتى تُقتل بين يدي الحسين (ع) ابن بنت رسول الله (ص) . لكن زوجته التي كانت امرأة شابة تعلقت بشبابه وقالت له : بالله عليك لا تُفجعني بنفسك . فردت عليه أمه : يا بُني أعزب عن قولها وارجع فقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله تُل شفاعة جده يوم القيامة .

ويذهب هذا الرجل بالفعل ويُقاتل حتى يستشهد . فيقطع رأسه الأعداء ويرمون به نحو غميم الحسين . (هناك عدد من الشهداء قد رُميت رؤوسهم نحو غميم الحسين وهذا الرجل كان من جملة هذه الرؤوس) وما كان من أمه إلا أن تناولت رأس ابنها وضمته إلى صدرها وهي تدمدم بينها وبين نفسها وتقول : بُني الآن قد رضىت عنك فقد أديت واجبك . ثم تقول نحن لا نسترد ما بذلناه في سبيل الله وترمي برأس ابنها مرة أخرى وتضرب به أحد أفراد العدو ثم ترفع عمود خيمة من الخيام وتحمل على العدو وهي ترتجز :

أنا عجزوُ سيدي ضعيفة خائوةٌ باليةٌ نحيفة
أضربكم بضربةٍ عنيفة دون بني فاطمة الشريفة^(١)

لقد استشهد في كربلاء كما يذكر التاريخ عشرة أو تسعة أنصار لم يبلغوا سن الحلم . ويكتب التاريخ حول أحدهم قائلاً : « وخرج شابٌ قُتل أبوه في المعركة »^(٢) [ولكن لم يذكر من هو أبوه] .

يقول الراوي :

فقال الحسين : هذا شابٌ قُتل أبوه ولعل أمه تكرهُ خروجه . فيرد الشاب : أمي هي التي أمرتني بذلك وقالت لي : اخرج يا بُني وقاتل بين يدي ابن

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٢٨ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١٠٤ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٢٢ . مقتل المرقم ص ٣١٥ .

(٢) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٢٧ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٢٢ .

هذا الطفل بالذات بعناية وتهتم به بشكل خاص . ولكن هذا الطفل وسائر الصبية في خيام الحرم كانت تنوق لساعة الخروج إلى الميدان وما أن لقي الفرصة مناسبة حتى أفلت من يد عمته (زينب) وخرج إلى الميدان وقبل أن تلحق به عمته انطلق نحو أبي عبد الله وهو يقول : « والله لا أفارقُ عمي »^(١) وبالفعل فقد بلغ مكان عمه الحسين ، وهو مُلقًى على الأرض في الساعات الأخيرة وقد صُعب عليه الحراك ، وتعلّق بثيابه ، فضمّه الحسين (ع) إلى صدره رغم ما هو فيه من ضعف .

يقول الراوي :

وفي هذه الأثناء حَمَلَ أبجر بن كعب وقيل حرملة بن كاهل على الحسين وأراد ضربه بالسيف . فقال الغلام الذي رأى عمه في هذه الحالة موجهاً كلامه نحو العدو اللعين : «ويلك يا ابن الخبيثة أتقتل عمي؟ لكن العدو ضرب الطفل بالسيف فاتقاه الغلام بيده فاطّنها إلى الجلد فإذا هي معلقة فنادى الغلام في تلك اللحظة : يا أمّاه ، يا عمّاه ! فأخذه الحسين فضمه إليه وقال : « يا بن أخي اصبر على ما نزل بك واحتسب في ذلك الخير فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين » .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وصلّى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين

○ ○ ○

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٣ . أعلام الوري ص ٢٤٣ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٤١ .

المحاضرة السادسة

دور أهل بيت سيد الشهداء في تبليغ النهضة الحسينية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله
ورسوله وحبيبه وصفيه سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله
وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين .

﴿الذين يُلَفِّفُونَ رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله
حسيماً﴾^(١) .

البحث حول دور أهل بيت سيد الشهداء المكرمين في تبليغ النهضة
الحسينية والإسلام يحتاج إلى مقدمتين أجد من الواجب عليّ أن أعرضهما عليكم
أولاً وقبل الدخول في صلب الموضوع .

فطبقاً للروايات التاريخية واستناداً إلى معتقداتنا نحن المؤمنين بإمامة حضرة
سيد الشهداء نقول : إنّ أعمال أبي عبد الله الحسين كفاية لا بد وأن تكون قائمة
منذ اليوم الأول على أساس من المنطق والحساب العقلاني المدعوم بالدليل
والبرهان . أي إنّنا لا نستطيع القول بأنّ القضايا كانت تحدث بالصدفة . بل إنّ

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .

كل ما كان يحدث في تاريخه ما كان يحدث إلا ضمن حساب وميزان دقيق . وهذا الأمر يمكن إثباته والبرهنة عليه بالفرائض التاريخية بالإضافة إلى أن المنطق والروايات التاريخية ومعتقداتنا القائمة على إمامة حضرة سيد الشهداء تثبت ذلك وتدعمه .

إن إحدى المسائل التي تعرّض إليها المؤرخون كما تعرضت إليها الروايات والأحاديث كانت تبحث في الأسباب التي جعلت أبا عبد الله يأخذ معه أهل بيته وعياله في هذه الرحلة الخطرة ؟ وخطر هذه الرحلة كان في مقدور أي إنسان عادي أن يتصوره . ولهذا ترى أن كل من قابل أبا عبد الله وأراد نصحه أو تحدث معه في المصلحة العامة رأى من الخطورة بمكان أن يأخذ أبو عبد الله الحسين عياله وأهله معه في هذه الرحلة . أي إن أولئك الأصحاب قد أجمعوا كلهم وبدون استثناء بناءً على المنطق والحسابات المتداولة في المستوى العادي ، واستناداً إلى معايير حفظ النفس ، والمحافظة على حياة أبي عبد الله وأهل بيته ، أن رحلته عليه السلام بحد ذاتها خطر كبير يُعرض حياة أبي عبد الله للفناء وليس فيها مصلحة له ناهيك عن أخذه لأهل بيته في مثل هذه الرحلة . لكن رد أبي عبد الله كان قاطعاً بقوله يجب أن آخذهم معي . إنه كان يرد عليهم رداً لا يستطيعون معه قول أي شيء وذلك من خلال بيان الجانب المعنوي للقضية وهو الأمر الذي لا بد أنكم قد سمعتموه مراراً من حيث استناده إلى الرؤيا التي جاءته بهذا الشأن والتي هي بحكم الوحي القاطع . وكان مما قاله لأخيه محمد بن الحنفية : « أتاني رسول الله (ص) بعدما فارقتك فقال : « يا حسين اخرج ، فإن الله شاء أن يبرأك قتيلاً » . فقال محمد بن الحنفية : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال ؟ قال : فقال [لي (ص)] : « إن الله قد شاء أن يراهنّ سبياً » . فسلم عليه ومضى^(١) .

وهنا أود أن أشرح لكم شيئاً بخصوص معنى هاتين الجملتين ، وهو ما كان يفهمه جميع الذين كان يخاطبهم أبو عبد الله الحسين (ع) آنذاك وليس بالشيء أو

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٦٤ . مقتل الحسين للمقرم ص ١٩٥ .

الرمز والسر الذي اكتشف في هذا العصر وأصبح شائعاً بين الألسن فكلمة مشيئة الله أو إرادة الله التي يأتي ذكرها واستخدامها في القرآن الكريم أيضاً ، تستخدم في الحقيقة في موردين : أحدهما يطلق عليه مفهوم الإرادة التكوينية ، والثاني الإرادة التشريعية . والإرادة التكوينية : تعني القضاء والقدر الإلهيين ، ومعنى ذلك أن الشيء الذي يجري عليه القضاء والقدر الإلهي الحتمي واقع لا محالة ، ولا يمكن فعل أي شيء تجاهه أبداً .

أما معنى الإرادة التشريعية فلأنها تعني أن الله قد رضي بهذا الشيء وهو يريد كذلك . فعندما يقول سبحانه وتعالى مثلاً حول الصوم : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾^(١) . أو عندما يرد في قوله تعالى حول مفهوم الزكاة : ﴿ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾^(٢) . فإن الغاية من وراء ذلك القول بأن الله قد شرع مثل هذه التعليمات وأن الله قد أمر بذلك ، وأنه يريد للأمر أن تمضي كذلك . أي إن رضا الباري الحق يتحقق في تلك الإرادة . فالله هو الذي أراد أن تكون شهيداً ، أو أن جدي قد قال لي بأن رضا الله إنما يحصل بشهادتك أو أن جدي قال لي إن الله قد شاء أن يراهن سبانيا . أي إن أمرهن فيه رضا الحق وفيه المصلحة . ورضا الحق دائماً في المصلحة والمصلحة تعني كمال الفرد والبشرية .

وفي مقابل هذا الحديث لم يقل أحد شيئاً . أي لم يكن باستطاعة أحد أن يقول شيئاً . لأنه ما دام جدك قد أتاك في عالم الرؤيا وقال لك إن المصلحة تقتضي بأن تقتل فأبي حديث وأي قول نستطيع قوله تجاه هذا القول . وإن كل الذين تلقوا هذا الجواب من أبي عبد الله الحسين (ع) لم يتخللوا كما لو أن أبا عبد الله الحسين كان مُحرجاً في موقفه نتيجة ما أتاه في عالم الرؤيا وأنه مثلاً كان يقول بأن المقدّر لا بد له أن يحصل وأنه لا حيلة لي بما سيقع . لا أبداً ، بل إنه كان يقول لهم إنه ونتيجة الإلهام الذي أتاني بواسطة عالم الرؤيا فلاني أرى أن المصلحة تقتضي القيام بمثل هذا العمل وإنه العمل الذي سأقوم به بكامل إرادتي ، وهو ما يتناسب مع المصلحة العليا .

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٦ .

ولذا ترى أن جميع من تدخل لدى أبي عبد الله لثنيه عن الخروج كانوا يفكرون بطريقة واحدة لكن أبا عبد الله كان يرى الأمور من منظار أرفع درجة فحكمهم في وإد ، وحكمه في وإد آخر إذ كان يقول عليه السلام : إن الأمر ليس كما تتصورون ، فانا عمل وأنصرف بشكل آخر ، مما يعني أن عمله عليه السلام وفعله ونشاطه وكل حركة من حركاته كانت محسوبة بدقة وكلها عبارة عن نداء ورسالة يقتضى منه القيام بها . إنها المهمة التي وكل بها . ولم يكن قد أخذ أهل بيته بمثابة الكم الثانوي الذي لا دور له . أو إنه تصرف على طريقة الناس العاديين وقال ما دمت ذاهباً فليأت معي أهلي وعيالي ، لا فالأمر ليس كذلك . فما عدا الأسماء التي سبق وأن ذكرتها من الأصحاب فإن أحداً من الآخرين لم يأت بالنساء والأطفال معه . فالإنسان الذي يتهيا لسفر مخفوف بالمخاطر لا يأخذ أهله وعياله معه . لكن أبا عبد الله قد أخذ زوجته وأطفاله معه ، ولكن ليس لأنه أراد أن يأخذ أهله وأطفاله هكذا معه دون أي حساب يذكر . (من المعلوم أن بيت وسكن واستقرار حياة الإمام الحسين (ع) كل ذلك كان في المدينة) بل إنه أخذهم معه من حيث إن لهم دوراً ورسالة عليهم أن يؤدوها . كانت هذه المقدمة الأولى .

المقدمة الثانية عبارة عن : البحث حول « دور المرأة في التاريخ » وهل إن للمرأة دوراً ما في صناعة التاريخ أم لا ؟ وما إذا كان في الأساس باستطاعتها أن تمثل دوراً ما أم لا ؟ وهل يجب أن يكون لها دور أو أنه لا ينبغي أن يكون لها دور ؟ بالإضافة إلى نظرة الإسلام لهذه القضية ؟

إن للمرأة دوراً في التاريخ كان وسيظل ولا أحد ينكر هذا الدور وهو دورها غير المباشر في صناعة التاريخ . يقولون إن المرأة تصنع الرجل والرجل يصنع التاريخ . يعني إن للمرأة دوراً في صناعة الرجل أكثر مما للرجل من دور في صناعة المرأة .

وهذه مسألة بحد ذاتها لست بصدد الحديث عنها هذه الليلة . ولكن هل هو الرجل الذي يصنع روح وشخصية المرأة أكانت المرأة أم أم زوجة أم إنها المرأة التي تصنع الابن بل وحتى الزوج ؟ (ولا سيما الزوج) وهل هي المرأة التي تؤثر في

صناعة الزوج أكثر أم إنه الزوج الذي يُساهم في صناعة المرأة أكثر ؟

إنكم ستعجبون بالتأكيد لو قلتُ لكم إنَّ التحقيقات التاريخية والدراسات النفسية قد أثبتت أنها المرأة التي تؤثر في شخصية الرجل أكثر مما يؤثر الرجل في شخصية المرأة . ولذلك فإنَّ التأثير غير المباشر للمرأة في صناعة التاريخ أمرٌ مفروغٌ منه لا يمكن إنكاره ولنترك الآن قصة أنَّ المرأة تصنع الرجل والرجل يصنع التاريخ فتلك قصة مطوّلة وبحثها ذو شجون .

ولنتوجه للبحث حول مدى دور المرأة المباشر في صناعة التاريخ وكيف يجب أن يكون وكيف يمكن أن يكون ؟ إنه يمكن أن يكون على ثلاثة أشكال :

الشكل الأول أن لا يكون للمرأة أساساً أي دور مباشر في صناعة التاريخ . أي أن يكون دور المرأة دوراً سلبياً محضاً ، ففي كثير من المجتمعات لا نجد للمرأة أي دور يخرج عن إطار الحمل والولادة ورعاية الطفل وإدارة شؤون البيت الداخلية . أي إنه لم يكن للمرأة دور مباشر في المجتمع الكبير . ودورها لم يتجاوز الدور غير المباشر . ذلك الدور المتأتي من خلال تأثيرها ولعب دورها في داخل العائلة وصناعتها لفرد وعنصر العائلة الذي سيلعب دوره في المجتمع الكبير . وهذا ما نستخلص منه أنَّ المرأة في كثير من المجتمعات لا تمثل أي دور مباشر خاص بها سوى ذلك الدور الذي تمثله بواسطة الرجل . والمرأة في هذه المجتمعات ، وخلافاً لما يُشاع في هذا المجال ، فإنها رغم عدم تمثيلها الدور المباشر في صناعة التاريخ والمجتمع فقد كانت تعيش بمثابة ذلك الشيء الثمين القدر والقيمة . أي إنها وعلى الرغم من قلة تأثيرها كشخص لكنها ظلت ذلك الشيء الثمين والدليل على ذلك تأثيرها في صناعة الرجل ولم تكن يوماً رخيصةً تتوفّر هكذا في الأزقة والطرق ويسطيع نواها من يُريد الاستفادة منها في الأماكن العمومية ، بل إنها كانت ذلك الشيء الذي انحصرت الاستفادة منه في دائرة الحياة العائلية فقط لا غير . ولذلك فإنها كانت بالتأكيد بالنسبة لرجل العائلة موجوداً ثميناً للغاية ، لأنها الموجودة الوحيدة التي كانت تُشبع إحساساته الجنسية والعاطفية ، وبالطبع فإن الرجل في هذه الحالة كان عملياً في خدمة المرأة . لكن المرأة ظلت رغم ذلك شيئاً

ثميناً مثل الماس والجواهر الثمينة الأخرى لكنها ليست شخصاً وإنما شيئاً ثميناً .

الشكل الآخر لتأثير المرأة في التاريخ وهو الشكل الذي كان رائجاً وشائعاً في المجتمعات القديمة بأن تكون المرأة عاملاً مؤثراً في التاريخ وأن تمثل دوراً مباشراً فيه وأن تكون بمثابة شخص مؤثر وليس شيئاً . لكنها تكون شخصاً لا قيمة له وشخصاً رخيصاً وتصبح ذلك الشخص الذي نزعته عنه الحصانة والحرمة التي تفصل بينه وبين الرجل . إن الجزئيات الدقيقة في علم النفس أثبتت إن هناك لمسات دقيقة جداً معجونة في خلقة الإنسان جعلت من المرأة كياناً عزيزاً . لكن في الوقت الذي ترى فيه هذه الحرمة قد كُسرَت كلياً وهذا السياج قد قُـلَّ نهائياً ، وتحلَّل تماماً ، فإن شخصية المرأة تكون قد انحدرت سواء من حيث العزة أو الاحترام . بالطبع من الممكن أن تكون قد اكتسبت امتيازات ترفع من شخصيتها في الجوانب الأخرى من الحياة ، كأن تكون قد أصبحت متعلّمة ، أو عالمة ، لكنها لم تُعَدِّ ذلك الموجود الثمين للرجل . لكن المرأة لا تستطيع أن تخرج من كونها امرأة وإن من طبيعة المرأة أن تكون ثمينة للرجل . ولو سُلِبَ هذا الشيء من المرأة فإنها تفقد روحيتها بشكل تام .

إن ما يلاحظ على الرجل في العلاقة الجنسية هو رغبته في امتلاك المرأة بمثابة موجود ثمين ، وليس امتلاك المرأة له بمثابة الموجود الثمين لها .

في حين إن الكامن في طبيعة المرأة ليس امتلاك الرجل لها على أنها شيء ثمين ، بل أن تعمل هي بمثابة شيء ثمين في السيطرة على الرجل .

لكن في الوقت الذي تخرج فيه المرأة من موقع الاختصاص - حالة الخصوصية - (ليس بالضرورة أن يتشر ويعم التخصص والاختصاص من خلال الزواج فقط) أي أن تصبح المرأة رخيصة ، وتصبح الشوارع والأزقة واجهات لها تعرض من خلالها نفسها للرجل ، وأن يكون بمقدور الرجل أن يستثمر ويُسبِع حاجته في النظرة ، والتمتع الشهواني ، وسماع الموسيقى ، وغناء النساء ، واللمس ، وغير ذلك ، بأرخص الأثمان . هنا تفقد المرأة قيمتها ، وأهميتها الخاصة بالنسبة للرجل . أي إنها لم تُعَدِّ شيئاً ثميناً رغم أنها أصبحت معلمة

مثلاً ، أو خريجة جامعة ، أو معلّمة مدرسة ، وباستطاعتها أن تدبر مدرسة ما ، أو أن تكون طبيبة . كل هذا يمكن أن تكونه لكنها في مثل هذه الظروف (رخص المرأة) لن تجد فيها تلك القيمة الموجودة في طبيعة كل امرأة ، وفي الحقيقة تصبح عندها المرأة ليست أكثر من العوبة في مجتمع الرجال دون أن تجد لها تلك العزة وذلك الاحترام المطلوبين لدى أي فرد من أفراد عالم الرجال .

إنّ المجتمع الأوروبي ينحو بهذا الاتجاه أي إنه يمنح المرأة من جهة ، بعض الامتيازات المتعلقة بنموها من الناحية الإنسانية مثل العلم وإرادة الشخصية ، لكنه من جهة أخرى يفقدها قيمتها الخاصة .

وهناك شكل ثالث للمرأة يمكن له أن يكون ، وهو أن تصبح المرأة « الشخص الثمين » أن تكون شخصاً واثمةً في آن معاً . أي أن تمتلك من جهة تلك الشخصية الروحية والمعنوية المطلوبة وتحمل في طياتها الكمالات الروحية والإنسانية نظير المعرفة وغيرها (العلم والمعرفة من أركان شخصية المرأة . والاختيار والإرادة المستقلة والقوية والشجاعة والبطولة الكافية ركن آخر من أركان شخصية المرأة . والإبداع بدوره ركن آخر من الأركان المعنوية لكل إنسان رجلاً كان أو امرأة ، وكون المرأة عابدةً لله تعالى أي أن تكون لها رابطة مباشرة مع ربها ومطبعةً له هذه وغيرها من العلاقات المعنوية التي تربط بين المرأة وبين الله وهي العلاقة الشبيهة بعلاقة الأنبياء مع ربهم يمكن أن تكون هي الأخرى عاملاً من عوامل تدعيم شخصية المرأة) . وأن لا تكون مبتذلةً في المجتمع من ناحية أخرى . فلا تكون حالتها محدودة ومحددة ولا تكون مختلطة . بل حريماً ووسطاً . والحريم حالة وسط بين حالة المحدودية وحالة الاختلاط بين المرأة والرجل .

عندما نطالع المصادر الإسلامية بخصوص المرأة نرى أن الإسلام يُريد للمرأة باختصار أن تحافظ على شخصيتها كما يُريد لها أن تحافظ على قيمتها . وفي إطار هذه الشخصية والقيمة تستقر حالة العفاف في المجتمع ، وتبقى النفوس سليمةً والنواة العائلية سالمةً ورشيدةً وعلى ما يُرام . أن تكون المرأة ثمينة وكريمة يعني أن تحفظ الحزمة التي تفصل بينها وبين الرجل في الحدود التي وضعها الإسلام . أي

إن الإسلام لا يفسح لغير النواة العائلية في المجتمع مكاناً للتلذذ الجنسي بين الرجل والمرأة سواء أكان ذلك بصورة النظر إلى البدن والقامة ، أو بصورة اللمس ، أو بصورة استنشام العطر النسائي ، أو سماع صوت الأرجل ، إذا كان ذلك مُهيجاً . ولكن إذا قيل وما هو الموقف من العلم والاختيار والإرادة والإيمان والعبادة والفن والإبداع؟ نقول عظيم جداً . مثلها مثل الرجل . فالشارع المقدس قد حرّم أشياء خاصة بالمرأة وما لم يُحرّمه الشارع فإنه ليس حراماً على أحدٍ منهما . نقول إن الإسلام يُريد الشخصية للمرأة وليس الابتذال .

بناءً على ما تقدم فإن السؤال عما إذا كان التاريخ قد صنعه الرجل أم الرجل والمرأة معاً يمكن الجواب عليه بأشكال ثلاثة فنقول :

إن هناك تاريخاً يمكن نعتة بالتاريخ المذكر وهو التاريخ الذي تم صنعه بواسطة الجنس المذكر بشكل مباشر ولم يكن للجنس المؤنث أي دور يُذكر فيه .

وهناك تاريخ آخر هو تاريخ المذكر والمؤنث أي من النوع المختلط ولا يكون فيه الرجل في مداره ولا المرأة في مدارها . أي ذلك التاريخ تعرضت فيه هذه المنظومة إلى الفوضى والاضطراب حيث الرجل أصبح يدور في مدار المرأة المرأة صارت تدور في مدار الرجل . ولو ألقينا نظرة اليوم على لباس بعض الشباب والشابات المنتشرين في مجتمعاتنا لرأينا كيف أنهم صاروا يستبدلون مواقعهم مع بعضهم البعض .

ثم هناك الشكل الثالث من التاريخ وهو تاريخ المذكر والمؤنث المصنوع على يد الرجل كما على يد المرأة لكن الرجل فيه لم يغادر مداره كما أن المرأة بقيت في مدارها . ونحن عندما نطالع القرآن الكريم نرى أن تاريخنا الديني والعقيدي كما شرحه لنا القرآن الكريم عبارة عن تاريخ مذكر مؤنث والذي اصطلحت عليه بالتاريخ - المندث - أي التاريخ الذي مثل فيه المذكر دوره كما مثلت الأنثى دورها ولكن ليس بالصورة المختلطة بل إن الرجل حافظ فيه على مداره الخاص كما حافظت المرأة على مدارها أيضاً .

وكما يُلاحظ فإن القرآن الكريم قد تعمد في إظهار دور القديسات

والصّدِيقَات في التاريخ تماماً كما بينَ دور القديسين والصّدِيقين فيه . ففي قصة (آدم وحواء) هناك ملاحظة سبق لي وأن أشرتُ إليها مراراً في محاضراتي في السنين الماضية وأود هنا أن أذكركم بها مجدداً . أقول :

هناك فكر خاطيء أدخله المسيحيون في تاريخ الفكر الديني العالمي وهو نوع من الخيانة الحقيقية في عالم الدين . (وذلك بخصوص عزوبة المسيح عيسى بن مريم وعدم زواج القسس والمطارنة والكرادلة) فمن خلال إلقاء ذلك الفكر الخاطيء صارت المرأة مع الزمن تُشكّل عاملاً من عوامل الذنوب والخداع . أي بمثابة الشيطان الصغير الذي يُوسوس باستمرار في نفس الرجل ويدفعه إلى ارتكاب الذنوب . فقد قالوا إن قصة (آدم وحواء والشيطان) قد حصلت على الشكل التالي :

لما كان الشيطان لم يستطع النفوذ إلى قلب (آدم) تحوّل إلى (حواء) فاستطاع خداعها ثم قامت (حواء) من بعد ذلك بخداع (آدم) . وعليه فإن التاريخ بأجمعه يسير بهذا الاتجاه فالشيطان الكبير يبدأ أولاً بخداع المرأة ثم تأتي المرأة فتخدع الرجل وتوسوس في نفسه . في حين أن قصة (آدم وحواء) والشيطان بالشكل الأنف الذكر قد اخترعها المسيحيون من عندياتهم . إذ إنّ القرآن الكريم يقول بخلاف ذلك ويُصرّح بحقيقة الأمر بوضوح وهو أمرٌ عجيب فعلاً . فعندما يأتي القرآن على ذكر (آدم والشيطان) يجعل أصل الغواية في آدم ومن ثم يتبعها بحوّاء . ثم إنه بعد ذلك عندما يتحدث عن مسير الغواية والانحراف ينقل القصة على الشكل التالي إذ يقول تعالى : ﴿ ولا تقرّبا هذه الشجرة . . ﴾ فوسوس لهما الشيطان ﴿ ^(١) فهو لم يقلّ وسوس للواحد منهما وجاء هذا فوسوس في نفس الآخر . ثم يضيف تعالى : ﴿ فدلّاهما بغرور ﴾ ^(٢) مرة ثانية يأتي ضمير التثنية . ثم ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ ^(٣) أي إنه

(١) سورة الأعراف : الأيتان ١٩ و ٢٠ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٢ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ٢١ .

بمقدار ما تزلزلت (حواء) تزلزل (آدم) وبمقدار ما تعرضت (حواء) للغواية تعرض (آدم) .

فالإسلام أتى وطرد هذه الفكرة وهذا الكذب الذي ألصقه المنحرفون بتاريخ الفكر الديني وأوضح بما لا يقبل الشك والترديد بأن قضية عصيان الإنسان وتمرده على أوامر ربه ليست كما يدعي المنحرفون من أن الشيطان قد أغوى المرأة أولاً ثم جاءت هي ووسومت بنفس الرجل وبالتالي فإن المرأة عامل من عوامل الذنب والمنكر ! وربما كان هذا هو السبب الذي حمل القرآن الكريم على ذكر القديسات العظيمات إلى جانب القديسين وقد جاءت مواردهن كافة أكثر عظمة وأرفع علواً من القديسين .

فانظر إلى القرآن الكريم كيف يأتي على ذكر سارة (زوجة إبراهيم عليه السلام) ويجلّها ذلك الإجلال العظيم ! ويُحدّث عنها بأنها على شاكلة (إبراهيم) وفي مقامه فكما أن (إبراهيم) مرتبط بالملكوت وله عين ملكوتية ، يرى فيها الملائكة ، ويسمع أصواتهم ، فلن (سارة) هي الأخرى تسمع أصواتهم أيضاً . فعندما قال الملائكة لإبراهيم (كان إبراهيم شيخاً كبيراً وامرأته سارة امرأة عجوزاً) . إن الله يريد أن يهبك ولدًا فإن (سارة) قد صاحت عالياً وقالت : ﴿ أَلِدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخٌ ﴾ ^(١) ؟! فخاطبت الملائكة هذه المرة (سارة) وليس (إبراهيم) وقالت لها : ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) ! كذلك الأمر عندما يرد ذكر (أم موسى) في القرآن الكريم فترى الآية الكريمة تخاطب تلك المرأة الجلييلة بقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ غَالِقِهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(٣) .

ثم انظر إلى القرآن الكريم ماذا يعمل عندما يصل في الحديث عن (مريم) فإنه يأتي على ذكرها بعظمة متقطعة النظير . فإذا بالأنبياء يركعون أمام هذه المرأة

(١) سورة هود : الآية ٧٢ .

(٢) سورة هود : الآية ٧٣ .

(٣) سورة القصص : الآية ٧ .

الجليلة . فعندما يأتي إليها (زكريا) يراها جالسةً وحولها من النعم التي لا وجود لها في البلاد التي يُقيم فيها أولئك القوم .

ثم يقول القرآن الكريم بينما كانت مريم جالسةً في المحراب فإن الملائكة كانت تُحدّثها قائلة : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (١) .

فالملائكة هنا كانت تتحدث مباشرةً إلى (مريم) وهي لم تكن من المبعوثين . لأن القرآن لا يرى من المصلحة والصالح أن يبعث رسولاً من النساء ليُشَرِّ بين الرجال والنساء فمريم هنا خلافاً لشأنها لم تكن مبعوثةً لكن مقامها أعلى وأرفع من كثير من المبعوثين والرُّسل . فمريمُ غير المبعوثة لا شك أعلى مقاماً وأرفع درجةً من زكريا المبعوث والرسول .

يقول القرآن الكريم في ذكره للصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ (٢) وهل هناك كلمة أرفع من كلمة « الكوثر » !!؟ ففي وسط العالم الذي كان يرى في المرأة شراً مطلقاً وعنصر خداع وعامل ذنب يأتي القرآن ليقول إنها ليست خيراً فحسب بل أنها الكوثر ، أي الخير الواسع ، أي عالم من الخير .

ثم تأتي الآن إلى متن التاريخ الإسلامي ، فمنذ اليوم الأول للدعوة وإذا بشخصين اثنين يلتحقان بالإسلام ، هما عليٌ وخديجة وكلاهما مثل دوراً مهماً على مسرح صناعة تاريخ الإسلام . فلو لم تكن تضحيات هذه المرأة التي كانت تكبر النبي بخمسة عشر عاماً فمن أين كانت القدرة ستأتي للنبي - من زاوية العلل الظاهرية - للقيام بكل ما قام به من نشاط في الدعوة ؟ فكما ورد في تاريخ (ابن اسحاق) بعد قرنٍ ونصف من الهجرة حول مقام خديجة ودورها في مساعدة الرسول (ص) ، ولا سيما دورها في مواساته عليه أفضل الصلاة والسلام يقول الراوي :

(١) سورة آل عمران : الآية ٤٥ .

(٢) سورة الكوثر : الآية ١ .

إنَّ الدنيا قد ضاقت كثيراً بوجه النبي الأكرم (ص) بعد وفاة (خديجة) وهي السنة التي توفي فيها عمه (أبو طالب) أيضاً حيث إنه صار بعد ذلك كلما يُذكر اسم (خديجة) أمامه تسيل الدموع المقدسة من عينيه حُزناً عليها وعندما كانت (عائشة) تعترض وتقول له لماذا كل هذه القيمة والتقدير لمجوز مثل (خديجة) كان يقول لها : إنني لا أبكي (خديجة) لشكلها بل أبكيها مقامها . فأين أنت وغيركِ من خديجة !؟

إن تاريخ الإسلام هو تاريخ المذكر - المؤنث . صنعه المذكر كما صنعه المؤنث لكن المذكر فيه ظل في مداره والمؤنث أيضاً بقي في مداره ولم يغادره . فالرسول الأكرم (ص) كان لديه أصحاب من الرجال كما لديه أصحاب من النساء وكان هناك الرجل الراوي كما كان هناك المرأة الراوية وهي أسماء معروفة دونها المؤرخون في كتبهم قبل ألف عام ولدنيا روايات كثيرة كان رواتها من النساء . فهناك كتاب مثلاً باسم (بلاغات النساء) وفيه خطب وأقوال بليغة أوردها النساء في التاريخ الإسلامي وهو كتاب حرَّره البغدادي الذي كان يعيش في حدود العام (٢٥٠هـ) أي في زمن الإمام الحسن العسكري (ع) (من المعلوم أن الإمام العسكري (ع) قد توفي في العام (٢٦٠هـ) ومن جملة الخطب التي ذكرها البغدادي في هذا الكتاب خطبة السيدة (زينب) عليها السلام في مجلس (يزيد) وخطبتها أيضاً في مجلس (ابن زياد) وخطبة (الزهراء (ع)) في أوائل خلافة أبي بكر .

في الضريح الجديد الذي تم بناؤه للسيدة المعصومة (وهي أخت الإمام الرضا (ع) المدفونة في مدينة قم المقدسة) يوجد رواية جميع رواتها من النساء إلى أن نصل إلى الرسول الأكرم (ص) . وبالمناسبة فإن أسماءً جميعاً فاطمة (حوالي أربعون فاطمة) . فهي معنعة هكذا روي عن فاطمة . . . عن فاطمة بنت . . . حتى يصل الأمر إلى فاطمة بنت موسى بن جعفر ، ثم يستمر التسلسل حتى فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أن تصل أخيراً إلى فاطمة بنت النبي .

أي إن مشاركة النساء في المجتمع كانت منتشرة إلى هذا الحد الكبير ولكن لم

يحصل الاختلاط يوماً . فقد كان الكثير من الرواة يحضرون المجالس ليُحدّثوا الناس بروايات وأحاديث النبي ، وكانت النساء تأتي وتجلس وتستمع إليهم . لكن الرجال كانوا في ناحية والنساء في ناحية أخرى .

لا كما هي الحالة اليوم حيث يأتون بالكراسي ويجلس الرجل على كرسي والمرأة على الكرسي المُحاذي له وهي تلبس الميني جوب وتعرض سيقانها أمام الرجال ومن ثم تقول إنها جاءت لتتعلم في حين أن الأمر واضح جداً فالظاهر شيء والباطن شيء آخر . فالإسلام يُريد العلم للجميع لكنه يرفض الابتذال ، ومجالس الشهوة ، والسخرية ، والاحتفال . إنه يُريد الشخصية للإنسان .

لقد أراد كل من فاطمة (ع) والإمام علي (ع) بعد زواجهما أن يُقسّما أعمال البيت بينهما لكنهما أرادا أن يحصل ذلك بإشراف النبي (ص) وتعليماته فذهبا إليه ليستأنسا برأيه وقالاه : يا رسول الله ! نود أن نسمع منك عن واجبات علي (ع) في هذا البيت وواجبات فاطمة . فأوكل رسول الله أعمال البيت الخارجية إلى علي (ع) وأعمال البيت الداخلية لفاطمة . فما كان من فاطمة إلا أن عبّرت عن شديد فرحها وبهجتها بارتفاع كاهل أعمال البيت الخارجية عن كتفها . لمثل هذه المرأة يُقال المرأة العالمة . والمرأة الخالية من الحرص تُفكر وتعمل كما عملت فاطمة (ع) .

ولكن هل دققتم بشخصية (الزهراء) هذه التي تفرح بما أوكل إليها الرسول (ص) من شؤون الأعمال البيتية ؟ إنها هي نفسها فاطمة صاحبة العلم والإرادة العظيمة والخطابة والبلاغة والنمو الفكري والتسامي الأخلاقي الراقي .

لقد رحلت (الزهراء) من هذه الدنيا وهي في عز شبابها ولكثرة ما كان لديها من أعداء ، لم يبق كثير من آثارها محفوظة . ولكن لحسن الحظ فإن خطبة طويلة جداً (في حدود ساعة) مفصلة لا زالت محفوظة منها ويقال إنها أوردتها وهي في عمر يناهز الثمانية عشر عاماً (أو كما ورد في بعض الروايات (٢٧) عاماً) وهي رواية مُتفق عليها أي إنّ روايتها ليس الشيعة فقط فكما ذكرنا فإنّ البغدادي قد ذكرها في كتابه في القرن الثالث الهجري . وهذه الخطبة الواحدة بحد ذاتها

كافية لِتُبَيِّنَ لنا كيف أن المرأة قادرة في الوقت الذي تحافظ فيه على الحريم الفاصل بينها وبين الرجل أو بالأحرى عندما لا تجعل زينة نفسها وبدنها وكيانها ، معرضاً للرجال . هذه المرأة نفسها تستطيع أن تصل إلى هذا المستوى الرفيع من العلم . ثم تُحدِّد هي لنا وتُبَيِّن المدى المقبول في خوضها للمجتمع الكبير .

إن خطبة (الزهراء(ع) فيها من التوحيد في مستوى توحيد (نهج البلاغة) . أي المستوى الذي لا يتمكن الفلاسفة من الوصول إليه . فهي عندما تتحدث في الخطبة عن الذات القدسية وصفات الله توازي في مستواها مستوى أكبر فلاسفة العالم . وليس بمقدور فيلسوف كبير مثل (ابن سينا) أن يخطب خطبة مثلها . ثم تراها فجأة تنتقل للحديث عن فلسفة أحكام العبادات فتحدِّثك عن حيثيات حكم وجوب الصلاة والصوم والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والزكاة . . الخ ثم تنتقل إلى تقويم حالة العرب ما قبل الإسلام والتحول الذي أدخله الإسلام في هيكلية وكيان هذه الأمة التي كانت على ما كانت عليه من تفتت وتمزق وجاهلية . فتراها تحلّل وضع الحياة المادية والمعنوية التي مرّت بها القومية العربية قبل الإسلام ، ومن بعد ذلك تُذكّرهم بما قدّمه لهم النبي الكريم من وسائل تطور ونمو الحياة المادية والمعنوية ، إلى أن تصل في الحديث إلى موضوع الاستدلال والمحااجة وغير ذلك .

إنها كانت تخطب في مسجد المدينة بحضور الآلاف من الناس لكنها لم تصعد على المنبر والعياذ بالله لَتُبَيِّنَ نفسها وتباهى بشخصيتها . فسنة النبي كانت تُفرّق بين مجلس النساء ومجلس الرجال إذ كانت هناك ستارة تفصل بين المجلسين .

والزهراء البتول ألفت بخطبتها كاملةً من وراء الستارة ولكنها قلبت المجلس نساءً ورجالاً . وهذا هو الترجمة الفعلية لما قلناه قبل قليل فهي مثال الجمع بين الشخصية والعفاف ، بين الطهارة والحدود الفاصلة المسماة - بالحريم - . فهي لا تعرض نفسها لأعين الرجال الجاثمة أبداً لكنها من جهة أخرى ليست موجودة بلهاء لا تعرف شيئاً من هذه الدنيا .

إن تاريخ كربلاء أيضاً عبارة عن تاريخ مذكر ومؤث . تاريخ واقعة اشترك في صنعها الرجال والنساء معاً . ولكن هنا أيضاً كانت المرأة في مدارها وفلكها والرجل في مداره وفلكه . ومعجزة الإسلام تكمن في هذا الطرح وعالمنا اليوم حُرّ بقبوله أو رفضه فالمستقبل لا بد سيقبل به بالتأكيد .

إن أبا عبد الله الحسين عندما قرر تحريك أهل بيته في تلك القافلة إنما أراد منهم أن يؤدوا الرسالة التي تنتظرهم في هذا التاريخ العظيم وبالتالي لعب الدور المباشر في صناعة هذا التاريخ العظيم من خلال أميرة القافلة السيدة (زينب (ع)) ولكن ضمن مدارها وفلكها النسائي .

ابتداءً من عصر عاشوراء تبدأ (زينب) تتجلى فمئذ تلك اللحظة انتقلت المهمة الأولى إليها فقد أصبحت هي رئيسة القافلة . ذلك أن الرجل الوحيد الذي بقي من أهل بيت الحسين في كربلاء كان الإمام زين العابدين (ع) ، حيث كان في حالة صحية متردية يحتاج فيها إلى الرعاية والمداواة ، هذا بالإضافة إلى أن العدو كان يُريد الإجهاز عليه بناءً على تعليمات (ابن زياد) القائلة بالقضاء على كل الذكور من نسل الحسين لكنه في كل مرة كان يعرض عن هذه المهمة بسبب مرض (زين العابدين) وقولهم إنه لا بد سيموت وحده فيذكر التاريخ أنهم قالوا :
« إنما هذا صبي وأنه يلما به »^(١)

وهذه بدورها أيضاً كانت حكمة إلهية ومصلحة ربّانية أرادت بقاء الإمام (زين العابدين (ع)) حياً حتى لا يُقطع نسل الحسين (ع) . على كل حال فقد كانت إحدى المهام الموكلة لـ (زينب) بعد عاشوراء رعاية الإمام (زين العابدين (ع)) والاعتناء به .

لقد جاؤوا بالأسرى من آل بيت النبي عصر يوم الحادي عشر من محرم وأركبهم على الجمال والدواب التي كان قد وضع فوقها الهوداج والبراذع المصنوعة من الخشب وتعمدوا أن لا يضعوا فوقها قطعة قماش زيادةً في العذاب والأذى .

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٦١ . أعلام الوري ص ٢٤٦ . إرشاد المفيد ص ٢٤٢ .

ولكن أهل بيت الحسين سألوا العدو وطلبوا منه مطلباً تمت الموافقة عليه . يقول الراوي :

وقلن - أي السبايا - بحق الله إلا ما مررتن بنا على مصرع الحسين ^(١) حتى نودع أعزائنا وأحبائنا الوداع الأخير . وكان الجميع مُطلقين الأرجل فوق الدواب ما عدا الإمام زين العابدين (ع) حيث رُبِطت رجلاه على بطن الدابة بسبب مرضه الشديد .

وما أن وصلت القافلة إلى مصرع الحسين حتى نزلن جميعاً عن دوابهن دون اختيار وصرن يضربن على وجوهن ويبكين وتطلق (زينب) نحو جسد الحسين فترى انحائها في وضع لم تره من قبل : جسد مُقطع الأعضاء ، مرمَلُ بالدماء ، مقطوع الرأس ، دون لباس فتقرب من ذلك البدن الشريف وتعتقه وتقول :

« . . . بأبي المهموم حتى قضى ، بأبي العطشان حتى مضى . . » ^(٢) إلى آخر القول الذي يُقطع القلوب ويحرق الأكباد حتى قيل إنها : « فأبكت والله كلُّ عدو وصديق » ^(٣) .

إنَّ أول من أقام مجلس عزاء للحسين (ع) هي السيدة (زينب (ع) لكنها في الوقت ذاته لم تغفل عن واجباتها الأخرى ، فرعاية زين العابدين في عهدها . نظرت إلى زين العابدين فرأته في حالة من الأسى والحزن الشديدين بعد أن رأى المشهد الرهيب للمصرع الحسيني فتركت بدن أبي عبد الله الحسين على الفور وتوجهت إلى زين العابدين ونادته :

يا بن أخي ! لماذا أراك وكأن روحك تُريد الخروج نحو السماء فيردُّ عليها : عمة زينب وكيف أستطيع أن أرى أبدان أحبتي وأعزائي هي بهذا الشكل ثم لا

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٨ . اللهموف ص ٥٥ . كما وردت عبارات نظيرة لها في مقتل الحسين للمقرم ص ٣٩٦ . ومقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٣٩ وكلها برواية حميد بن مسلم .
(٢، ٣) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٩ ، اللهموف ص ٥٦ ، مقتل الحسين للمقرم ص ٣٩٦ .

أحزن عليهم فتشرع زينب في تلك الظروف بتهدة خاطر أخيها وتواسي روحه الكئيبة .

وفي هذا المجال لا بد من ذكر (أم أيمن) وهي امرأة جلييلة القدر ويبدو أنها كانت من إماء خديجة التي تحررت فيما بعد وعاشت في بيت النبي ونالت الاحترام والتقدير الفائقين وصارت تروي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

ولما كانت هذه المرأة قد عاشت سنين طويلة في بيت النبي فلإنها قد نقلت ذات مرة حديثاً عن النبي إلى (زينب) وهو حديث يخص آل البيت عليهم السلام ولما كان يخص آل البيت فلإن زينب أرادت أن تتيقن من دقة نقلها للحديث فذهبت تسأل أباهاً علياً (ع) في أواخر عمره عن مدى دقة ما نقلته (أم أيمن) لها فصادق علي (ع) على صحة ذلك الحديث كما نقلته (أم أيمن) دون زيادة أو نقصان .

ولما رأت زينب ابن أخيها بهذه الحال نقلت إليه هذه الرواية التي وردت على لسان أم أيمن . وهي الرواية التي جاء فيها أن الحسين (ع) لم يقتل هكذا عبثاً بل أن مقتله كان ضمن حسابات المصلحة العليا وأن دمه هذا لن يذهب هدراً وأنه سيُدفن عليه السلام في هذا الموقع الذي صُرع فيه هكذا بدون كفن ، وقبره إنما سيتحول إلى مطاف الزائرين على مر الأيام . وهو في المستقبل سيتحول إلى كعبة لأهل الإخلاص والخلوص . كان هذا ما نقلته زينب لابن أخيها زين العابدين .

بعد ظهر يوم الحادي عشر من محرم حيث بقي (عمر بن سعد) مع جنده ليدفن الأجساد الخبيثة لأصحابه . لكن أبدان أصحاب أبي عبد الله بقيت هكذا وسط الصحراء . وتركوها في العراء وحركوا السبايا والأسرى وانطلقوا بهم مثل هذه الليلة نحو الكوفة دون توقف والمسافة تقارب اثني عشر فرسخاً . كانت الخطة أن يدخلوا بالسبايا إلى الكوفة في يوم الثاني عشر من محرم بطريقة احتفالية تُدق فيها الطبول ويُنفخ في الأبواق مما يُعطي للجيش المتصرح حالة الجيش الفاتح كما لو أنهم قد ضربوا ضربتهم النهائية وتخلصوا من أهل بيت النبوة إلى الأبد .

الرؤوس الشريفة كانت قد أرسلت قبل الأسرى لتكون في استقبال الأسرى

هناك ، والأسرى ، وعلى رأسهم (زينب) كما أسلفنا ، كان من المفروض أن يصلوا الكوفة بعد ساعات قليلة من طلوع الشمس . وفي مثل تلك الظروف الصعبة حيث كانت زينب لم تذق طعم النوم ربما منذ عصر التاسع من محرم وصلت زينب وسبايا آل البيت إلى أبواب (الكوفة) .

إنه وضع منقطع النظر ولا يقبل الوصف أبداً (هنا تتجلى زينب وتصل أوج عروجهما إنها بنت علي وفاطمة) وهما هي المرأة صاحبة الشخصية الفريدة التي بقيت امرأة لكنها كريمة وثمينة للغاية تورد خطبتها الشهيرة أمام الملأ . يقول الرواة :

إن زينب كانت تنتظر تلك اللحظة وعندما شخصت اللحظة المناسبة بالضبط : « وقد أومأت إلى الناس أن اسكتوا فارتدت الأنفاس وسكتت الأجراس »^(١)

وهكذا تكون الشخصية التاريخية إذ بإيماءة منها سكت الجميع وهذا الكل وتسمرت حتى الدواب في أماكنها وامتنعت الحركة بتأناً . يقول الراوي : « ولم أر والله خفيرة قط أنطق منها . . »^(٢) و « وخفيرة » هذه كلمة فوق العادة مهمة وقيمة .

فهي أي زينب خطبت في الناس وكانت في منتهى الحياء والعفة والعظمة وبذلك تكون قد عجنت في شخصيتها حياء المرأة وشجاعة علي (ع) .

في الكوفة حيث كان علي (ع) قد خطب فيها قبل عشرين عاماً خلت . وطوال خمس سنوات من خلافته عليه السلام كان قد أورد عدداً كبيراً من الخطب ، لا تزال مضرب أمثال الناس . يقول الراوي :

عندما نطقت زينب تبادر إلى ذهن الناس جميعاً خطبة علي (ع) حيث

(٢٠١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ١٠٨ . مقتل الحسين للمقرم ص ٤٠٢ مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٤٠ . اللهوف ص ٦٢ .

يقول : « كأنما تفرع عن لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) . . . »^(١)

ويقول الراوي :

وما أن أتمت زينب خطبتها (وهي لم تكن بالخطبة الطويلة) حتى رأيتُ
الناس يومئذٍ حيارى بكون وقد وضعوا أيديهم في أفواههم . . .

نعم فهذا هو دور المرأة بالشكل الذي يريده الإسلام . يُريد لها الشخصية
والإرادة القوية الصلبة ولكن في ذات الوقت الحفاظ على الحياء والعفة والعفاف
والطهارة والحُرمة ولهذا السبب يمكن القول إن تاريخ كربلاء تاريخ الذكور والإناث
معاً ، تاريخ اشترك في صنعه الذكور ولكن في إطار ذكورتهم ومدارها ، والإناث
ولكن في إطار أنوثتهن ومدارها ، إنه التاريخ الذي صنعه الجنسان معاً .

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم



(١) نفس المصدر السابق .

المحاضرة السابعة

شروط المبلغ والتأثير الدعائي (التبليغي)

لأهل بيت الامام الحسين (ع)

في مدة الأسر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه سيدنا ونبيّنا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين المعصومين .

﴿ الذين يُلَفِّفُونَ رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيّاً ﴾^(١) .

لم يبق من البحث العام حول شروط التبليغ في النهضة الحسينية إلا موضوعان أحدهما هو الجزء الأخير المتبقي من شروط نجاح الرسول التي سبق لنا أن شرحناها عندما نظرنا إلى موضوع التبليغ وقلنا في حينها إن نجاح أية رسالة يتطلب تحقيق أربعة شروط :

أولها كان قوة المضمون أو كما يُعبّر عنه القرآن الكريم بالحَقَانِيَّة .

وثانيها استخدام الوسائل والطرق أو المنهج الصحيح .

والثالث كان عبارة عن استخدام الوسائل والإمكانات الطبيعية والتقنية معاً

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .

ولكن بشكل مشروع دون الوقوع في الإفراط أو التفريط [الإفراط بمعنى استخدام الوسائل غير المشروعة في تحقيق هذه الغاية والتي تعطي نتائج معكوسة والتفريط بمعنى الجمود وعدم استخدام الوسائل المشروعة وهو ما يؤدي بدوره أيضاً إلى إضعاف القوة التبليغية] .

وفي هذه المحاضرة بقي لنا أن نشرح الشرط الرابع لنجاح الرسالة وهو قوة الشخصية والكفاءات التي يتميز بها الرسول .

ولما كان الموضوع الثاني المتبقي وهو التأثير التبليغي لأهل البيت (ع) في مدة أسره يرتبط بشكل أو بآخر بموضوع شخصية الرسول وكفاءاته ويتداخل معه أرتابنا لذلك دمجها في محاضرة واحدة حيث سنبحث عن شروط المبلِّغ أولاً ومن ثم نأتي على التأثير التبليغي لأهل البيت عليهم السلام سواء في مدة أسره التي أمضوها بين كربلاء والكوفة أو الكوفة والشام أو في الكوفة والشام نفسها أو بعد تحريرهم وانطلاقهم من الشام نحو المدينة .

إن قضية شروط المبلِّغ والرسول هي من المسائل التي لا أدري سبب إهمالها من قبل مجتمعاتنا . فقيمة بعض القضايا والعناوين في مجتمعنا لا تزال محفوظة ولكن القينة الواقعية لبعض المسائل الأخرى تذهب وتضيع لأسباب خاصة غير مفهومة . وسأعرض عليكم مثلاً على ذلك :

فأحد الشؤون الدينية والاجتماعية الخاصة بمجتمعنا هو مقام الإفتاء والمرجعية الدينية - مرجع التقليد - وهو مقام روحاني رفيع ، ولحسن الحظ فإن مجتمعنا يعرف ويُقدّر هذا المقام بحدوده الخاصة به . فأني مُطلّع وعارف بالشؤون الدينية عندما يسمع باصطلاح مرجع التقليد فإنه سيتبادر إلى ذهنه على الفور ذلك الرجل الذي لا يقل عمره كحد أدنى عن أربعين أو خمسين عاماً قضاه في السعي والتحصيل والمعاناة ودراسة القرآن والتفسير والحديث والفقه لدى عدد من الأساتذة العظام إضافة إلى سنوات التدريس التي أمضاها في تخريج طلبة العلم وكتابة الكتب التي حررها بقلمه الشريف .

وهذا انطباع صحيح ولا بد له أن يكون كذلك ونطلب من الله أن لا يأتي

ذلك اليوم الذي يسقط فيه هذا المقام في أذهان الناس ويصبح حاله كما هو الحال اليوم بالنسبة لمقام التبليغ والمُبلِّغ .

في عصور الإسلام الماضية لم يكن الأمر كذلك . فلوراجعنا كتب الرجال سنرى أن عدداً كبيراً من العلماء كان يعرف باسم الواعظ والخطيب : كالخطيب (الرازي) والخطيب التبريزي والخطيب (البغدادي) والخطيب (الدمشقي) وكلمة الخطيب هذه لم تكن جزءاً من أسمائهم . فما هو مقام هؤلاء العلماء الذين ذكرناهم الآن ؟

هل كانوا مثلاً بمرتبة أحد الوعاظ أو قراء التعزية الذين نعرفهم اليوم في مجتمعاتنا ؟

إن كل واحد من هؤلاء الذين لُقّبوا بالخطباء كان بحد ذاته بحراً من العلم . فالخطيب الرازي مثلاً وهو نفسه (فخر الدين الرازي) المشهور وهو ذلك العالم الذي اشتهر بأحد كتبه باسم « التفسير الكبير » والذي تم طبعه بثلاثين جزءاً ، وهو كتاب ضخيم للغاية ، ومن التفاسير العظيمة المميزة ، إضافة إلى اشتهاره بعلوم الطب والنجوم والفلسفة والمنطق والحديث والفقه والوعظ والخطابة ، وهو أول من شرح (إشارات ابن سينا) وعلّق عليها وأورد بعض الملاحظات الهامة التي كادت أن تُسقط (إشارات ابن سينا) من سموها العلمي لولا ظهور العالم الخواجه (نصير الدين الطوسي) الذي استطاع إنقاذ (ابن سينا) ورد ملاحظات (الرازي) عليه . نعم فهذا العالم الكبير المشهور بالرازي كان يُلقّب آنذاك بالواعظ والخطيب وقد كان واعظاً وخطيباً إسلامياً من الدرجة الأولى بالفعل .

وأما الشخص الذي عُرف بالخطيب البغدادي صاحب « تاريخ بغداد » الذي يُعتبر من الأسناد التاريخية الإسلامية المعتبرة . وأما ذلك الشخص الذي أطلق عليه اسم « الخطيب التبريزي » فهو نفسه ذلك الشخص الذي حرّر وأعدّ متن كتاب « المطول » وهو من المتون الأصلية في الأدب العربي وعلم المعاني والبدیع والبيان . والأمر نفسه ينطبق على المرحوم (المجلسي) رضوان الله عليه

مثلاً فهو من علماء الشيعة الكبار لكنه في نفس الوقت كان واعظاً وخطيباً إسلامياً .

في الماضي كان مقام الخطيب والواعظ والمبلغ بين علماء الإسلام بمستوى مقام مرجع التقليد وكان مقامه يستوحى منه واجب التعريف بالإسلام . يعني تماماً كما لو جاءك اليوم أحدهم وأدعى بأنه صاحب رسالة في المسائل الفقهية والدينية العامة وأنه من مراجع التقليد فإنه من المستحيل أن تقبل به هكذا بل إنك ستسأله على الفور أين قرأت وعلى يد أي مجتهد تتلمذت ؟ أو أنه كيف صار مجتهداً وهو لا يزال في سن الأربعين مثلاً ؟ فلقد كانوا في الماضي ينظرون إلى مقام المبلغ بهذه الدقة أيضاً . فالأمر ليس سهلاً بهذه الصورة حتى يأتي أحدهم ويدعي المرجعية وهو لا يزال في سن الأربعين . ولا يدري أن المسألة تحتاج إلى الدرس الكثير وربما تحتاج القضية إلى أربعين أو خمسين عاماً من الدرس والتحصيل والتدريس حتى يستطيع المرء الوصول إلى هذه المرتبة التي تسمح للآخرين منحه لقب المجتهد والفقيه والمفتي بحق ، ويصبح عندها جديراً وكفوفاً لاستنباط واستخراج الأحكام الفقهية والشرعية .

فلو جئنا اليوم على ذكر المرحوم آية الله (البروجردي) مثلاً فلنكم تعرفون بالإجمال أن هذا الرجل قد تعب على نفسه كثيراً، وبذل جهوداً جبارة حتى حصل على تلك المرتبة الدينية العليا . فهذا الرجل ظل يدرس في مدينة (إصفهان) على يد علماء كبار حتى بلغ سن الثلاثين حيث أخذ منها المبادئ الأولية في الفقه والأصول والفلسفة والمنطق .

وفي الوقت الذي لم يكن فيه سوى أستاذ ومحقق ومجتهد واحد في (إصفهان) تراه يهاجر إلى النجف فيحضر دروس الحوزة التابعة للمرحوم آية الله (الأخوند الخراساني) ذلك العالم الشهير ويصبح واحداً من أفضل تلامذته والمعهم . يذكر لنا في هذا المجال المرحوم السيد (محمد باقر القزويني) [وهو من علماء (قم) الذين رحلوا عنا قبل ثلاثين عاماً وقد كنت في بداية عهدي في الحوزة العلمية في قم المقدسة] قصة يقول فيها :

إنه كان حاضراً مرة درس المرحوم الأخوند الخراساني (والأخوند الخراساني هذا من المُدرّسين الذين قلّ نظيرهم في العالم الإسلامي فهو أستاذ كبير من أساتذة الأصول ، وعالم متميز في هذا الفرع وهو ثانياً أستاذ فريد من نوعه في الفن التعليمي ، كما أنه متخصص في البيان والتحقيق والتقرير . وكان يحضر درسه ما لا يقل عن ألف ومئتي شخص من طلبة العلوم الدينية يوجد من بينهم خمسمائة مجتهد وقد عُرف بصوته الجمهوري الذي يصل إلى كل أنحاء المسجد، والمعتز من تلامذته كان عليه أن ينهض ويُنادي بأعلى صوته حتى يستطيع إسماع اعتراضه لأستاذه (وحصل أن كان للمرحوم (البروجردي) الذي كان شاباً آنذاك اعتراض على شرح أستاذه وقد نهض بالفعل وقرّر الاعتراض (وبالمناسبة فإن البروجردي من المقررين المشهورين أيضاً) فقال له المرحوم (الأخوند) أعد تقريرك مرة أخرى ولما كرّر (البروجردي) اعتراضه وفهم (الأخوند) الموضوع جيداً قال : الحمد لله الذي وهبني طول العمر حتى أستفيد من تلميذي .

تصوّر الآن هذا الرجل الذي يعود من النجف بعد عدة سنين من الدرس إلى (إيران) فهل يصبح مرجعاً للتقليد ؟ لا فهو يبدأ من جديد ثلاثين سنة أخرى من الدرس والتحصيل والجهد والبذل والعطاء أولاً ثم يأتي موقع المرجعية .

لقد وفقت قبل عدة سنوات إلى زيارة المرحوم (البروجردي) في مدينة (بروجرد) قبل أن يتوجه إلى (قم) المقدسة وكانت مناسبة لي لحضور دروس هذا المرجع الكبير . كانت المناسبة مناسبة (١٥ شعبان) وكانت العادة أن تُعطل دروس الحوزة إذ كان يُدرّس (مكاسب الأصول) ويبدأ السيد لمدة خمسة عشر يوماً بتدريس موضوعات خارجة عن سياق دروس الحوزة في مثل هذه الأيام .

ولا زلت أتذكر أن الدروس كانت حول المسيحية وقد قال وقتها إنه سبق له وأن بحث في هذا الموضوع قبل أربعة وأربعين عاماً وأنه الآن يُريد أن يبحث في هذا الموضوع معنا دون أن يُراجع الملاحظات والتقارير التي لا زال يحتفظ بها منذ ذلك الحين ومن ثم يقارن بين فهمه لهذا الموضوع حينذاك مع فهمه له قبل أربعة وأربعين عاماً وبالفعل فقد انتهى بحثه الذي استمر خمسة عشر يوماً ثم عاد

وقارن بين البحثين فوجد أنه قد توصل إلى نفس النتائج وسجل نفس الملاحظات عن الموضوع مع فارق واحد هو أن بحثه قبل أربعة وأربعين عاماً كان بحثاً أصولياً أساسياً أكثر من بحثه الجديد في حين إن بحثه الجديد كان يتميز بتضج أكثر وبذهن متفتح وأفق واسع أكثر منه في ذلك العهد القديم أي كما قال هورحة الله عليه إنه صار أكثر فهماً للإسلام ، وإنه لم يختلف من حيث التحقيق لكن ذهنه كان قد أصبح أكثر فقاهاً منه في السنوات الماضية .

والآن تعالوا واحكموا أنتم على هذا الرجل العظيم مرجع تقليد المسلمين نعم فمثله لا بد أن يكون كذلك أيضاً . وما أخافه اليوم فعلاً أن ينسئ مجتمعنا هذه القيم ويبدأ الناس بقبول أشخاص في سلك المرجعية ممن ليس لهم صلاحية مثل هذا المقام والموقع . لكن هذا المقام محفوظ والحمد لله ويجب أن نحافظ عليه أكثر .

وإذا قلت لكم إن مقام المبلِّغ للإسلام والداعية الإسلامي الذي يُبلِّغ أهداف الرسالة الإسلامية لعموم الناس والتعريف بالإسلام باعتباره مدرسة الحياة هو في الواقع ليس أقل قيمةً من مرجع تقليد المسلمين لا يحتاج الأمر منكم إلى العجب . فهو مقام بهذه الحدود . بالطبع هناك أمور مطلوب توافرها في مرجع التقليد لكنها غير مطلوبة في شروط المبلِّغ . لكن مجتمعنا للأسف عندما يصل عند هذه المسألة تراه ينسئ كل شيء . فما هورأسمال المبلِّغ في مجتمعنا الراهن ؟ ومن أين يبدأ المبلِّغ في صعود سُلَّم المقام التبليغي ؟ فأي فرد في المجتمع اليوم يملك صوتاً جيلاً ولديه قدرة بسيطة في تلحين الشعر وحفظ عددٍ بسيط من الأشعار تراه يتدرج شيئاً فشيئاً ليصبح مداحاً في المناسبات الحسينية ، فيقف جنب المنبر الحسيني ويبدأ بقراءة بعض المديح وبعض المراثي الحسينية في البداية .

ثم تراه فجأةً بعد مرور فترة بسيطة قد وضع شالاً (أسود أو أخضر) على كتفه وأخذ يقف هذه المرة على الدرجة الأولى من المنبر الحسيني - وليس بجانبه - ثم يبدأ بالقراءة والخطاب الحسيني مدةً من الزمان ويأخذ ينقل من كتاب (الجودي) أو (الجوهرى) أو (جامع التفصيل) وقصةً من هنا وحكايةً من

هناك ، أو إنك إذا سألته من أين لك بهذه الحكاية قال لك من صدر الواعظين أو لسان الواعظين فتصور أنت للوهلة الأولى أنه يُحدّثك عن كتاب لا تعرفه أو لم تسمع به ولكنك إذا ما دقت قليلاً تفهم أنه يقصد أن أحداً من الوعاظ قد نقل له شفهاً هذه الحكاية أو تلك القصة . وبالتالي فإنّ حكاياته أغلبها قد سمعها من هذا أو ذاك من الناس ، ولا يهّمه أن كانت صحيحة أو كاذبة أو مُلقّقة . فهو لا يدري ما الخبر أصلاً وعمّ يدور الحديث . فكل ما يهّمه هو الاستمرار في المهمة بهذا الشكل التصاعدي فتراه قد جمع في هذه الأثناء عدداً من المنبرين الخاصين به (من مستمعيه) وشيئاً فشيئاً تراه يصعد الدرجة الثانية من المنبر الحسيني ويبدأ عوام الناس بالالتفاف حوله . ولما كانت أكثرية للناس تبحث عن المجالس المكتظة ، ولما كان أصحاب المجالس الحسينية لا يهتمهم في الدرجة الأولى سوى كشافة الحاضرين ، فإن أمثال هؤلاء الوعاظ ! يزدادون ويتشر سوقهم دون أن يفكر صاحب المجلس الحسيني عن السبب وراء هذا الحشد من الناس . فهل المهم أن يحتفظ المجلس بالمستمعين ؟ أم إنّ المهم ماذا سيسمعون ؟ ! إنها خيانة للإسلام أن يكون الوعظ والتبليغ قد بدأ من مرتبة القدرة على تلحين بعض الأشعار . ويبدو أن هذا الأمر قد أصبح قاعدة عامة ومتشرة في كل مكان وقد أصبحت للأسف معياراً وملاكاً وهو ما رأيناه ولمسناه في كثير من الأماكن التي زرناها . ولكن الويل لنا إذا ما بقينا على ما نحن عليه في هذا المجال فنحن الآن نعيش عصر العلم والشك والتردد ؛ إننا نعيش عصراً مليئاً بالشبهات التي تثار حول الإسلام ويزداد فيه المخالفون للإسلام . وليس هناك يوم يمر إلّا ويقرأ الإنسان مقالة أو حديثاً أو خبراً ضد الإسلام في المجلات والصحف اليومية أو يسمع من هذا القبيل عن طريق الراديو أو التلفزيون وسائر الوسائل الإعلامية الحديثة .

في مثل هذا العصر لا بد للمبلِّغ أن يُحسن القول ويملك القدرة على الاستدلال . وإذا ما كانت شروط المبلِّغ في الأزمان السابقة صعبة وخطيرة ، فهي في العصر الحاضر أصعبُ منها وأخطر بعشرات بل بمئات المرات .

إنّ الشرط الأول الذي ينبغي أن يتوفر في أي مبلِّغ هو معرفته بالرسالة التي

يريد تبليغها : أن يعرف ماهية تلك الرسالة وجوهرها . أي إن من يريد أن ينقل رسالة ما إلى المجتمع لا بد له قبل كل شيء أن يكون عارفاً ومُطلّعاً على محتوى ومضمون تلك الرسالة . لا بد أن يكون مُدرّكاً لهدف تلك الرسالة وأسسها ومبادئها ، لا بد له أن يعرف الطريق الذي يسير عليه وإلى أين يوصل ذلك الطريق . لا بد أن يطلّع على أخلاق واقتصاد وسياسة تلك الرسالة ومعارفها وتوحيدها ومعادها وأحكامها ومقرراتها وكل شيء يتعلق بتلك الرسالة . وإلاّ فكيف يمكننا أن نتصور أنّ بإمكان أحد أن يُبلّغ رسالة ما إلى الناس دون أن يعرف هو ويدرك معنى تلك الرسالة ؟ إذ إنّ هذا يشبه قولنا مثلاً إنّ بإمكان المرء أن يصبح مرجع تقليد الأمة دون أن يكون قد قرأ الفقه !!

كيفية تصور مرجعاً للتقليد يُريد أن يُصدر الفتاوى الفقهية وهو لم يقرأ الفقه ؟ ! أو أن نتصور المرء طبيباً ولم يدرس الطب مثلاً ! من هنا يتبين لنا حجم وسعة المعلومات العلمية والمعرفية المطلوبة من أي مبلغ يُريد تبليغ الإسلام .

فالإسلام مدرسة متكاملة ومجموعة عظمى منسجمة ومتناسقة . أي إنه لا يُفِيد فهم الإسلام جزءاً جزءاً بل إنه لا بد للمرء من أن يفهم الجسم الكامل والتركيبية العامة للإسلام بشكل متكامل .

ثم إنّ تقييماً لمسائل الإسلام المختلفة يجب أن يكون صحيحاً أيضاً . فأي عضو في جسم الإسلام لا قيمة له بمفرده . ففي جسم الإنسان مثلاً هناك اليد والرجل والعين والأذن والأعضاء الداخلية مثل المعدة والقلب والمخ وكل واحد منها عضو من أعضاء هذا الجسم . ولكن هل إنّ أعضاء هذا الجسم بالرغم من أنها جميعاً ضرورية ومطلوبة ذات قيمة واحدة ومتساوية ؟ وإذا ما اضطربنا إلى أن نضحي بأحد الأعضاء من أجل عضو آخر فأي الأعضاء نضحي به مثلاً ؟ فهل يمكن لنا أن نضحي بالقلب مقابل الحفاظ على اليد أو العكس من ذلك ؟ من الواضح هنا بأنه ينبغي التضحية باليد حفاظاً على القلب . ذلك أنّ الإنسان يمكن له أن يعيش بدون اليد لكنه يستحيل عليه العيش بدون القلب أو بدون الكبد أو المخ أو الأعصاب .

والإسلام أيضاً يشبه أمره أمر جسم الإنسان وهذا بدوره بحث خاص بالإسلام يأتي ضمن عنوان الأهم والمهم .

الشرط الثاني الذي ينبغي أن يتوفر في حامل الرسالة ومُبلِّغها هو معرفته في طريق وأساليب التبليغ والمهارة الخاصة بذلك وكيفية استخدامها . أي إنَّ عليه أن يعرف الوسائل التي يجب الاستفادة منها والوسائل التي لا يجوز الاستفادة منها بل وإنَّ عليه أن يعرف أيضاً ما هي الوسائل والإمكانات الطبيعية التي ينبغي عليه أن يمتلكها والوسائل والإمكانات التي لا يجوز له أن يمتلكها .

قبل حوالي اثني عشر عاماً من الآن كنتُ قد أَلقيْتُ عدداً من المحاضرات تحت عنوان « المنبر والخطابة » وقد طبعت فيما بعد في كتاب سُمي « أحاديث عاشوراء » ذكرتُ في حينها سلسلة من البحوث حول هذا الموضوع . وقد كتب العلماء الكثير من الكتب في هذا الموضوع . والخطابة أساساً فن من الفنون . ويبدو أنَّ أول من كتب في هذا الفن هو (أرسطو) . وعندما ترجم المسلمون (أرسطو) ألحقوا فن الخطابة بموضوع المنطق . ومن بعد ذلك كثُر الحديث والقول حول الخطابة . فـ(ابن سينا) مثلاً ألف كتاباً من خمسمائة صفحة حول الخطابة وشروط الخطيب حيث يقول فيه : « لا شك أنَّ من شروط أي خطيب توافر بعض الصفات الطبيعية فيه مثل الصوت الجهوري والقدرة على البيان » . وهذه نعمة من أنعم الله الكبرى ولا بد من وجود مثل هذا الفن الطبيعي لدى المبلِّغ الذي يُريد حمل رسالة التبليغ وكما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾^(١) .

لا بد أنكم سمعتم بقصة بعثة (موسى بن عمران) عليه السلام للرسالة . فبعد مضي عشر سنين من هجرته وأثناء طريق العودة إلى (مصر) وبينما هو في الطريق إليها برفقة زوجته وقد حلَّ الظلام ونزل المطر الشديد وإذ كانت زوجته حاملاً وقد اقترب موعد ولادتها وكان الهواء بارداً وزوجته بحاجة ماسة إلى الدفء والحرارة وعدم توفر أية وسيلة للتدفئة . في هذه الظروف الصعبة جال بنظره في

(١) سورة الرحمن : الآيات ٤-١ .

الصحراء وإذا بنور بعيد يراه في أقصى الأفق (في وادي طور ، أو وادي سيناء) فيتصور أنها النار فينطلق نحوها وهو يحاول الاقتراب منها بسرعة ، لكنه سرعان ما يكتشف أنها ليست ناراً ، فالأمر غير ذلك تماماً . إنه نور بعثة (موسى بن عمران) . فهناك تأتيه الرسالة عليه الصلاة والسلام . يأتيه النداء من السماء أن أبشريا موسى فإنك رسولنا ومُبلِّغ رسالتنا وإنَّ عليك أن تُبلِّغ هذه الرسالة إلى فرعون والفراعنة .

فَيَذْكُرُ موسى أهمية المهمة المُلقاة على عاتقه ولا يكتفي بموقع النبوة فيطلب من ربِّه على الفور : ﴿ رَبِّ اشرح لي صدري ﴾^(١) أي يا ربِّ أعطني من سعة الصدر والقدرة على التحمل بما فيه الكفاية حتى لا أغضب وأحرق بل اجعل قلبي يا رب سعة البحر والمحيط فالرسالة بحاجة إلى مثل هذه المواصفات . ﴿ ويسر لي أمري ﴾^(٢) .

[انظروا الآن كم نحن نُهمل ونستصغر عمل التبليغ وكَم يراه (موسى بن عمران) كبيراً وعظيماً] وفي هذا السياق أيضاً يمكن الحديث عن مخاطبة الخالق سبحانه وتعالى للنبي الأكرم محمد (ص) وهو يبشِّرُهُ هداية البشر وتبليغ الإسلام حيث تراه يقول له تعالى : ﴿ إِنَّا سَتُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾^(٣) . تصوروا تلك المهمة التي تُثقل كاهل الأنبياء ! فما بالتنا نحن أمام مثل هذه المهمة ؟!

ويستمر موسى عليه السلام في مخاطبة ربِّه طالباً منه العون على أداء الرسالة فيقول : ﴿ وأحلل عُقْدَةً مِن لِسَانِي ﴾^(٤) . أي أعطني الجمهورية والقدرة على البيان والأداء الحسن . من أجل ماذا ؟ من أجل أن : ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾^(٥) تلك القدرة التي تجعل الناس تُدرك وتفقه ما سابلَّغهم إيَّاه مما جاءني من الوحي يارب .

(١) سورة طه : الآية ٢٥ .

(٢) سورة طه : الآية ٢٦ .

(٣) سورة المزمل : الآية ٥ .

(٤) سورة طه : الآية ٢٧ .

(٥) سورة طه : الآية ٢٨ .

أي اجعل الرابطة بيني وبين الناس سهلة عن طريق الأداء الحسن وغير ذلك من الملكات الإنسانية حتى يفهم الناس الرسالة التي كما توجهها إليّ ياربّ ربّكم تطليها مني لا أن أقول شيئاً ويفهم الناس شيئاً آخر غير الذي أقوله لهم . (طبعاً ليس المقصود أن موسى غير قادر على البيان) . فالقدرة على البيان وقوة الشرح والبيان مَلَكَه طبعية لدى الإنسان (بالطبع هناك جزء بسيط منها اكتسابي أيضاً) لكن الأمور الطبيعية أيضاً بحاجة إلى التمرين والاكساب حتى تتقوى وتتصلب . تماماً مثل الأعمال الرياضية فلا بد للمرء من امتلاك الاستعداد البدني والنفسي أولاً ثم يمكنه تنمية وتقوية ذلك الاستعداد من خلال التمرينات الرياضية .

في الوقت نفسه نقول إنه لمن حسن الحظ أن عالم التشيع قد برز فيه ببركة الإمام الحسين (ع) عدد لا بأس به من الخطباء الأقوياء والقديرين والرفيعين جداً سواء بلحاظ بياضهم أو قدراتهم وملكاتهم الأخرى وإنّ مثل هؤلاء الأفراد موجودون أيضاً الآن والحمد لله وهم آية في البيان والنطق والجهورية ونقولها بغرض الإنصاف فقط ولا أريد هنا تسمية أحد من هؤلاء ، ولكن أقول إنهم مشكورون فعلاً على جهودهم وسعيهم المستمر في هذا المجال وإنهم والحق يُقال من الأفراد الذين تعبوا على أنفسهم وبذلوا الكثير في سبيل تطوير وتنمية ملكاتهم بمقدار ما كانت الظروف مساعدة لهم .

ويستمر (موسى) عليه السلام في مخاطبة ربه فيقول : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي ﴾ هارون أخي ﴿^(١) تصوّر (موسى) عليه السلام فهو يطلب مساعداً ومعاوناً له في هذه المهمة الصعبة والخطيرة التي أوكلت إليه : فالمهمة خطيرة بالفعل بالنسبة لموسى فالأمر أمر هداية الناس وإبلاغهم الرسالة وهذا لا يمكن له أن يحصل من إنسان لوحده . هكذا يفكر موسى على الأقل وأما نحن البؤساء فلسان حالنا يقول : لا داعي لمساعدة أحد فانا لوحدي كفاء لثل هذه المهمة وماذا يعني المساعد والمعاون ؟ فانا وحدي كفيلاً بكل ذلك بينما موسى عليه السلام يقول : ربي إنه التبليغ والهداية والإرشاد ، إرشاد الناس وهدايتهم . هذا أمر صعب عليّ

(١) سورة طه : الأيتان ٢٩ و٣٠ .

أنا النبي وأطلب منك يا رب العون بتكليف شريك ومساعد ومعاون لي في هذا الأمر الخطير . ثم يُسمّي ويقترح مُرشحه لهذا الجمل . إنه (هارون) الذي يراه كفواً وقديراً لمثل هذه المهمة . نعم : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنُذَكِّرَكَ كَثِيراً ﴾^(١) . انظروا الخلوص في النية والعمل ، لماذا كل هذه الطلبات وهذا العون والممدد ؟ حتى يزيد عدد المُسَبِّحين باسمك ، والعابدين لك ، والساكرين لك في هذه الدنيا يا رب العباد .

القرآن الكريم يذكر عين هذه الأمور بالنسبة إلى الرسول الأكرم محمد (ص) ولكن هذه المرة بصورة أخرى . يذكرها كأمر محقق ومفروغ منه . ففي مورد (موسى) تأتي الأمور كأنها مطالب (موسى) وقد لُبِّت بالطبع لكن بالنسبة إلى النبي محمد (ص) أنت بصورة أخرى ولكن يبدو أن الهدف والغاية واحدة إذ إنّ المواصفات واحدة فهي مواصفات الرسول والرسالة . إذ يقول تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ﴾^(٢) وانشراح الصدر باللغة العربية يعني الروح الواسعة نعم فقد أعطيناك الروح الواسعة ومن ثم وضعنا عنك أي ألقينا عن كاهلك ذلك الحمل الثقيل . والوزر تأتي باللغة العربية بمعنى الذنب أيضاً وهو خلاف العمل الحسن أو عمل الخير الذي يُعتبر جناحاً يطير الإنسان به ويُخلَق بواسطته نحو الأفق العالي . في حين أن الوزر - الذنب - يُثقل روح الإنسان ويمنعه من الحركة .

لقد قال موسى ﴿ يسر لي أمري ﴾^(٣) ويقول تعالى هنا : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ﴾ نعم فالسياق واحد ثم يضيف تعالى : ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾^(٤) وهنا لا بد من التوقف قليلاً عند هذا التعبير العجيب . إنه لبيان بالفعل فريد وعجيب . أي إنّ الله تعالى يُريد أن يرفع ذلك الثقل والحمل الذي يكاد أن يكسر

(١) سورة طه : الآيات ٣٣ و٣٤ .

(٢) سورة الانشراح : الآيات ٢-١ .

(٣) سورة طه : الآية ٢٦ .

(٤) سورة الانشراح : الآية ٣ .

ظهر النبي وبخني جسمه وربما يُفتت فقرات عموده الفقري . فما هو هذا الثقل وهذا الحمل الذي يكاد أن يوقع بالنبي ، إنه حمل الرسالة والتبليغ .

ثم يأخذ سبحانه وتعالى منحى المواصلة مع رسوله فيقول : ﴿ فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَب * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴾^(١) .

فلا تخف يا عبدي ولا تيأس فالسهولة تأتي مع الصعوبة والعسر . والسهولة تبقى وتستمر فيما بين الصعوبات . وعندما نزلت هذه الآية على الرسول (ص) يُقال إن وجهه الشريف قد أضاء وأشرق وانفرجت أساريره فآله سبحانه وتعالى يعبده بالتسهيل والتيسير ويطلب منه عدم الخوف ويؤكد عليه ذلك في الآية . ثم يقول له : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَب ﴾ أي إذا ما فرغت من تلك المهمة الأولى فعليك حمل المهمات الأخرى الصعبة أيضاً فسوف لن نجد ضرراً ولن تلقى المشقة التي تُعكدك عن الاستمرار في الرسالة . ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ . والشيعه بالمناسبة تُفسر هذه الآية على أن التسهيل والتيسير الذي حصل للنبي محمد (ص) إنما قد حصل عن طريق علي (ع) . فهو المساعد وهو المعاون . والشيعه على حق في ذلك عندما تقول بهذا القول لأن المنطق أيضاً يحكمها بهذا التفسير .

والرسول الكريم في حديث له ينقله الشيعة كما ينقله السنة وهو حديث متواتر ولا يستطيع أحد إنكاره لأنه ورد على لسان رواة السنة أكثر مما ورد على لسان الشيعة والحديث فيه خطاب لعلي عليه السلام حيث يقول :

« يَا عَلِيُّ أَنْتَ مَنِي بِمِزْلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي »^(٢) .

(١) سورة الانشراح : الآيات ٨-٥ .

(٢) بتاييع المودة ج ١ ص ٥٦ . ذخائر العقبى ص ٦٣ . الصواعق المحرقة ص ١١٩ . مروج الذهب ج ٢ ص ٤٢٥ . حلية الأبرار ج ١ ص ٥٨٩ . مستند الإمام الرضا ج ١ ص ١٤٩ . مناقب ابن مغازلي ص ٣١-٢٧ . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٣ ص ٢٥٨ . الاحتجاج للطبرسي ج ١ ص ١١٨ .

والمعنى واضح هنا فكما أن الله تعالى استجاب لموسى بإرساله معاوناً له هو (هارون) فقد أرسلك الله لي يا علي مساعداً ومعاوناً مثل (هارون لموسى) ولذلك يقول له صلى الله عليه وآله وسلم : « أنت وزيري . . . » فكلمة وزير في أصل اللغة تعني المساعد والمعاون . وقد كان يُطلق على مساعدي الملك قديماً بالوزراء . ولذلك فإن النبي عندما يقول لعلي بأنك وزيري يعني بأنك مُساعدي ومعاوني كما كان هارون مساعداً ومعاوناً لموسى عليه السلام .

والآن أليست طلبات موسى عليه السلام من ربه : ﴿ رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ﴾ ^(١) هي نفسها الطلبات التي وهبها الله لمحمد (ص) : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ ^(٢) . لا سيما إذا ما فسرنا معنى « فانصب » من خلال إرجاعها إلى مادة « نَصَب » وليس « نَصَب » فتكون بمعنى نصب علي (ع) وصياً وخليفةً وبذلك يكون المعنى منطبقاً مائة في المائة .

ماذا نستنتج من كل ما تقدم ؟

نستنتج أن منطق القرآن يعتبر عمل التبليغ والهداية والإرشاد عملاً صعباً وشاقاً للغاية في حين أن مجتمعا لا زال يرى هذا العمل عملاً صغيراً وخفيفاً ، بل إن الأمر قد وصل إلى درجة أن أهل العلم والفضل وكل من له ثقافة عامة ، صار يخرج من صعود المنبر وتولي أمر الخطابة . وصار يُقال إن فلاناً من الناس عالم ولا يجوز الخط من شأنه والطلب إليه بصعود المنبر والقيام بمهمة التبليغ . فذنب من هذا ؟ إنه ذنب المجتمع والجمهور العام . إن المجتمع بشكل عام قد خَفَضَ وحطَّ من شأن التبليغ حتى صار العالم يستنكف الصعود إلى المنبر ويرى أنه من العار عليه أن يُنزل من مقامه إلى الحد الذي يتولى فيه أمر التبليغ والهداية . لكن نحن

(١) سورة طه : الآيات ٣٥-٣٠ .

(٢) سورة الإنشراح : الآيات ١-٨ .

لدينا الآن والحمد لله في مقابل ذلك أفراد يحملون الفضيلتين معاً أي إنهم في موقع إمام الجماعة كما أنهم في الوقت ذاته لم يتركوا عمل الخطابة والتبليغ (مثل الدكتور مُفْتَح) غير أن مجتمعنا للأسف ينظر إلى إمام الجماعة نظرة احترام وتقدير أفضل مما هي نظرتة إلى الخطيب والمُبلِّغ . في حين أن القيام بواجب إمام الجماعة بالوقوف أمام المصلين والصلاة بالناس لا يحتاج إلى فن . ولأنني شخصياً عايشْتُ جو الوظائف ومررتُ في الحالتين أي إنني كنت إمام جماعة لفترة من الفترات وكنت خطيباً لفترة أخرى لذلك أقولها بكل صراحة إن الناس كانت تعاملني وأنا في المحراب باحترام أكثر مما تعاملني وأنا خطيب وهذه حقيقة والله شاهد على ذلك .

فقد قضيت فترةً في شهر رمضان وأنا أصلي في الناس جماعة في أحد المساجد ثم صرْتُ خطيب المسجد في فترةٍ أخرى فرأيتُ الفارق بين المعاملتين إذ كانوا يعاملونني عندما كنتُ إمام جماعتهم باحترام أكثر من معاملتهم لي وأنا خطيبهم . مما جعلني أعتقد أن الناس تفضل وتقدرُ اللافت على العمل الفني . فلماذا ينبغي أن يكون وضعنا هكذا ؟

فها نحن بأيدينا نُتَزَل ونحطُ من هذا المقام العظيم والرفيع . فالنبي الأكرم نفسه كان مُبلِّغاً وواعظاً ورجل منبر . صحيح أنه لم يكن هناك منبر في البداية وأن الرسول (ص) كان يقف إلى جانب عمودٍ من الأعمدة فيسند نفسه إليه ثم يبدأ بوعظ الناس وإرشادهم واقفاً . لكنه أمر فيما بعد بصناعة المنبر وصار يصعد عليه ويجلس مخاطباً الناس من فوقه ، (طبعاً المنبر اليوم ليس كما هو المنبر أيام الرسول) ثم إن أكثر ما جاء في (نهج البلاغة) هو من نتاج المنبر ، منبر علي (ع) . فنهج البلاغة للإمام علي (ع) يتألف من ثلاثة أقسام : الخطب والرسائل والكلمات القصار .

فالكلمات القصار عبارة عن حكم ومواعظ قالها علي (ع) في مواقع مختلفة وجميع هذه الكلمات والرسائل معاً لا تُشكِّل إلّا ثلث مجموع (نهج البلاغة) . في حين أن الثلثين الباقيين عبارة عن خطب ألقاها الإمام علي (ع) عن المنبر

خطيباً في الناس . وهي بالمناسبة ليست كل خطبة كما يقول السيد (الرضي) رضوان الله عليه إذ يقول عنها بأنها الخطب المختارة من مجموع خطب الإمام علي (ع) . والآ فإن خطب الإمام علي أكثر بكثير مما هو موجود الآن .

يقول (المسعودي) وهو المؤرخ الإسلامي الذي سبق السيد (الرضي) بمائة عام في كتابه « مروج الذهب » وهو من الأسناد المعتبرة جداً في تاريخ الإسلام ، يقول إنه يوجد الآن [أي في عصره] ما يقارب الأربعمائة وثلاثين خطبة من خطب علي (ع) بين أيدي الناس ^(١) . في حين أن (نهج البلاغة) لا يحتوي الآن سوى على مائتي خطبة فقط . وهذه بدورها قد أتى بها السيد الرضي مختارة ومُنتخبة ، أي إن قسماً من تلك الخطب قد أوردها غير كاملة . وعليه فإن خطب الإمام علي (ع) ربما كانت أربع أضعاف ما هو موجود الآن في (نهج البلاغة) . فما هو القسم الأعظم لنهج البلاغة إذن ؟

إنه منبر الإمام علي (ع) . فعليّ إذن كان خطيباً في الناس وقد سجّل لنا التاريخ خطاباته هذه . فصارت مجموعة في (نهج البلاغة) . وهذا دليل آخر على أهمية وعظمة مقام التبليغ في الإسلام في حين أن مقامه بيننا الآن صغير وحقير . وكانت نتيجة ذلك أن رسالة الإسلام لم تعد تصل إلى الأسماع . والعلة تكمن فينا نحن ، فنحن قد خربنا الموضوع بأيدينا ، فعندما يأخذ وضع الخطابة والخطيب هذا الموقع المتدني في أعين الناس ويسقط هذا السقوط الكلي اجتماعياً فإنه عند ذلك سيجد كل عالم أن كرامته ومقامه لا يسمحان له (سواء أكان عذره بحله وكان عذراً موجهاً أم لا . هذا أمر آخر . فالأمر عندما يأخذ هذا المنحى الاجتماعي العام يصبح لا شك مؤثراً ويجرف الجميع معه) بممارسة مهمة الخطابة والتبليغ وهداية الناس وإرشادهم ومن ثم فإن هذه المهمة ستقع بأيدي أفراد غير مؤهلين لمثل هذا المقام الرفيع وتصبح مهمة الوعظ والتبليغ تراوح مكانها ولا تغادر موقع الشعر الملحن والقدرة على نقل أشعار المديح وبعض المراثي الشعرية . وهل بالإمكان عند ذلك أن نتوقع أن يصل نداء الإسلام ونداء السماء الربّاني ونداء محمد

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٤١٩ .

ونداء علي وفلسفة هذا الدين العظيم الواسع ذي الأبعاد المتنوعة والمختلفة الدنيوية منها والأخروية . أن يصل كل هذا سالماً إلى الناس ؟ إنه انتظار وتوقع في غير محله وخاطيء لا محالة !

إن المقام الشامخ لزینب علیها السلام إنما تبلور في الواقع في عملها التبليغي . لقد مارس أهل بيت الإمام الحسين (ع) في الحقيقة مهمة التبليغ بكل جدارة ومهارة . وما لم يُلاحظ المرء هذه النقاط في تقويمه لعمل أهل بيت الإمام الحسين (ع) فإنه لا يستطيع في الحقيقة إدراك القيمة التبليغية لهم وبعبارة أخرى قيمة رحلتهم التبليغية تلك . فعمل أبي عبد الله الحسين (ع) كان دقيقاً ومحسباً منذ البداية . وقد كان عليه السلام يتوقع مثل هذه الرحلة التبليغية على يد العدو . فالعدو كان يتصور أنه يجر قافلة من الأسرى ولا يدري أنه في الواقع يحمل فرقة (دعائية) تبليغية ضده .

هناك مسألة هامة لا بد من شرحها هنا . أقول إن كل قوة جبارة ومتسلطة مهما كانت تملك من القوة والسلطان فإنها لا بد بحاجة إلى خلفية فكرية وفلسفية وعقيدية تستند إليها . أي إنها بحاجة إلى نظام عقائدي يكون هو قاعدة النظام الاقتصادي والسياسي الحاكم . فالبشر في النهاية بحاجة إلى فكر ما يستند إليه في أعماله . وإذا ما فُكر أي مجتمع بشكل جيد بالنظام الفاسد الحاكم والمتسلط عليه فإن من المستحيل على ذلك النظام أن يقدر على البقاء والدوام . ولذلك ترى أن كل الأنظمة الموجودة بحاجة إلى نظام فكري وعقيدتي يُشكّل لها القاعدة والخلفية لبقاء الحكم واستمراره . وسيان أكانت هذه القاعدة فلسفية أو دينية أو أي نوع من أنواع المدارس الفكرية المنتشرة حديثاً . وحكومة يزيد وأجهزة سلطته لم يكن بمقدورها أبداً أن تحكم دون تلك الخلفية الفكرية والعقيدية أو كحد أدنى دون تبرير وتزوير واستخدام العقائد والأفكار التي كان الناس يحملونها في أذهانهم آنذاك .

فلا تتصوروا أنهم كانوا حقاً إلى هذا الحد الذي يقولون فيه فلتقطع الرؤوس بالحرايب وليس مهماً ما يقوله الناس . لا أبداً بل إنهم بأي حال كانوا

يقومون بخداع الناس وتشويش أفكارهم من خلال إلقاء سلسلة من الأفكار والمفاهيم في أذهانهم حتى يقتنعوا بأن ذلك الوضع الموجود إنما هو الأفضل وأنه لا بد أن تسير الأمور كما سارت عليه .

وطبيعي هنا أن يُفكروا بإضفاء طابع التدين على أعمالهم وممارساتهم تلك لأن الناس كانت ذات مشارب دينية . وإلا ما معنى الاستعانة بشخص مثل شُريح القاضي ؟ أليس من أجل إغواء فكر الناس وتهذيب وتلطيف أعمال السلطة وإضفاء طابع الشرعية عليها وهو ما مارسوه . وقد نفع معهم هذا الأسلوب بالفعل ونجحت هذه الخطوة وظلّت موفقة عملياً حتى عصر يوم العاشر من محرم . فالإمام الباقر عليه السلام يقول : إن ثلاثين ألفاً اجتمعوا في كربلاء لقتل ابن النبي : « وَكُلُّ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِدَمِهِ »^(١) نعم فهم كانوا يطلبون الجنة من وراء قتله . بالطبع فالأمر لا يتعدى جمهور العامة المُغرر بهم أما الرؤساء وكما عبّر (الفرزدق) عن حالهم فإن جيوبهم قد امتلأت بالرشوة . في حين أنّ الناس العاديين قد كانوا جزءاً من برنامج (ابن زياد) الذي قام باحتوائهم وإغوائهم حسب الأصول والبرنامج الموضوع . ولولا أن يزيد كان شارباً للخمرة بشكل مُزِرٍ وأن لسانه قد زلّ من شدة السكر لما افتضح أمره ونطق بكل ما نطق به وصرّح أمام أشياعه وحزبه بأنه لا يؤمن بأي شيء مُطلقاً . فيزيد نفسه كان يعتمد على أسلوب (ابن زياد) أيضاً في التثبث بأمور الدين والعقيدة لخداع الرأي العام .

فهذا ابن زياد نراه وبعد استشهاد أبي عبد الله الحسين قد جمع الناس في مسجد الكوفة الكبير وهو يُريد إعلامهم بما حدث قد أخذ هيئة الرجل المتدين المقدّس وذلك عندما قال : « الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين وأشيعه وقتل الكذّاب ابن الكذّاب »^(٢) ولولم يكن بين الحاضرين ذلك الأعمى البصير لكان قد تمكّن من خداع الناس بشكل عجيب .

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ١١٩ ، مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٥٢ ، مقتل الحسين للمقرم ص ٤٢٦ ، الإرشاد للشيخ المفيد ص ٢٤٤ ، الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٨٢ ، اللهوف ص ٦٩ ، كشف الغمّة ج ٢ ص ٦٧ .
(٢) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٢٩٨ .

كان هناك رجل اسمه عبد الله بن عفيف الأزدي رحمة الله عليه . والحقيقة أن هناك أفراداً في المجتمع يُضحّون بأنفسهم في مواقع حسّاسة يُساوي عملهم الدنيا كلها . وهذا الرجل كان قد فقد إحدى عينيه في معركة (الجمل) والأخرى في معركة (صفين) وهكذا خسر عينيه وهو يقاتل بجانب علي (ع) . ولما كان أعمى العينين فإنه لم يُعد صالحاً للجهاد وبالتالي فإنه كان يُلازم المسجد الأعظم فيُصلي فيه إلى الليل وقد كان من الطبيعي أن يكون حاضراً في ذلك اليوم في المسجد . فما أن وصل ابن زياد إلى هذا الموقع في كلامه حتى انتفض صاحبنا من مكانه ورَدَّ على (ابن زياد) بقوله له بأنك أنت الكذاب ابن الكذاب وشرع في الخطابة والتبليغ ضد السلطة الغاشمة لكنهم سرعان ما ألقوا القبض عليه ومن ثم قتلوه بالطبع . ولكنه استطاع أن يكشف الستار ويفضح أمر السلطة الفاسدة في حينه .

إنّ ابن زياد من أولاد الحرام بالفعل سواء بالمعنى الحقيقي أو بالمعنى المجازي [فهو ابن حرام (أي ابن زنى) وهذه حقيقة يعرفها الجميع] وهو ابن حرام وشيطان بالمعنى المتداول المعروف . فعندما تسلط القوى الجبارة والقمعية على المجتمعات الدينية وتريد تبرير أفعالها تبدأ على الفور باتخاذ المنهج الجبري وسيلة لإعمال نفوذها وتعزيز مواقعها الفكرية لدى الناس . ومن ثم فإنها ستُرجع كل أعمالها إلى إرادة الله والقدر وتبدأ بالقول بأن الله أراد ذلك ولو لم يكن مصلحة في ذلك لما سمح الله لهذا العمل أن يحصل ، وإنّ ما هو موجود وحاصل هو ما يجب أن يحصل وما لم يحصل فإنه كان لا بد له أن لا يحصل . وهذا شكل من أشكال المنطق الجبري كان هذا منطق (ابن زياد) عندما واجه (زينب) سلام الله عليها إذ طرح على الفور مسألة إرادة الخالق ومشيئته عندما قال مخاطباً زينب : « الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم وأكذبَ أحمقوتكم » . إنه منطق عجيب بالفعل . فهو يدّعي أن الحسين وأصحابه أرادوا الفتنة وقد شاء الله أن تفشل الفتنة بقتلهم . لأن منطقهم هو أن الفشل إنما هو الفشل العسكري المادي . لكن (زينب) عليها السلام تقف له بالمرصاد وتفضح أمره فتدّ عليه قائلة :

« الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه . . . إنما يفتضحُ الفاسق ويكذبُ الفاجر وهو غيرنا والحمد لله . . . »

نعم فالمنهزم في الجبهة العسكرية ليس هو المفتضح . فمعيار الفضيحة شيء آخر . معيار العار والفضيحة هو طلب الحق والحقيقة . والذي يستشهد في سبيل الله لا يفتضح . المفتضح هو الظالم والمتحرف عن الحق ومعيار الأمور هو ليس في الموت أو عدمه ، وأن من يموت سيكون هو الكذاب ! بل إن معيار الكذب والصدق يكمن في الإنسان وفي أعماله وأفكاره التي مات من أجلها . فحسيننا إن مات فهو قد مات صادقاً وإن بقي حياً فهو قد عاش صادقاً وأما أنت فإن مُتَ فقد مُتَ كذاباً وإن عشت فقد عشت كذاباً . هذا هو معيار الحق والحقيقة . ثم تحمل عليه العقيلة زينب أكثر من ذلك وأشد فتقول له : « يا بن مرجانة ! . . . » ومرجانة هي أم (ابن زياد) وهي امرأة سيئة الصيت لم يكن يجب ابن زياد أن يُعرف أنه من أبنائها . أي إن الفضيحة والعار لك أنت يا بن مرجانة . وليس لنا نحن آل البيت .

وهنا كان ابن زياد قد اشتد غضبه وازداد حنقه بشكل فقد فيه السيطرة على أعصابه فنأدى جلّده ليأتي ويقطع عنق العقيلة زينب . لكن واحداً من الحاضرين في المجلس وهو من الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي (ع) بعد حرب (صفين) أراد الاستفادة من الحمية العربية فقال لابن زياد وهل تعرف يا أمير بآنك إنما تُكَلِّم امرأة قُتِلَ إخوانها وقُتِلَ أحبُّها وبالتالي فلإنها محروقة القلب موجوعة !

وعَرَضَ عليه علي بن الحسين . . . فصاح به كالفرعون « من أنت ؟ » (لاحظ مرة أخرى المنطق الجبري) قال : أنا علي بن الحسين . قال : أليس قد قَتَلَ الله علي بن الحسين ؟ . (نعم فكل شيء يجب إرجاعه لمشيئة الله حتى يُظهروا موقفهم بموقف الحق) فقال له زين العابدين كان لي أخ يُسمى علي بن الحسين قتله الناس في كربلاء . فقال ابن زياد : بل الله قتله . فقال علي : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ .

فغضب ابن زياد مرة أخرى وحنق على اسم علي وصار يقول علي وعلي ما هذا يبدو أن أباك سمى كل أولاده باسم علي . ألم تكن أسماء أخرى غير علي؟ فردّ

عليه زين العابدين بأن أباه الحسين (ع) كان يحب اسم أبيه ويفتخر به ولذلك سمى أبنائه باسم جدهم علي . وهذا يعني أنك يا بن زياد أنت الذي يجب أن تحجل من اسم أبيك .

لم يكن يتوقع ابن زياد من زين العابدين (ع) الكلام أساساً فهو بنظره أسير والأسير مطلوب منه أن يسكت لا سيما إذا قالوا له بأن هذا من مشيئة الله فإن عليه أن يوافق ويقبل بذلك القدر المحتوم ! ولذلك فإن ابن زياد لم يتحمل إجابات علي بن الحسين الجريئة هذه وبالتالي فقد غضب كثيراً وقال :

« ولك جرأة على جوابي ؟ اذهبوا به فاضربوا عنقه »^(١) يقول الراوي فسمعت عمته زينب فقالت :

« يا بن زياد إنك لم تبق منا أحداً فإن عزمت على قتله فاقتلني معه » .

وكما يذكر التاريخ فإن ابن زياد ظل يراقب الموقف لفترة عن كثب ثم قال والله إن أردنا قتل هذا الغلام فلا بد لنا من قتل هذه المرأة أولاً ولذلك صرّف النظر عن قتله .

إنها إحدى مميزات فكر آل بيت النبي عليهم السلام أن لا يقبلوا بالمنطق الجبري ، ذلك المنطق الذي يقول بأن الدنيا تسير على منطق الجبر وفي الوقت ذاته يحصل العدل أي إن الإنسان لا يملك أية إرادة في التغيير والتبدل والتحول وكل ما هو موجود هو ما يجب أن يكون وكل ما هو غير موجود هو ما لا يجب أن يكون وبالتالي فليس للإنسان أي اختيار في الدنيا . فهذا الفكر مرفوض من قبل أهل البيت ومن خصالهم عليهم السلام أنهم كانوا في حرب ضروس ضده .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وبه نستعين

تم الكتاب بعونه تعالى بتاريخ ٧/محرم/١٤٠٩ .

(١) إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٤٤ . في رحاب أئمة أهل البيت ج ٣ ص ١٤٥-١٤٦ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ١١٧-١٥٥ . الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٨١-٨٢ . اللهوف ص ٦٧-٦٨ . أعلام الوري ص ٢٤٧ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٤٢ . كشف الغمة ج ٢ ص ٦٦ .

محتويات الجزء الأول من كتاب الملحمة الحسينية

المقدمة	١
القسم الأول : التحريف في واقعة كربلاء ، أنواعه وعوامله	٥
المحاضرة الأولى : معنى التحريف وأنواعه	٧
المحاضرة الثانية : عوامل التحريف	٢٩
المحاضرة الثالثة : التحريفات المعنوية لواقعة كربلاء	٥١
المحاضرة الرابعة : واجبنا ومسؤوليتنا تجاه التحريف	٧١
القسم الثاني : الملحمة الحسينية	٨٧
المحاضرة الأولى : وجهان لواقعة كربلاء	٨٩
المحاضرة الثانية : النهضة الحسينية ملحمة مقدسة	١٠٣
المحاضرة الثالثة : النهضة الحسينية وتبلور الشخصية المستقلة للمجتمع الإسلامي	١٢١
القسم الثالث : عامل التبليغ في النهضة الحسينية (التبليغ في الإسلام) ..	١٣٧
المحاضرة الأولى : مفهوم التبليغ	١٣٩
المحاضرة الثانية : أدوات ووسائل إبلاغ الرسالة	١٥٩
المحاضرة الثالثة : منهج التبليغ	١٨١
المحاضرة الرابعة : أساليب التبليغ في النهضة الحسينية	٢٠١
المحاضرة الخامسة : واقعة كربلاء تجسيم عملي للإسلام	٢١٩

المحاضرة السادسة : دور أهل بيت سيّد الشهداء في تبليغ النهضة الحسينية ٢٣٩

المحاضرة السابعة : شروط المبلّغ والتأثير الدعائي (التبليغي) لأهل بيت

الإمام الحسين (ع) في مدّة الأسر ٢٥٩

المحتويات ٢٨١



